د. مشعل عبد العزيز الفلاحي

فصولٌ من الحياة

سيرة ذاتية



دمشق


فصولٌ
من الحيـاة
سـيرة ذاتيـة



الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

kalam-sy@hotmail.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

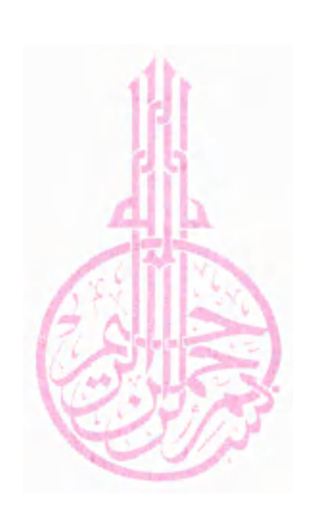
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



تـأليف

د. مشعل عبد العزيز الفلاحي





مقدمة



هذه سيرته الذاتية من الميلاد إلى تاريخ التدوين، حاول أن يسرد لك فصول حياته وتجاربه وأيامه وسني عمره، منذ كان طفلاً إلى أن أصبح صاحب فكرة ومشروع وقضية، ولديه يقين أنك لست بحاجةٍ إلى معرفة ما يتعلق بحياته الشخصية كإنسان، ولكنه أراد من هذه المعاني سلماً للأفكار والمفاهيم والتجارب والتطبيقات، ولعلك واقف بإذن الله تعالى على ما كنت ترجوه من أحداث من خلال هذه الفصول. لقد تحدَّث بعمقٍ عن الأفكار والمفاهيم والتصورات، وبنى لك أحلامك وأمانيك من خلال الفكرة والمشروع، وبسط لك الحديث عن القراءة أكثر العادات أثراً في حياة الناجين، وفتح لك آفاقاً في التركيز، وأراك بوضوح كيف أدار وقته ورتَّب أولوياته

وصنع قصة حياته، وكيف تعامل مع واقعه وأحداث زمانه، ولولا هذه المعانـــي الكبار لما كتب لك حرفاً واحداً، وقد قصَّها عليك على شـــكل فصول وكتبها بضميـــر الغائب دفعـــاً لثقـــل ضمير المتكلـــم، والله المســـؤول أن يبارك في كل فكـــرة وتجربة ومحاولة جاءت في ثنايا هذه السيرة، وأن يجعلها سلماً للحياة، وأملاً في بناء تلك الطموحات.

المؤلف





البدايات

كان وما يزال يطرب لقراءة السير الذاتية، ويرى فيها حياة صاحبها التي كتبها بقلمه وعاشها قبل ذلك بفكره وجسده! والسير حقبة زمن، وتاريخ إنسان، وحديث السنين الطوال.

قراءة السير تقرِّب لك أحداث النجاح، وتحيل واقعه النظري إلى تطبيقات، وتثير مساحة قرائها بنماذج حاضرة ومشاريع واقعية وقدوة حيَّة، فتضيق مساحة التنظير، وتتصل مباشرةً بمساحة العمل والبناء والتضحيات.

قُرَّاء السير مدينون لها بكثير من أحداث نجاحهم! وكم من قارئ صنع من حرف مرسوم حدثاً مثيراً! والناس في النهاية نتيجة لما يقرؤون ويسمعون ويرون.

قرأ سـيراً كثيرةً وهو مدين لها في جوانب كثيرة من حياته، وكم من ميِّت بحرفه صنع واقعاً بهيجاً بعد موته! وإذا لم تبعث فيك سـيرة ناجـح قضية العمل فلا مفروح بها في شيء.

لم يقرأ ولن يقرأ في هذا الباب كسيرة نبيه ﷺ، وما قـرأ فيها أمتـع ولا أمتن مـن إيمانـه بقضيته، والنهـوض بفكرته، والنضـال من أجل مشـروعه، ومسـاحات الفأل والأمـل التي كانـت تلازمه رغم عوارض الطريق، ثم ذاك الخليط المدهش من التوازن بين الإيمان بمشروعه، وقدرته على النجاح الكبير في علاقته بربه تبـارك وتعالى، وذلـك الحب والحنان والجمال الذي كان يصنعه في بيوته وأسـره، وتلك الروح التي كان يُجري بها فصـولَ الربيع في علاقته مع العالمين، وكل السـير الذاتية إنما تغرف من هذا البحر فمسـتقلٌّ ومسـتكثرٌ، وقد جهد بكل ما يملك للشـرب من هذا المعين، وبنى لك تلك المعاني في كتابيه: (مـن غير مجـرى التاريـخ؟) و(حين أضاء الكون)، ثم سـير صحابته رضـوان الله تعالى عليهم



أجمعين وخاصة الخلفاء الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وذكَّر بكثير من تلك المآثر المدهشة في حياتهم من خلال كتابه: (صُنَّاع الحياة)، وساهم الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في صناعة شجون المتربين في كتابه الكبير: (سير أعلام النبلاء)، وغير ذلك من كتب الطبقات التي عنيت بهذه المعاني الكبار.

يعترف أنه استمتع بذكريات الطنطاوي، وحياة أمين، و(رحلتي الفكرية) للمسيري، وزكي مبارك لأحمد أمين، وعمر فروخ، والتجربة في حرف هذه السير رصين المعنى، كثير الأثر غير أن ذكريات الطنطاوي تمنحك أجواءً مشاعرية فوق العادة، وإذا أردت أن تعرف حرف الحب، والغربة، والهجر، والوطن فلا تبرح هذه الذكريات، وحرف الطنطاوي بالذات يخالط وجدانك، ويأتي على مشاعرك، ويثير في وجدانك مشاهد من الأطلال مع أصالة المبدأ وعظمة القيم التي كان ينثرها بين أسطر ذكرياته، حتى أنه يبني لديك قواعد متينة من العزِّ والشرف من خلال مواقف عارضة، وأحاديث مقتضبة، وقد أتم

عبد الوهاب المسيري في رحلته الفكرية قضية العمل والمشروع والبناء الشخصي، وأتى على قضايا مثيرة جداً في حياته الشخصية تصلح للاقتداء في هذا الجانب بالذات، وبقي زمناً في صحبة زكي مبارك الذي لا يحب الهدوء وينفر منه، ويبحث عن الضجيج، واستلذ فترات بسيرة عمر فروخ، ورأى مشاهد من القيم كاد يقوم لها في مرات من مقامه!

كثيرة هي الذكريات التي دوَّنها أصحابها ولم يُرَ فيها حرف التجربة ثرياً. يسرد الكاتب في مرات كثيرة حياته التفصيلية كبيته وأسرته وقصة زواجه ودراسته، وربما جاوز أو غفل عن التجربة التي يريدها قارئ الذكريات، وكانت الأحداث العامة تسيطر عليها أو هي مادتها الكلية، وبقي في أحيان كثيرة ينقِّب عن تلك التجارب بالمناقيش، وقد لا يخرج بكبير فائدة. وسير الكبار يجب أن تأتي واضحة لعظمة أصحابها ولثراء التجربة لديهم، وإلَّا فما يصنع بحرف لا تجري فيه مشاهد التجارب والأحداث؟!



كان مولعاً بالأفـكار الناهضة ولغة المشــاريع والقضايا الضخمــة، ويطرب بلا حــدود بكل فكرة تتحــدث عن النجــاح والعمل والبناء، ويعشــق هذا المعنى بشــكل لا يستطيع حرف الأشــواق أن يأتي على آخره!

قرر فــي النهاية أن يصنع مثــل ما صنع الكبار، ولا يعلم شرطاً للســير الذاتية إلا أن يكون صاحبها صاحب تجربة، وما أكثر التجــارب التي خاضها في ساحات العمل الرســمي بمراحله الثلاث: التدريس، والإشــراف، والتدريب، وعلى مســتوى مشــروعه الشــخصي، وفــي دروب النهضة والإصــلاح التي خاضها في العمل الخيري، وفي رحاب مجتمعه، وهو في النهاية أبٌ لأســرة، وعاش زمناً مــن عمره يعظ الناس ويخطب فيهم من خلال منبر الجمعة، وشارك في نهضة مَنْ حوله مِنْ خلال الكلمة والقلم والفكرة، وخرج إلى العالم بمشــاريع يحسب أنها شاركت في البناء وكوَّنت بعضاً مما يريــد. وإذا كان كذلك فمن حقه أن يكتب تجربته ويدوِّن تاريخه ليقول للأجيال

من بعده: هــذه تجربته التي خــاض غمارها وعاش فصولها؛ فخذوا منها درســاً للتاريخ، ويحسب وهو يدوِّن حرف هذه الســيرة أنه يســير في فلك ما قال إحسان عباس رحمه الله تعالى: إن السيرة الذاتية لا تحمل الناظر على القارئ فيها ما لم يكن لكاتبها شأن في الحياة. ولن يقول مثــل ما قال أحمد أميــن رحمه الله تعالى: ما للناس ولحياتي؟! بل سيكتب كما كتبوا، وسيقول في هذه الذكريات ما جرى واقعــاً في حياته، ولعل واجداً بها الحياة يوماً من دهره فتســقي قبــره، وكم من حرف أجرى لصاحبه الأماني بعد الفوات، والله المسؤول ألَّا يكله لجهده وعملــه وفكره، وأن يتفضــل عليه كما تفضل مــن قبل فــي أصل هدايتــه وتعليمــه، وهو المستعان وعليه التكلان.

نشــأ في بيئة صغيرة عادية جداً، ليس فيها شيء من معينات النجاح التي يتحدَّث عنها أصحاب المدن، ويتمنَّاها أصحــاب المشــاريع، وتهفــو إليها قلوب الجادين، قرية صغيرة ليس فيها من موارد النجاح إلا صفاء أجوائهــا وبعدها عن ضجيج المدن، وســهولة

الحركة فيها، وتلك المعانـــي التي لا تكاد تجدها إلا في ربوع القرى، وقد قرر فـــي كتبه أن في إمكان كل إنسان أن يصنع شيئاً ملهماً مهما كانت ضآلة الموارد ونقص الإمكانـــات، والأحرار لا يقف فـــي طريقهم شـــيء، فقرر أن يحمل راية القـــدوة، ويتحمل وعثاء الطريق، ويكون حاملاً الســـراج الذي يبـــدِّد الظلام، وحاسراً مساحات الصحراء، وموسعاً لمباهج الربيع، ولعله بلغ بعضاً من تلك المعاني الكبار.

بدأ حياته وهو لا يرى ســـوى الجوانب المشرقة في شخصيته، ومن توفيق الله تعالى له أنه عرف قصة دوائر الهمـــوم والتأثير مبكراً، فدفـــع الأولى، وأقبل على الأخرى بكل ما يملك، ووضع نصب عينه آمالاً عراضاً، وذهب يقاوم ظروفه، ويجهـــد في بناء ذاته، ولم يستســـلم لعـــوارض الطريق فأكرمـــه الله تعالى، ولطف به وأجرى له من أســـباب التيسير ما حقَّق به بعض تلك الآمال وما زال يرجو، والله المستعان!

كوَّن لنفسه مشروعاً، ويحسب أنه عاش مناضلاً من أجل فكرتـــه، وكان مؤمناً بأن الحيـــاة عبارة عن

مشـــروع وفكرة حيَّة، وكتب في تعريف له ذهب بعد ذلك مثالاً صالحاً للاستشهاد: (مؤمن بأن الحياة عبارة عن مشروع، يعيش لفكرة حية، ومستعد للتضحية في ســبيل فكرته ومشــروعه بكل ما يملــك)، وهو في النهاية لا يعدك في صفحات هذه السيرة إلا بمشروعه وفكرته وذكرياته من أيام الصبا إلى تاريخ حرفه، وقد كتبها لك وهو في الخمسين، ومن بلغ هذا السن فقد مرَّ به مــن التجــارب ما يكون صالحــاً للاقتداء في مســتقبل الأيام، فإن وجدت ما يدفعك للحياة فتلك الأماني، وإن لم تجد فدعــوة منك بظهر الغيب تبني له منازل في الدارين.





قصة الطفولة

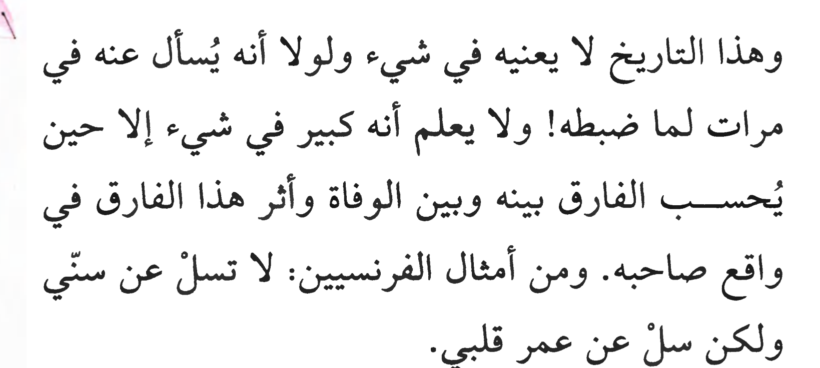
(الأحداث التي لا نملك صناعة لحظاتها
وتترك فينا ندوباً كثيرة من أحداثها)

وُلِد كما يُوْلد غيره في ذلك الزمان في أطلال بيت القش القديم، كانت الحياة بسيطة لتلك الدرجة، ولم يكن فيها هذا الضجيج على الميلاد والوفاة كما هو شأن زمانك، ولدته أمه فخرج مريضاً في بداية حياته مُتعباً والديه، إلّا أنَّ الله تعالى منَّ عليه بالتوفيق في النهايات، وما كل من ولد متعباً في أول حياته ظل كذلك، وكم من مؤلم في البدايات صنع إشراقاً بهيجاً في الخواتيم! ويزعم أنه عوَّضهم عن بعض ما فقدوه، وحقق لهم بعض ما يرجون. وفي زمانك تصوِّر المرأة طفلها حتى وهو في بطنها، وتضع تلك الصور في جانب من بيتها، ثم تجمعها بعد ولادتها وتصنع حفلاً وتعرض تلك الصور في وسائل التواصل الاجتماعي وتوقد

شموعاً وتجهز لتلك المناسبة حفلاً، ثم تُلقيه بعد ذلك في أجواء الحياة وتسلمه وهو في باكر عمره لجواله بكلٍّ ما فيه من شهوات وشبهات، وما أكثر من يصنع هذا في زمانك! وما أقل من يعتبر ولده مشروعاً صالحاً للبناء والتأثير!

ظلَّ هاجساً مقلقاً في فكر والديه من خلال مشروعه وفكرته وقضيته التي ينادي بها في العالمين، وكانت تمثل لهما قلقاً وخوفاً على مستقبله، وكم من قائل لهما يوماً: إنه وارد بكما المهالك، وسائر بكما في ظلام المشكلات، وظل وما زال يؤمِّن روعهما، ويعدهما بالأماني الكبار ويذكرهما بأنه إنما يصنع لهما فألاً ويجهد أن يرفع مقامه ومقامهما في الدارين! وما كان يريد لهما ما يخافان منه، ولكنها الحياة تحتاج إلى نضال الجادين.

ولد في قرية صغيرة تدعى قرية (الفِلَحة) نسبة إلى القبيلة، وهي جزء من مركز (حلي) التابع لمحافظة (القنفذة) جنوب (مكة) بأربع مئة كم، وميلاده المدوَّن في بطاقته التي يحملها (١٣٨٨هـ)



وهذا التاريخ لا يعنيه في شيء ولولا أنه يُسأل عنه في مرات لما ضبطه! ولا يعلم أنه كبير في شيء إلا حين يُحسب الفارق بينه وبين الوفاة وأثر هذا الفارق في واقع صاحبه. ومن أمثال الفرنسيين: لا تسلْ عن سنّي ولكن سلْ عن عمر قلبي.

رحل ابن الثلاثين حافظ حكمي وقد أشغل الجامعات والمساجد ودور العلم بتراثه، أما النووي فقد خلّف تراثاً لو وزِّع على كبار لكان حملاً ثقيلاً وعمره حين ترك الدنيا لم يجاوز ستة وأربعين عاماً، وتقرأ في سير كثير من السابقين، أو ترى في واقعك من جاوز الثمانين وهو صفر في كل شيء.

تزوّج والده باكراً، وهو بكره وأول بهيج في حياته وتبعه تسعة آخرون، وتحمَّل لذلك الصعاب، فقد كان يقوم بأدوار البيت كاملة في بداية عمره، فهو الذي يعِدُّ قهوة الصباح، ويكنس البيت ويرتبه، وبقي على هذا زماناً حتى جاء دور البنات، ثم تخلَّص من تلك المهمات.

كان والده وما يزال جـادأ لا تعجبه الفوضى في شيء، حازماً يريده رجلاً وهو في باكر عمره، وكبيراً وهو في صغر سنه، لم يحدث أن ترك له الخروج من البيت إلا مشـروطاً وفي وقت ضئيل، وقلَّ أن تنفكَّ العصا من يده يؤدِّب على مجـرد الخروج، ويضرب لأدنى خطـأ، ولا يعترف بمراحل العمـر، وهوايات الصغر، ورفاق الطريق، وكل ذلك عنده من الفوضى التي تحتاج إلى ترتيب. وفي جسده من ندوب عصا والده شـواهد على تلك الحقبة من الزمن لم تذهب مع الأيام ولم تمحها السنون!

كان والده شديداً لا تنفع معه أنصاف الحلول، لا يسمح باللعب، ويراه عبثاً، وقد فرض عليه وعلى إخوانـه سـوط الجلاديـن، وإذا اشـتكى أحد من تصرفاتهـم فيا ويلهم ذلـك المسـاء، وإذا نُقل إليه بعـض أخطائهم فالناقـل صادق وهـم المخطؤون بلا تردُّد، وعليهم أن يسـتقبلوا أثر ما قيل عنهم من خلال ذلك السـوط. وحيـن كبر رأى أسـراً ولدها الصادق بلا بيِّنات، ومعه الحق في أيِّ خلاف، وغير



ذلك مما هو محمول على الحقد والتشفي والخلاص، فأفسدوا ما بينهم وبين الخلق وأفسدوا أبناءهم في النهايات.

نشأ في أجواء لا تبني الثقة، وتقف حجر عثرة أمام الإبداع، وتضيق حتى لا تسمح بالكلمة، وإن كانت حفظته من الضياع، وسَلَّمته من عبث الرفاق، وصنعت منه رجلاً يفتح مساحات في الظروف الصعبة ولا يتكل على الآخرين، ولقي من أثر ذلك في قابل حياته ما لقي وقد حاول جاهداً أن يقفز على هذا الواقع، ويكتب لنفسه شيئاً، وتعثر مراراً، ولكنه - بفضل الله تعالى - جاوز ذلك الذي عاناه، وبلغ بعض أمانيه، وما زال يجهد، وإن كان هذا قد استغرق منه جهداً ومالاً وفكراً وسفراً وعناءً، ولكن النهايات الملهمة دفعت بباب الألم مرة واحدة وألقت به في عالم النسيان، والحمد لله تعالى أولاً وآخراً.

التربية القاسية والناعمة مصطلحان مفترقان في كل شيء، كان الأول أصلاً في زمانه، وغدا الثاني هو الأصل في عالم اليوم، وما كان يصلح بالأمس لم يعد

منه شيء قابل للتجربة اليوم. وكل من حاول أن يكرر بعضاً من تلك التجربة زاد في المسافة الفاصلة بينه وبين ولده، وخسر أكثر مما ربح، وشواهد ذلك تجلُّ عن وصف الواصفين، ولن تجد أوفى لك من معرفة منهج نبيك ﷺ فهو منهج صالح لكل زمان ومكان. وإني قائل لكل أسرة: أبناؤكم مشاريعكم في الحياة، تذكروا في كل مرة حديث نبيكم ﷺ: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إِلَّا مِنْ ثلاثٍ.. أو ولدٍ صالحٍ يَدْعُو لَـهُ**»[(١)]، وادفعوا كل ما تملكون لبناء هذه الأماني غداً بين يدي الله تعالى، لا يشغلكم عن صلاحهم شيء، رابطوا على هذا المعنى، اعتنوا به بدايةً من صغره، وادفعوه في باكر عمره لحلق تحفيظ كتاب الله تعالى، فكم للقرآن من آثار على صاحبه، وإياكم والتفريط في تعليمه مهما كانت الظروف قاسية والفرص قليلة! ثم أفيضوا عليه من الحب والتقدير والاهتمام والعناية ما يملأ قلبه ومشاعره، واصبروا على أخطائه مهما كثرت، وضعوا أعينكم على إيجابياته، ركزوا على نقاط قوته،

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) (١٤).



واصنعوا لها مواقف من التشــجيع والإجلال، وإياكم ومقارنته بغيره مهما كانت الدواعــي إلى ذلك، وغداً بإذن الله تعالى تورق لكم الحياة. والله ثلاثاً، ما رأيت أنفع ولا أجمل ولا أدهش في التربية من هذه المعاني على الإطلاق!

حين كبر وفقه الحياة وأصبح ذا شأن تنازل والده عن مســؤوليات البيت له وتغيَّرت كثير من شــؤون والده الأولى، وأصبح شــيئاً مختلفاً في التعامل معه ومع إخوانــه، ولم يعد يلتفت إلى كثيــر من القضايا ويَكِل أمرها إليهم في كل الأحوال.

تعب والده كثيراً، وتحمل أعبــاء الحياة في باكر عمره وعــاش الفقر، حتى أنه قال لــه ذات مرة: كنت يتيماً ألعب مع صغار الحي وظروف الناس قاسية من الفقر، فإذا حان وقت الطعام نادت كل أســرة صغيرها وبقيت أنا لا ينادي عليَّ أحــد، فأجلس وحدي أبكي طويلاً لا أجد من يأخذ بيدي لغداء أو عشاء!

اعتمد والده على نفســه وتحمَّــل أعباء الزمن وهو صغير فكان يؤجِّر نفســه للتجار، فيسوق لهم



الإبل والبقر من اليمن جنوباً إلى مكة بمقابل زهيد، وتارة يُعطى حقه مــن ذلك العناء، وتارة يُبخس منه شــيئاً، وتارة لا يُعطى بالكلية لخلاف عارض رغم طول الطريــق، وظل كذلــك زمناً طويــلاً، ثم بدأ يستثمر ما يأتيه من ذلك المال في بيع وشراء حتى كوَّن نفســه، وتزوج من إثر ذلك، وأصبح في عداد المكتفين ذاتياً حتى أنه صار يُسلف غيره، في حين كانت الظروف القاســية تضرب بأطنابها على كثير من الناس.

- توظف والده بعد ذلك في (مركــز إمارة كنانة) وكان يرعى بذلك الراتب البسيط أسرته، ويقوم على شؤونها، ويجهد في إغنائها، وبقي كذلك حتى كبرت الأسرة، وتزوج الأبناء والبنات.

- كان والــده مؤذناً للجامع وما يــزال، ورزقه الله تعالى صلاحاً وحرصــاً على الصلاة وإجــلالاً لها، ومتعلق بكثيرٍ من شــؤونها، فهو يطرب لجمال أبنية المساجد ولطول مناراتها، وإذا رأى شيئاً من ذلك ظلَّ يتحدث زمناً عمَّا رآه من تلك الآثار.



منذ عرفه وهو يصوم الاثنين والخميس، والأيام البيض، وتسع ذي الحجة، وعرفة، وستة من شوال، لا يتخلف عن ذلك إلا لعارض، وكان على علاقة طويلة الأمد بقيام الليل، ينام بعد العشاء مباشرةً، ثم يتفرغ ساعات لقيام الليل لا يتخلف عن ذلك البتة.

أثرت تلك البدايات في حياة والده فقد عاش يُجلُّ النعمة، وإذا توضأ لا يكاد يبلُّ التراب ويرى ذلك من الإسراف، ولأنه عاش نوعاً من الغربة والفقر تراه يعتني بالعمال الذين يقومون على خدمته في الرعي ونحوه، فيعطيهم رواتبهم في مواعيدها لا يتخلف عن ذلك، ويزيدهم على الحق المتفق عليه، فيحسب للعامل مالاً عن كل جهد خارج نطاقه الذي جاء به، وقد يعطيه مالاً حتى يتواصل مع أهله، ويحرص كثيراً على إكرامهم في أي مناسبة، فتراه يسأل عنهم وهل وصلهم شيء أو لم يصلهم، ويظل قلقاً لذلك حتى يعرف الجواب.

تغيرت تلك الشدة في والده مع الزمن فأصبح لا يملك دمعته في مصائب الموت على قريب

أو صديق، وسرعان ما يجهش بالبكاء، وظل ذلك ملازماً له جزءاً طويلاً من عمره.

من عجيب أمر ذلك الوالد أنه إذا سافر معه لعمرة أو زيارة للمدينة أو أي سفر فلا يمكن لابنه أن يدفع ريالاً واحداً في ذلك السفر، وظل ذلك الوالد هو الذي يتكفل به في تلك الرحلات والسفريات ذهاباً وإياباً، ومهما حاولت أن تدفع شيئاً أو تشارك على الأقل فلا سبيل لك، ولا يعرف يوماً أنه صحب والده في سفر ودفع شيئاً من تكاليف الطريق.

وعى والده الحياة، وكان يدرك قصر الدنيا وآماد الآخرة الكبرى، فكان يبذل كل جهده في استثمار ما يمكن استثماره، وكم هي المرات التي باع فيها أرضاً بمبالغ كبيرة وأرصدها أوقافاً لله تعالى، وقد رزقه حباً للصدقة والبذل والتضحية في هذا الباب، وكان يرجو ما عند الله تعالى فينفق جُل ما يملك، ولا يسمع بشيءٍ يحتاج إلى دعم إلا شارك فيه وباركه وأعان عليه.



كان والـــده يحمل عقيدة صُلبـــة ومتينة، وكلما رأى حدثاً في الكون وقـــدراً مما يجري في الأرض نسبه إلى ربه، وأنه هو الذي أراده، وأن الخلق عبيدٌ له تعالى فقراء محتاجون، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، ولا تكاد تجلس معه في أمرٍ كبرَ أو صغرَ إلا أحال ذلك إلى قدر الله تعالى، وأنه لو شاء لكان أو لم يكن.

لم يكـــن والده محباً حفلات الـــزواج والتكريم ونحوها مما يكثر في زمانـنـــا، وكان زاهداً فيها وقلَّ ما شارك في تلك المعاني، وغالباً ما ينام بعد العشاء مباشرةً إلا في ليالي صيام التطوع؛ فإنه يجد من آثار الروح والفرح في قلبه ومشـــاعره ما يمكنه من السهر مع أولاده في لقاءاتهم واجتماعاتهم ويشاركهم بعضاً من الليل، وكذلك تصنع الطاعات في قلب إنســـان! ومن أراد إشراق الروح ومدَّ مســـاحات لليالي الأنس في مشـــاعره فليقبل على الصيام وسيرى من مباهج النعيم ما يجري له الحياة زمناً في قلبه ومشاعره! وكم كان ذلك الوالد محباً ومجلاً لمكة والمدينة، وأعظم

أنوع البر به أن تزور به تلك الأماكن مراراً، وتسقيه من ماء زمزم فحسب.

الوفاء وردُّ الجميل من أعظم ما يتجلى في شخصية والده، فمن أكرمه بشيء حاول بكل ما يملك أن يرد له ذلك من طريق آخر، كنت معه مرة وقد ذهب إلى محافظة (محايل) وأخذ زيت سمسم للبيت، ثم أخذ زيادة كبيرة في جهة أخرى فسألته عن ذلك، فقال: هذه لفلان أكرمه في شأن من الشؤون، ومرة عزم رجلاً إلى مناسبة في البيت فاستغرب أهل البيت لعدم وجود علاقة مسبقة بينهما، ولما سُئل أخبر بأن ذلك الرجل أكرمه بعض أيام الدهر ويريد أن يرد بعض جميله، وقلَّ أن يشاركه أحد في معنى إلا أكرمه في معنى آخر، فكيف لو عرف أن ذلك من أخلاق رسول الله ﷺ فإنه لما قال له أبو بكر رضي الله عنه: هذه راحلتي يا رسول الله، فقال له ﷺ: «**بالثمن**» أي بمقابل!

له قلب طيب لا يحمل الحقد على أحد، وإن غضب في بداية أمره على من اختلف معه، لكن



سـرعان ما ينسـى ذلك ويعود إلى صاحبه، وقد يكون هو الذي يزور بعد الخلاف ويطلب الصفح ويرجو العفـو، ولا تكاد تجد له خلافـاً مع أحدٍ البتة.

من توفيق الله تعالى لذلك الوالد أنه كان متحرزاً جداً في شـأن الأراضي الزراعية، ويعـي الأحاديث الزاجرة عن الظلـم فيها مع شـدة المتعلقين بها في زمانه، ولا تكاد تجـد له خلافاً في ذلـك مع أحد، ولا تجد له شهادة على أرض إلا ما كان بيِّناً واضحاً، ويتورع كثيـراً، وكثيـراً ما يقول في تلك الشـؤون: لا أدري، بما يدلك على تحرزه وخوفه من آثار ذلك على مستقبل حياته.

كثيراً ما أعطى ولده مالاً يتصدق به عن نية فلان وفلان، فسأله يوماً: مَنْ هؤلاء؟ فقال له: ذاك اختلفنا معه في أمر ما ولعل هذا من مالـه، وهذا عن تلك، وثالثة ورابعة ويرجو ألا يلقى الله تعالى وعليه شـيء من أوزار الآخرين.



كان والده ـ وما يزال ـ يجل صديقه ويزوره، ويسافر إليه من أجل برِّه، ولا ينسى مواقف الإخاء ويحرص على بقائها، ومثل ذلك صديق والده تماماً لا فرق.

من وعي ذلك الوالد أنه لم يترك شيئاً يوجب الخلاف بين أبنائه بعد موته، حتى إنه قسم أرضه التي يملكها حول بيته السكني بين أبنائه ذكوراً وإناثاً لا فرق، ولم يترك شيئاً بعده إلا أرضاً للزراعة أرادها أن تكون ملكاً للجميع.

تعلم والده من الحياة كثيراً وأخذ دروسها بوعي، فتراه لا ينفق ريالاً إلا في طريقه الصحيح، فجزى الله تعالى والده خيراً وأعانه على برِّه حياً وميتاً، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

رُزق بأمٍّ تحبُّه كثيراً وتفيض عليه حناناً في كل حين، وتسأل عنه حتى على كبره ومسؤولياته، فإذا ما مرض فلله ما أكثر حنانها وعطفها! ولو رأيتها وهي تدخل وتخرج وتأتي وتعود وتسأل ولا تذوق لذة النوم حتى تجري العافية في جسده ويعود معافى من جديد.



- كانـــت حازمة جداً ولا تقبـل بأنصاف الحلول، ولها رأي فـــي كثير مـــن القضايـــا، وإذا أرادت أمراً حاربت عنه وفيه حتى توردە النهايات، ولا سبيل لك إلى إقناعها في ذلك الحين.

- كانت وما زالت تـــرى الصلاة أصـــلاً في حياة أبنائها، وترى المتخلـــف عنها متخلفاً عـــن التوفيق والسداد في كل شؤونه وأحواله.

- عاشت زمناً من عمرها وما زالت هي التي تتولَّى تذكير المتأخرين من أبنائها بالصلاة حتى الكبار منهم والموظفين والمتزوجين لا فرق، تتولَّى ذلك في صلاة الفجر خاصة وفـــي غيرها، وإذا أقفل أحـــد منهم بابه أخذت عصـــا وضربت بهـــا على البـــاب حتى يخرج مفزوعاً، وإذا فاتته الصـــلاة خاصمته ونازعته وأجلبت عليـــه ما بقي من يومـــه، وفي مـــرات إذا تمكنت من الدخول ضربته وأدَّبته على تخلفه صغر أو كبر لا فرق.

- تولَّت بناتها بالتربية والتأهيل على القيم والمثل والحياء، وتولَّت إعدادهن من خلال تكليفهن بإدارة

شؤون البيت فخرجت كل واحدة منهن محافظة على قيمها، وتزوجن كلهن فصارت كلُّ واحدة منهن أيضاً متميزة في إدارة شؤون بيتها، وإلى اليوم لا زلن يلقين من توجيهها في كثير من قضايا الزمان.

عابدةٌ تجلُّ شـــريعة الله تعالى وتقوم بواجبها في هذا الشأن على أجلِّ الوجوه وأكملها، وإذا بدأت في صلاتها فدعك مـــن الانتظار العَجِل فلا ســـبيل إليها حتى تأتي بها كما تريد، حتـــى أصبح ذلك جزءاً من شـــخصيتها، وهي كذلك حتى في ســـفرها ننتظرها طويلاً لذلك المعنى الكبير.

فتح الله تعالى عليها حبَّ كتاب الله تعالى وهي أمِّيَّة لا تميِّز حرفاً عن آخر ومع ذلك حفظت القرآن، أو كادت، مـــن خلال الدار الخيريـــة التي لا تتخلَّف عنها مطلقاً، وإذا تخلفـــت المعلمة لعارض أو إجازة أبدت عدم رضاها عن هـــذا الضياع الذي يتخلل هذه المعاني، ومعها آلة التســـجيل تســـمع منها كتاب الله تعالى وتقضـــي معها الســـاعات الطـــوال، ولا تكاد



تفارقها في ليل أو نهار، وكثيـراً ما تطلب من الأبناء من يسمع لها ما حفظت من كتاب الله تعالى، وأخذت جوالاً بعد ذلك وطلبت أن يحمل فيه القرآن تسـمع منه كتاب الله تعالـى، وما أكثر ما تشـغل وقتها في السـفر بكتاب الله تعالى أو بالاسـتغفار، حتى إنك لتحتقر نفسك من كثرة ذكرها لله تعالى.

- يعجبها الجمال والحيـاء والحجاب في المرأة، وإذا ذهبت لمناسـبة أو لقاء فوجدت صوراً من ذلك جاءت معجبة مدهوشة تتحدث عمَّا رأت وكأنها رأت الحياة، وإذا رأت في المقابل شيئاً مما يعارض القيم بقيت كذلك غاضبة ساخطة على تلك المشاهد التي عرضت لها في تلك المناسبة.

- كريمة في بيتهـا، وإذا أتاهم ضيف صنعت تلك الليلة كل مباهج الكرم في بيتها، وتعتني بذلك عناية كبيرة وتظل مهمومة حتى تنتهي مراسـم تلك الليلة بكامل فصولها، وترى من البخل عـدم العناية بمثل هذه الجوانب مع الضيوف.

نال هو ومشــروعه حظوظاً كبرى مــن التوفيق بسبب دعاء والديه في الليل والنهار والسفر والحضر وأيــام الفــأل والأزمات، وقــد وجد من آثــار ذلك ما يفوق الوصف، ويعلــم أن ذلك أثر دعوة في جنح الظلام وقبيل الإفطار وفي لحظات السَّــحَر، وما زال يعيش في مراتع النعيم.

مَنَّ الله تعالى عليه بخمسة من الإخوة وأربع من الأخوات وجمع الله تعالى شــملهم في أسرة واحدة متعاونين على البر والخير والمعروف، ولن تجد لك أســعد من أخيك ولا أقرب لك منــه، ومن فقه هذه المعاني وجد كل شيء.

عاش عمره ممتناً لتلك اللقــاءات العائلية التي تجري في وسط الأســبوع وآخره مع إخوانه وأخواته عند والديه، وما أكثــر ما يلتقــون ويجتمعون! وإذا جاءت ليلة خالية تاقت نفســه لرؤيتهــم مع أنهم في مساحة واحدة وأقرب ما يكونون لبعض، ولكن تلك الاجتماعات كان لها بريق خاص في النفوس، وكلما



رأى ذلك الاجتماع أدرك أثــر الأبناء على آبائهم في مســتقبل الأيام. وما أكثر ما كان يقنع زوجه وأخواته بالمكاثرة في الأبناء والصبر عليهم؛ فإن عوائدهم مع الزمن جميلة!

كان وما زال يعرف قدر الأبنــاء على الأبوين ودورهم في صنع مباهج الحياة وبخاصة مشاهد أمه في مســاء الاثنين والخميس وهي ترقــب اجتماع بناتها لتبقى معهن إلى ســاعات متأخرة من الليل، ما أغراه بالعناية بهذا المعنى الذي يكبر مع الأيام، ولعلك رأيت أبويــن لا ولد لهما وهما فــي الكِبَرِ يتســولان الآخرين لســفر أو مرض أو عارض من الحياة، فضلاً عــن الفراغ الذي يعيشــانه، وقد تمرُّ عليهم الليالي الطوال ولا يجدان زائراً أو مؤنساً أو سائلاً، والله المستعان!

عــاش فيما بعد من أثــر تلك التجربــة جاداً، حريصاً، تشغله رحلة الهدف، وتسره مباهج النجاح، وتغريه مشاهد الفوز والتحديات، وعاش في المقابل



متـــردداً فـــي مواقـــف، ضعيـــف التعبير عـــن رأيه الشخصي في مواطن لولا توفيق الله تعالى ثم جملة من القراءات والبرامج والمشاريع التي أسهمت فيما بعد في التفوُّق على تلك المشكلات، وإلا لبقي في حثالة الســـرير وجوانب الطريق! وهـــو يقول لكل سائل ومستشير: لا تستلم لظروف زمانك، ولا تقف متفرجاً على عقبات طريقك، تسلق الجبل، وتحمل تبعات مستقبلك، وزاحم مشـــكلات زمانك، وكن مؤمناً بأن الحياة محاولة جريئة أو لا شيء، وقد قال لك الأول:

وَمَنْ يَتَهَيَّبْ صُعُوْدَ الجِبَالِ يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَر

في عالم اليوم كل شيء معقَّد حتى التربية، وقد لا تظفر في زمانـــك بقارئ من أجل هذا المشـــروع الكبير (**أو ولد صالح يدعو له**) ويبذل له في المقابل في لباسه ومركوبه وطريقة عيشه كل شيء.

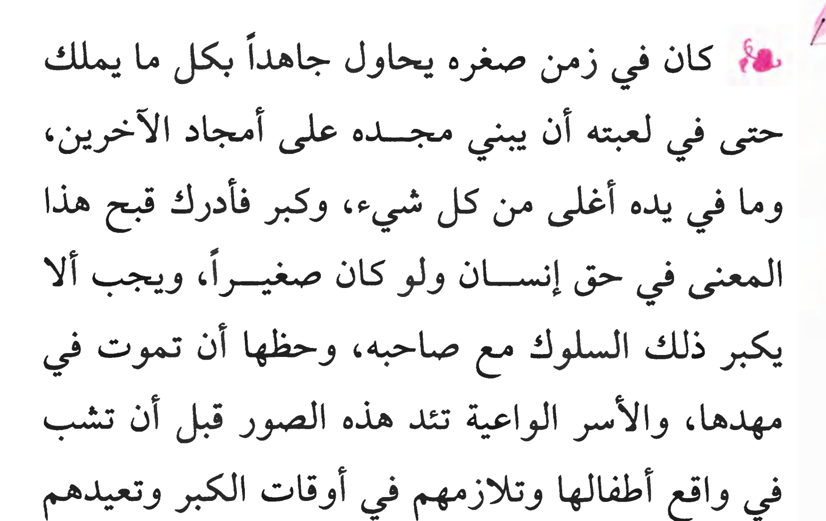
البيئات التـــي لا تتحدَّث عن النجـــاح والتفوُّق والتميُّز لا تخلق فرقاً في تاريخها، ويعود أبناؤها في النهايـــة أعداداً تزيد فـــي رقعة المجتمـــع دون تأثير.



وكثير مــن المجتمعات حاجتها للقــدوات تفوق كل حاجة، وإذا رأيــت في بيئة ما طالب علــم، وطبيباً، ومهندساً، وصاحب رسالة ومشــروع، وحاملاً للواء فكرة فاعلم أنك قاب قوســين أو أدنــى من المجد، وستدفع هذه القدوات بغيرها لسلوك ذات الطريق.

إذا أردنا أن ندفع بمجتمعاتنا للمقدمة فعلينا أن نحيي الأجواء العلمية العملية فــي واقعها، وأن نثير العلم في لقاءاتها، وأن نكرِّس مفاهيم القراءة والتفوُّق والتميُّز في حياة أبنائها، وحينئذٍ ســتلد أجيالاً فاعلة قادرة على صناعة الطموحات.

أدرك بعد فــوات صحة تلك العبــارة التي كان يرددها الكبار: (العلم في الصغر كالنقش في الحجر) وما أقبل على مشروعه إلا على كبر! ولولا توفيق الله تعالى عليه ثــم ذلك الجهد المضاعــف الذي بذله، والصرامة التــي فرضها على وقته لمــا أدرك ما فات ولبقي في مؤخرة الركب، ولما استطاع الوصول إلى شــيء، وفــي الوحــي: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]!



كان في زمن صغره يحاول جاهداً بكل ما يملك حتى في لعبته أن يبني مجـده على أمجاد الآخرين، وما في يده أغلى من كل شيء، وكبر فأدرك قبح هذا المعنى في حق إنسـان ولو كان صغيـراً، ويجب ألا يكبر ذلك السلوك مع صاحبه، وحظها أن تموت في مهدها، والأسر الواعية تئد هذه الصور قبل أن تشب في واقع أطفالها وتلازمهم في أوقات الكبر وتعيدهم عبيداً لصور الدنيا الفانية.

كان يكفي الجيران في الأمس متسـوِّق واحد يوزِّع بينهم أفراح السـوق عند وصولـه، ويكفيهم حانوتٌ لإعـداد طعامهـم جميعـاً، وإذا اجتمعت القلـوب تعددت صـور التعـاون وامتزجت بيوت المسـلمين ببعضها، وزاد العلم بأثـر الجيران على بعضهم وقيم التعاون فيما بينهم، واتسعت مع ذلك رقع الخلاف وطالت مسـافة اللقاءات، فبات بعض الجيـران كالغرباء والبـاب يدفع باب جـاره. وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه: «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا**



طَبَخْتَ مَرَقَةً، فأكثِرْ مَاءَها، وتَعَاهَدْ جِيْرَانَكَ»[1]، ولو عقل إنسان هذا المعنى لشرى بعضاً من فاكهة مثلاً أو لحم أو سـمك ودفع بها إلى جاره في كل مرة، وما حاجتنا في مثـل زماننا إلى شـيء حاجتنا إلى قدوة عملية تعيد لهذه المعانـي ما ضاع، وتبدأ في بنائها من جديد.

بلـغ العلم في هـذا العصـر مبلغـاً كبيراً، وتعددت مباهجه في كل فن، ولكن هذه الكثرة في مرات كثيرة لم تصنع جديداً، وانشـغل الناس عن التطبيق للدرجة التي لا يعرفون منه سوى الحرف الذي يقرؤونه فحسـب. والعلم إذا لم يتحوَّل إلى جوانب عملية تطبيقية كان ركاماً لا أثر له في حياة إنسان.

كان درس الأمس على فانـوس صغير لا يكفي ضوؤه إلا زاويته التي يقبع فيها، وإذا أردت حاجتك من الزاوية الأخرى حَمَلْتَه فـي يدك وبقي ما خلفك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٥) (١٤٢).



في طي الظلام، وصاحَبَه الحرصُ والتفوُّق، والجدية، والعطاء، وجــاءت الكهرباء بكل ما يشــتهي الناس وضعف فــي المقابــل التفاعل الإيجابــي معها إلى درجات مخيفة مقلقة.



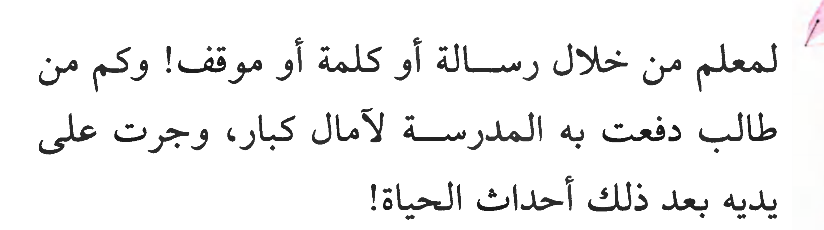


قصة الدراسة

(إن المدرسة التي لا تعلمك المعارف، و لا تبنـي فيك القيم، ولا تدربك على المهـارات اللازمـة لبناء مسـتقبلك لا تخلـق جديـداً في سـيرتك ولـو بَقِيْتَ في فصولها سنيَّ عمرك كله)

دخل المدرسة كما يدخل غيره، ومرَّ بذات النظام الذي يمر به كل طالب، وتعرَّف في أجواء المدرسـة على صور شتى من المعرفة وطرائق العلم، والتعاطي مع المواقف، ولم يبق من تلك السنوات الطوال كلها سـوى (القراءة والكتابـة، والقيم والمهـارات) التي اكتسبها من خلال تلك المواقف التي مرَّ بها، وما عدا ذلك ذهب مع الزمن ولم يبق منه شيء.

ظلت المدرسة وما تزال تقدم جهوداً ضخمة في تأهيل وتربية طلابها، وتجهد بكل ما تملك في سبيل إعداد عدة الزمان والمكان، وكم من صيدٍ ثمينٍ تحقَّق



لمعلم من خلال رســالة أو كلمة أو موقف! وكم من طالب دفعت به المدرســة لآمال كبار، وجرت على يديه بعد ذلك أحداث الحياة!

التعليم النموذجي يجب أن يضــع هذه القضايا الثــلاث: (المعــارف، والقيم، والمهــارات) خارطة للطريق، وينبغــي أن يجري تقييم طلابــه وفق هذه الخارطة بمكوناتها الثلاثة، وأي نقص في جانب من هذه الجوانــب فهو ثلمٌ فــي أداء المدرســة لدورها الريادي الكبير، وينبغي أن يكون التكريم مشــروطاً بتحقيقهــا جميعــاً حتــى يأتــي البناء مكتمــلاً في النهايات، وإلا فمــا تصنع بطالب يعرف كل شــيء ولا أثر لهذه المعرفة في قيمه، ولم تصنع هذه المعرفة مهارات يطرق بها أبواب المستقبل في قادم الأيام؟!

النهضة الكبرى لا تتــم إلا على أيدي المعلمين الناهضيــن، وهذه الأجيــال هــم بُنــاة النهضة في المســتقبل القريب، وإذا رُبِّيت على القيم وبُنيت من خلال المعارف والمهارات ستكتب حظوظ أوطانها، وتصنع لها المجد الكبير في قادم الأيام.



يعجبه ذلـــك المعلم الذي يبدأ درســـه في باكر يومه بسؤال طلابه عن الصلاة، ويؤهل طلابه للحياة من خلال نظافة كتبهم ومقاعدهم ومســـاحاتهم التي يجلســـون فيها وحضورهـــم وانصرافهم فـــي الوقت المحدد، ويربِّيهم على المســـؤولية الشخصية في كل شـــيء، ويظل يبني هذه القيم شيئاً فشـــيئاً حتى تنشأ هذه الأجيال تجلُّ الصلاة، وتعظم الوقت، وتدرك أثر التنظيم والترتيب والنظافة، وتتحـــول مع الأيام إلى جزء من شـــخصياتهم. وإلا فما نصنع بحُفَّاظ لمعرفة مجردة لا أثر لها في شـــيء؟! وإذا رأيت معلماً يبدأ درســـه ولا علاقة له بهذه المعاني فسل الله تعالى أن يعوِّض الأمة خيراً في قادم الأيام!

هـــذه القيـــم الثـــلاث: (المعـــارف، والقيـــم، والمهارات) مســـؤولية الجميع بدون استثناء، المعلم في فصله، ومدير المدرســـة في إدارته، والمشـــرفون التربويون كلٌّ فيما يخصه، وأي فصل بين هذه الأدوار بين هؤلاء مؤذنٌ بتأخر النضج وتخلُّف تلك الغايات التي تؤملها الأوطان من طلابها في مستقبل الأيام.

يعترف وبعد تجربة طويلة أن نظام التعليم الذي دخله طالباً وعاشه معلماً ومارسه مشرفاً تربوياً يُرَكِّز على المعرفة، ويدفع من أجلها كل شيء، ويقيم لصاحبها كل المحافل، وربما في مرات كثيرة على حساب القيم والمهارات! وما لم يُعاد النظر في ذلك فستطول الفترة لجني ثمار تلك الآمال.

في ملعب الكرة يتعلم الطلاب مهارة الدفاع عن مكتسباتهم، ومهارة الهدف، والعمل الجماعي، وأثر الحركة والنشاط، وقيم التعاون، وفي داخل الفصل ومساحات المدرسة الكبرى ربما تغيب هذه المعاني فتشجع الفردية بصورة خطيرة، ولا يسمح في مرات كثيرة بالجماعية، وتغيب الأهداف الكبرى، وقد لا تجد حاثاً على خلق التعاون والإيثار، وإن كانت طرائق التدريس الجديدة تحمل نوعاً مبشراً من هذه المعاني الكبار.

بقي في المرحلة الابتدائية ست سنوات كما يبقى أي طالب، وما زال يذكر أن كثيراً من تلك المعارف التي قرأها، وصُفع من أجلها، وضُرب



للتفريط في كثيرٍ منها لم يكن لفواتها ذاك الأثر الكبير فـــي حياته فيمـــا بعـــد! وإنمـــا أورثت عنـــده أعباء للمدرســـة، وبغَّضت إليه التعليم، وفي النهاية خرج معلماً ولم يبق منها إلا ما علق بالقيم والمهارات.

كثيرون هم الذين توافدوا عليـــه في التعليم في المرحلة الابتدائية، ويعترف أنه لم يُحرم منهم الفائدة، وهو مديـــنٌ لهم في أشـــياء كثيرة، وكـــم جهدوا في تعليمه وتأهيله، ولا يملك لهم إلا الدعاء، أما أستاذه الذي أخذ بيده وهو في الصغر فعلَّمه الكتابة، ولاحقه في كل صـــف حتـــى مكَّنـــه منهـــا (خلف حســـن الفاهمي) رحمه الله تعالى فذاك كان يعيش لرســـالته ومشروعه، وطالبـــه أحد صيـــد ذلك المشـــروع الكبيـــر، ومنذ رحل رحمه الله تعالى من الدنيا إلـــى تاريخ هذه الأســـطر وهو شـــريكه في كل كلمة أو درس أو خطبـــة أو كتاب، وما من ليلة قام في سحره أو استقبل طريقاً طويلاً في سفره، أو أخذ عمرة ورقى الصفا، أو كان منتظراً ساعة الجمعة أو في سجوده إلا ومعلمه على رأس قائمةِ مَنْ يدعـــو لهم في كل مـــرة، ولا يعرف أنـــه تخلَّف عن

الدعاء له منذ رحل حتى كتابة هذه الأسطر مع جمع يبلـغ خمسـين شـخصاً أو يزيـدون مـن الزملاء والأصدقاء، وآخرين من أهلـه وجماعته من الرجال والنساء، ويعد ذلك بعضاً من الوفاء.

(التربية والتعليم) مشـروع عمـر لكل صاحب رسـالة، ويسـتغرق المعلم من أجـل العمل خمس سـاعات أو تزيد من يومه وليلته، ولو خرج من بيته مستعداً لهذا المشروع، وركَّز في بيئة عمله لصنع جيلاً مثيراً، وكم من شـاب على مقاعد الدراسة اليوم صيد ثمين في قادم الأيام! وما صنَّاع التغيير في التاريخ إلا بعضاً من صيود معلمين أذكياء مع مرور الأزمان.

غالب الصور التـي تمَّت في رحاب المدرسـة بتفاصيلهـا ما زالت ماثلة في ذاكرته سـواء الإيجابية منها أو السـلبية، حتى تلـك التصرفات العشـوائية لمعلميـه في فتـرات الراحة وهي قضايـا يغفل عنها المعلمون ويظنون أن النسيان يطويها، بينما هي تاريخ تحفظه عقـول الصغار كمـا تحفظ هذه الحواسـيب لا فرق.



- عُلب الصلصة الفارغة (علب حديدية صغيرة مفرغة من معجون الطماطم) التي كان ينظمها معلمه خلف الفاهمي رحمه الله تعالى في زاوية الصف الأول في حبل طويل يعلمه من خلالها العدد، ودرس الصياد والنحلة الذي كان يمثله تمثيلاً عملياً، والزئبق الذي كان ينثره معلمه الفاضل حسن محسن اليحياوي على طاولة التنس في الصف الرابع ما زالت حية في ذاكرته، ومات كثير من المواقف، وبقيت أخرى حية لأثر الوسيلة التعليمية فيها، وقد قالوا: إذا تعددت الحواس في أي فكرة فهي أكثر ثباتاً واستمراراً مع الأيام.

- كثير من الدروس لا تحتاج إلى تنظير، بل تحتاج فقط أن نضع أعيننا على الأسطر الواضحة والمعاني الضخمة والرسالة الكبرى فيها فحسب، وما لنا ولبقية الأسطر فما هي إلا حِمْلٌ في كتاب لا حاجة لعقل ذكي به! وأصدق شاهد عنده على ذلك درس الحديث في الصف الخامس في قول نبينا ﷺ: «**إذا حضر العَشاء فابدؤوا به قبل العِشاء**»، حيث قال معلمه عمر الكيادي: إذا أحضرت أمك صحن الرز



وعليه (التونة والشطة) ثم أقيمت الصلاة فخذ نهمتك منه قبل أن تصلي حتى لا تنشغل به في صلاتك، وما زال هذا الدرس أكثر الدروس ثباتاً في ذاكرته من ذلك الزمن حتى هذه اللحظة.

من لطيف أثر المعاني التي كان يبعثها في نفسه معلمه عمر الكيادي مروره في الصباح الباكر وحمله مع رفاق الطريق في سيارته الهايلوكس، وعوده بهم في الظهيرة في ذات السيارة إلى بيوتهم، وكم من مستعجل تركه ورفاقه للرمضاء! هذا المعلم كان كريم النفس جواداً يسع طلابه بقلبه ومشاعره قبل كل شيء، وما حاجة إنسان اليوم لشيء حاجته لهذه المعاني، فكيف بطالب في مدرسة وأبناء يشتاقون إلى شيء من معاني الوفاء؟!

كان الضرب كل شيء، عصا في يد المعلم الجاد المشغول برسالته، وعصا في يد الكسول، كان الطالب يُضرب لأدنى سبب، تُضرب حتى لو لم تتمكن من مهارة والمعلم صاحب التفريط في تعليمه! وكم أحسن التأديب لطالب! وكم أعاق آخر! وفي



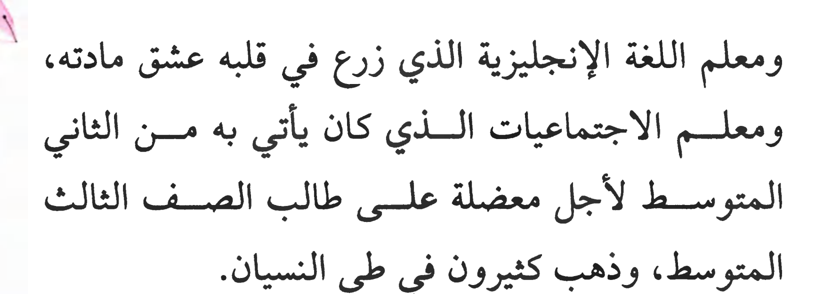
النهاية أقفلت القضية من أصلهـــا، ومنع الضرب في مدارس التعليم بالكلية.

كانت فســحته اليومية لا تتجاوز الريالين وقت الرفاهية، فإذا ما اشتدت الظروف عاد إلى خبز الذرة (الخمير) الذي كانت والدته جزاهــا الله تعالى خيراً تعدُّه في صباح كل يوم وتضعه في حقيبته، فإذا حان وقت الفســحة كاثر به الواقع الذي يعيشه، كان ذلك الخبــز كبيــراً، وكان لا يجد لــه حاويــاً إلا كتاب الرياضيات لكبر حجمه وثقل رســمه على قلبه حتى إذا ما جاءت حصة الرياضيات اختلطت لحظتها نقاط الكتاب بنقاط خبز الذرة، فلم يعد يميِّز بينهما إلا بعد دلكٍ شــديدٍ يبين منها الأصل من البديــل، وإذا كره الإنسان شيئاً فقلَّ ما ينتفع به مع الأيام.

كانت حصــة الرياضيات أبغض حصــة إلى قلبه وما تزال! وقــد كان معلمها ناصر الصلبــي جزاه الله تعالى خيراً جاداً في رسالته، كبيراً في حرصه وانتظامه، وكــم كان يتمنى لــو أنَّ طالبه مثله في حبــه لمادته، وما كل ما يتمنى المــرء يدركه، وهو درس لكل معلم

إذا أراد أن يخلق ولاءً بين طلابه ومادته التي يدرسها فليخلق لها حباً في قلوبهم قبل كل شـــيء، وعليه أن يعي أن الرفق ما كان في شـــيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه، وقد حاول ذلك المعلم بكل ما يملك للدرجة التي كان يغضب إذا فرَّط طلابه فيما قال لهم بالأمس، فعاش في خوف ووجـــل، وكان يترقب هذه الحصة ببغض شديد، ولعل آخرين انتفعوا بها، أما هو فكانت صخرة على ظهره ينوء بها في كل حين، وتولى تدريســـه وتعليمه جمعٌ من المعلمين كأستاذه إبراهيم الكناني رحمه الله تعالى، وعبـــد الله عمر الكناني، وحســـن عمر الغبيشي، وحسين زين الشريف جزاهم الله تعالى خيراً ما جزى معلماً عن طلابه.

انتقل إلى المرحلة المتوســـطة ولا يدري عن كثير من أحداثهـــا، فهي أقـــل المراحل حضـــوراً في ذهنه، ولا يكاد يذكر شيئاً من مواقفها، فلا يدري أهي الذاكرة أتى عليها الزمان بالنســـيان، أم هي مرحلة برزخ اسمها متوسطة تضيع بين البدايات والنهايات؟ ولا يذكر سوى معلم التربية الإسلامية عيد الشواف معلم مصري رحمه الله تعالى،



ومعلم اللغة الإنجليزية الذي زرع في قلبه عشق مادته، ومعلـم الاجتماعيات الـذي كان يأتي به مـن الثاني المتوسـط لأجل معضلة علـى طالب الصـف الثالث المتوسط، وذهب كثيرون في طي النسيان.

خـرج من فصول المتوسـطة إلى معهـد إعداد المعلمين في محافظة القنفذة والتي تبعد عن المركز سبعين كيلاً، وكان الذاهب إليها لا يعود إلا في نهاية الأسـبوع، وودع تلك القرية أملاً في الحصول على وظيفة عاجلة، وتمت الدراسة في ثلاث سنوات كانت مادة اللغة الإنجليزيـة أمتع مادة في سـنيِّها الثلاث لفضل معلم المرحلة المتوسطة، ولقي من علَّمه هناك وأثَّـر في نفسـه، غير أن السـنة الأخيرة التي جمعته بأبي خالد بلغيث حمد القوزي مدير المعهد من أروع المراحل التي مرت عليه في تلك الحقبة من الزمن، جاء الأسـتاذ بلغيث إلى المعهد وهو شبيه بالسجون وعلى بوابته الحـرس، ثم طوى ذلـك المدير تلك الأحداث في أقل وقـت ممكن، والقـادة لا تثنيهم العقبات، أعاد الحارس إلى غرفته، وفتح الباب على

شقيه، وقال للطلاب: من أراد أن يخرج فلا يستأذن، ولا أذكر أن طالباً همَّ بالخروج إلا ولقيه عند الدرج، وفي الطريــق، وبين الممرات، وإذا لقيك اســتقبلك بابتسامة رائعة لا تملك معها إلا أن تغرق في عرقك حياءً وخجــلاً، ومضى يقف مع الطالــب المحتاج، وصاحب الظروف، ومشــكلات المعلمين حتى خلق جواً ممتعاً، وصنع مشاهد صالحة للحياة فيما بعد.

كان يقــف مع الطــلاب فيما يريدون، ويســمع لشــجونهم، وقد يغيِّر معلماً من فصل لآخر بناءً على رغبتهم، ويتواصل مــع إدارة التعليم في ذات اللحظة لصناعة أحلامهم، ويسعى بكل ما أمكن لتوفير الأجواء الصالحة للتعليم، وما رأى فــي حياته أثمن من تقدير الناس وحفزهم ودفعهم للعمل من خلال الصبر! وفي المقابل ما رأى مثل العجلة وتكريس معاني الرسوب والتأخر في خَلْق معاني الإخفاق لدى الآخرين.

تابع الأستاذ بلغيث ذات مرة دفاتر الغياب والتأخر في صفوف المعهد فعثر على أحد الطلاب غائباً في يوم الخميس آخر الأيام في الأسبوع في ذلك الزمان، فطلب



حضوره إلى غرفة الإدارة، ثم سأله عن تكرار غيابه، فأخبره بأن أمه في التنويم في إحدى مدن المملكة، وأنه يذهب إليها كل أسبوع، وكان أصل الخبر صحيحاً، ولكن الطالب لا يذهب إليها كل أسبوع، وإنما أراده عذراً، فما كان منه إلا أن أدخل يده في جيبه وأخرج مئتي ريال وأعطاها ذلك الطالب معونةً لذهابه إلى أمه، وقد جهد الطالب ألا يأخذها، ولكنه أبى إلا أن يعطيه، ثم بعد أن تسلل إلى قلبه بهذا المعروف قال له: قبل أن تسافر إلى أمك مرَّ بي في الإدارة، وكان ذلك الموقف الأبوي هو أثمن علاج لذلك الغياب المتكرر من ذلك الطالب، وتحولت زيارة الابن لأمه إلى مرة في الشهر أو الشهرين في بعض الأحيان. والمربي يستطيع أن يتسلل إلى علاج مشكلات أبنائه وطلابه بأكثر من وسيلة، وفرق بين من يكون همُّه حساب الداخلين والخارجين، وبين من همُّه إعداد الإنسان الصالح للحياة.

كان ذلك القائد يدخل على الطلاب في الاختبارات في كثير من المواد خاصة مادة اللغة الإنجليزية أو الفيزياء ـ مما أذكره ـ ويقرأ أسئلة الاختبارات، وربما

فتح على الطلاب ببعض ما يحتاجون، وهو جو يمنحك قدرته العلمية من جانب، ويفتح لــك جانباً ضخماً من أبوته، ويريك بوضوح أنه لم يأت هنا من أجل الإشقاق عليك، وإنما يعينك على تحقيق أمانيك.

لم يُر ذلك القائد يوماً متصلباً على كرسي إدارته، ومتعنتاً في روتينه، وممســكاً بهوامش الأحداث، بل قائداً يــدرك ما يريد، وكيف يأتي إلــى أمانيه! وكثيراً ما وجده في زوايا ذلــك المبنى، يوجه ويعالج ويُذكِّر ويصنع فألاً مدهشــاً في تلك المساحات، وكان مهيباً لما يملك من شجاعة وكرم وقدرة على اتخاذ القرار، وأعظم صفتيــن في القادة: الشــجاعة والكــرم، فإذا ما انضاف إلى ذلك قراءة واعية، وثقافة أصيلة، وقدرة علــى التخطيط والتنظيــم، وإدارة شــأن الأولويات، وعلاقة متينة بالله تعالى؛ فقد بلغ كل شيء.

رافق في معهــد المعلميــن ابن الخال ياســين علي الفلاحي وكان أســبق منه بعامين، وكم كان حريصاً على رعايته ورفاقــه، وأعانهم على الحياة فــي تلك الحقبة من الزمن، ورافــق ابن الخالة عبد الرحمــن صالح الفلاحي،



وحسن عبده المعشي، وأحمد حسـن هادي المعشي، ثم انتقل في السنة الثانية لرفقة حمد حسان الصالحي، وحسان أحمد يحي الصالحي وكانا أسـبق منه ومن رفاقه، وعبده عقيل الصالحي وسعيد عقيل الصالحي؛ فلله كم كان لتلك الصحبة من آثار! وكـم كان فيها من أحداث! وإذا وجدت رفيقاً في الدرب وصاحباً في الطريق فقد وجدت كل شيء.

كثيرة هي لطائف معهـد المعلمين في حياته، من أعجبهـا: أن أحد زملائه ممن يسـكن معـه في ذلك السـكن إذا فاته كيٌّ غترته البيضاء عـوَّض عن ذلك بالماء والسُّـكَّر فيكويها فكأنها قطعة مـن أثر كربون سـيارة خَرِبَة، ولا يرى في ذلك بأسـاً، ويضع عليها العقال ويخرج ولا تعنيه في شـيء، والظروف تصنع مثل هذه الأحوال، وثمة نفوس بسـيطة تجري عليها مثل هذه الصور ولا تتحسـس منها، ونفـوس تعيقها أدنى العقبـات، وقد خلق الله تعالـى الناس مختلفين فلا تنشـغل بالعتبى علـى فلان وفلان، لكل إنسـان ظروف، والحياة تسع كل هؤلاء، وحسبك نفسك، وفي الوحي: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[1].

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧).



ما أكثر المواقف التي كان يُجريها مع رفاق السكن، كُرِّم ذات مرة في المعهد بجهاز راديو لمشاركته في دورة الإسعافات الأولية، فكان يفتحه في بعض الأوقات، وإذا أتى على بعض رغبات الحاضرين أقفله فيأتون يترجونه ويسألونه فيرفض حتى يُقدِّموا له قُرباناً صالحاً من شراب أو طعام، ثم يفتح لهم بعد ذلك، يصنع معهم هذا في كل مساء، ويأتي في النهاية على ما يريد، وكان غالب ذلك شهوات للرفاق!

كان في بداية حياته كغيره من الشباب مولعاً بالكرة؛ لأنها هي الحاضرة في الإعلام والباسطة في واقع أقرانه وما زالت، وهو في النهاية ابن زمانه لا فرق، كان حينها لاعباً ومشجعاً للأندية الرياضية، وهذا أقصى همومه وأجلُّ ما لديه ككثيرين في زمانك، تذهب أوقاتهم في مثل هذه الهوامش، يفرحون، ويغضبون، ويتخاصمون، ويتنازعون، وقد يتهاجرون ثم لا شيء يستحق بعضاً من هذا فضلاً عن كله، ولكنه الضياع.



في الكرة أشـياء مثيرة كالهـدف، والجماعية، والتعـاون، والخُطَّـة، والإعداد، وكل هـذه المعاني الكبار تموت في أرض الملعب، ولا يخرج منها شيء لخارجه البتة، ومثل هـذا لا يحتاج إلى حبر قلم فهو أشهر من علم، والله المستعان!

كل المباريـات التـي تقام تُدفع فيهـا الأوقات والجهود والأموال من أجل الهدف، ومع ذلك لا تجد متعلقاً به عـاش معناه على مسـتواه الشـخصي أو الاجتماعي، يحيا ذلك الهدف فـي الملعب ويموت في ذات المكان! وقل مثل ذلك في الجماعية وروح الفريق الواحـد والوصية بهذا المعنـى، حتى أن من البديهيات لدى هؤلاء اللاعبين أن من يحتفظ بالكرة طويلاً يُعد أنانياً، ويخالف مفاهيم الجماعة، ويرتكب بحق فريقه أخطاء فادحة تودي بخسارتهم في كثير من الأوقات، وقـلَّ أن تجد متشـبِّعاً بهـذا المفهوم في مسـجد الحي أو المجتمع، ويعيش كل إنسـان من هؤلاء لنفسـه، ويطول زمن الكرة في حياة شـبابنا، ولا ترى لها أثراً إيجابياً فيما بعد في شيء.



في فترة الدراسة بمعهد المعلمين بدأت ميوله الكتابية، بدأ من خلال هوايات تلك الفترة، وكانت الرياضة حينها كل شيء، وكانت جريدة الرياضية ذات شأن في تلك الحقبة وكان كاتباً فيها، وشارك مرة في موضوع اجتماعي عن المخدرات في ذات الجريدة بعنوان: (قبل أن يتشرد أطفالنا لنغمس أقلامنا في حناجر المروجين ونقطع عليهم الطريق) فأهديت له ساعة رياضية وشهادة شكر من مدير عام المخدرات تلك الحقبة، ثم رقت همومه وتفوَّق على تلك الشهوات العارضة، فتوقف عن الكتابة فيها ثم هجرها قراءة وكتابة بالكلية، وقد عانى من التعلق بالكرة وهموم الرياضة والفوز والخسارة حتى بعد قرار تركه لها وظل يلتفت إلى ذلك الزمن مراراً، وقد يختلس بعض الأوقات ويترصَّد أخبار فريقه ويمسي على بعض أفراح فوزه وخسارته، وما أقسى التعلق بالأشياء والأشخاص! وهذا المعنى يجري في كل شيء، وقد أشار الشاعر إلى شيء من هذا فقال:

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ
وَإِنْ وَجَدَ الهَوَى حُلْوَ المَذَاقِ

تَـرَاهُ بَاكِيـاً فِـي كُلِّ حِيْـنٍ
مَخَافَـةَ فُرْقَـةٍ أَوْ لاِشْـتِيَاقِ
فَيَبْكِـي إِنْ نَـأَوْا شَـوْقاً إِلَيْهِمْ
وَيَبْكِـي إِنْ دَنَوْا حَـذَرَ الفِرَاقِ
فَتَسْـخُنُ عَيْنُـهُ عِنْـدَ التَّنَائِـي
وَتَسْـخُنُ عَيْنُـهُ عَنْـدَ التَّلاَقِي

ثم تحوَّل بعد ذلك إلى جريدة المدينة كاتباً في قضايا تربوية وتعليمية، واستمر على ذلك زمناً، ولحضوره وتميُّزه الكتابي في تلك الفترة خُصِّص له عمود يكتب فيه أسبوعياً كل ثلاثاء، ثم توقف بعد ذلك لعوارض الطريق.

تعلم في تلك التجربة أن ثمة مواهب لدى كل إنسان؛ حين يركِّز عليها ويعتني بها تقوى، وتصنع فارقاً كبيراً مع الأيام. وما أكثر شواهد الحال على هذا المعنى الكبير!





قصة الزواج

(من فواتح التوفيق على إنسان أن يجمعه الله تعالى بامرأة تتولى بيته وتقوم بمساحتها الممكنة، وتعينه على مباهج مشروعه)

تزوَّج بأم علي وفتح الله تعالى عليه في الزواج منها ما يُحب أن له به حمر النعم، زواج جاء به الله تعالى دون مقدمات، امرأة سمحة سهلة يسيرة لا تحب الجدل ولا تكثر النقاش، وما أكثر ما تطلب أشياءها وحاجاتها، ولا يأتي بها نسياناً، وقد لا تسأله عنها حين يعود، وإذا سألته سألت ضاحكةً على نسيان زوجها وقصة ضياع بعض ما تريد منه في كل وهلة وحين.

جعل الله تعالى في قلبها سعة وبسطة، فلا يكاد يعرف الخلاف معها في شيء إلا ما جرى وفق طبيعة بشرية وعوارض لا تمثل في الطريق شيئاً، وسرعان



ما تتنازل عن فكرتهـا، وإذا شـعرت أنه غضب من شـيء لا تهنأ بنوم في ليلتها ولو كان هو المخطئ، فهي التي تقـوم بالاعتذار وتهيِّئ العـودة للحياة من جديد، وقد جبلها الله تعالى على السـماحة واليسـر والرضا بالقليل، وإذا وجدت هذه الصفات في امرأة فقد وجد زوجها منها كل شيء.

تعينـه على أحوالـه، وتقف إلـى جانبه كلما احتـاج. احتاج فـي أول حياتـه معها إلـى جهاز محمـول فباعت ذهبها وشـرى به جهـازه الأول، وكلَّما ضاقت عليه الظروف في باكر حياتهما نزعت من ذهبها ما تتم به رواء الحياة، ثم لا تكاد تذكره ولو طال الزمان.

بنى بيته، ومن تاريخ ذلك البناء إلى هذه اللحظة وقد مرَّ على زواجه ثلاثون عاماً لم تصنع طعاماً في بيتها، وظلـت تطبخ طعامـه كله في بيـت والديه، وتصنع له بعضاً من مشـاهد الزواج المدهشة بفضل الله تعالى، ثم بكمال عقلها وسـعة صدرها ويسرها، وكم هي أفضال الله تعالـى عليه في هذا الباب وغيره



من الأبواب، ومنذ عرفها وهي التي تخدم والديه وتقوم عليهما في كثير من المعاني، وترى ذلك واجباً عليها، فلله ما أجمل خاطرها! وما أدهش روحها! وما أعذب أخلاقها! وما أكثر ما رزقها الله تعالى سعةً ويسراً! والله المسؤول أن يجري لها من كرمه وتوفيقه ما يجلب لها السعادة في الدارين!

شهادتها الدراسية لم تتجاوز الابتدائية، ومع ذلك فقهت معه مشروع العمر، وشاركت بكل ما تملك في دفع أحلامه إلى ما يريد، وفقهت دورها ومساحتها فأبدعت فيها غاية الإبداع وما تجاوزت لغيرها يوماً من الدهر، وترقَّت إلى أنها إذا رأته نائماً في غير وقت نوم ثرَّبت عليه ضياع مشروعه وذكَّرته ما كان يقوله لحظات النشاط والجد فعاد مورقاً من جديد.

لا تسأله: كم يَغْرَم في الصيف؟ فليست من أولئك اللاتي يعشقن حمى الرحلات! وإن ذهبت فلا تذهب لنفسها، وإنما تذهب إسعاداً لأبنائها وتحقيقاً لأمانيهم فحسب، ولم تعد الرحلات استجماماً كما هو الأصل،



وإنما باتت تقليداً مشؤوماً في وسـط كثير من الأسر تُدفـع فيهـا آلاف الريـالات، ويكفي منهـا توثيقها بالتصويـر وعرضها للجيـران والأصدقاء فحسـب. وما أكثر شـؤم العادات على كثيرين! وكم من مديون من أثر هـذه المعاني! وكم من خصـام ونزاع وطلاق وفراق بسبب ذلك، والله المستعان!

عاشت معه لا تعرف الأسـواق، ولم يقف يوماً في مطعم لشـراء طعام البتة طول عمـره إلا ما كان عارضاً، وبقي مُنعَّماً يأكل مما يشـتهي في بيته، فهي التي ترتب كل شيء وتهيِّئ له ما يريد وتبهجه في كل مرة بكل جديد، فيا سقى الله أيامها بالجميل!

غالب وقته في رحاب المكتبـة، وتأتي إليه بما يشتهي، ولم يحدث أن تبرمت من قراءته، أو كتابته، أو مشـاريعه، ولم يعرف عنها منذ تزوجها أنها أدلت بشكوى تجاه هذا المعنى الكبير في حياته.

عرفت أدق التفاصيل من حياته، وأدركت: كيف يفكر؟ وماذا يشتهي؟ وما الذي يريد؟ ومتى يغضب



وكيف يرضى؟ ثـم تُعالج ذلك بصـور من الجمال والبهجة لا تصنعها إلا الرائعات!

هـي التي تذكـره بزيـارات المرضـى، وعون المحتاجيـن، وتدلـه علـى التواصل مـع الأقارب والأصدقاء، وتعينه وقت النسيان، وما تزال به في هذه المعاني حتى يأتي على أمانيه كما يشاء.

عرفـت مسـؤوليتها وأحسـنت العمـل فـي المسـاحات الممكنة، فكانـت هي المسـؤولة عن أولادهـا فـي كل شـيء، فـي إيقاظهـم للصلاة، وتجهيزهم للمدارس، وتذكيرهم بالإمامة خلف أبيهم إذا غـاب، فلله لو رأيتها حين يخـرج زوجها لبعض شـؤونه فيحين وقت الصلاة فإذا بهـا تتواصل: هل ستدرك الصلاة أو تكلف أحد الأبناء؟ وكانت تصنع في تلك المسـاحات ربيعاً مورقاً مـن الجمال، فلله ما أروعها! وما أبهـج آثارها في ربـوع ذلك البيت المورق بالحب والتعاون والجمال والبهجة!

أول أسـبوع في الـزواج كافٍ لإدارة مشـروع الحيـاة، ووضع قواعـده، ووضوح رؤيتـه، وتكوين



تصوراته، ومن فَرَّط في هذا الزمن اليســير لقي تبعاته فيما بقي من عمره، فإياك والتساهل في تلك البدايات.

حالت غمرة فرح الزواج لــدى كثيرين عن رؤية نهاية الطريق، وانشــغلوا بربيع البدايات ونسوا طبيعة الحياة وتفاجؤوا فــي منتصف الطريــق بتبعاته، ولم يمكنهم الرجوع فخاضوا معركــةً ما كانت لتكون في كثيرٍ من المرات واصطلوا فيما بعد بشــعثها، ووقعوا في جزءٍ كبيرٍ من فوضويتها وتمنَّــوا في مرات لو أن ناصحاً تولَّاهم عند البدايات ولكن فات كل شــيء، ومن آثار هذا المعنى ما جرى على لسان صديق حين كان ذات مرة في صحبة مسافرين إلى معرض الكتاب بالرياض، وفي الطريق أقبلت ســيارة عروســين وقد غطاهــا الورد مــن كل جانب فالتفت ذلــك الصديق وقال: معك من أسبوع إلى أسبوعين في وردِكَ الجميل ثم ســترى الحقائق رأي عين! وهذه وإن كانت مزحة إلَّا أن لها واقعاً عنــد بعض الأزواج، وعلى الزوج أن يرعى البدايــات ويقيم حياته على منهــج الله تعالى، ويجلَّ شــريعته، ويقوم بحقوق ربــه، ويضع القواعد



واللبنات الصالحة لبقاء الحياة فيما بعد، ومن أصلح ما بينه وبين الله تعالى أصلح الله تعالى له كل شيء!

كان يتوق للـزواج من أخرى، وكلمـا رأى أثراً لقلم فتاة هاجت في قلبه الأشـواق، وما كان يشتهي من الزواج سوى من تشـاركه حمل الفكرة في إدارة مشاريعه، وتطارحه في البكور والعشي بحرف الأدب والحب! وهو رجل مولع بالحب والذكريات ومشبع بالعاطفة والوجدان! يأسـره حرف الحب حتى يكاد يغرقه وقد يبقى أياماً في تأمله.

كان يتمنى من تُعد له خطبة الجمعة وتشاركه في بنـاء موضوعهـا، وتقترح عليـه موضوعـات كتابه الجديد، وتنظِّم مكتبته، وتراجع مؤلفه الجديد، وإذا خرج لمشروعه تلاحقه بحرفها تصفيقاً وتشجيعاً، فهل تظنون بأنها أمانٍ لا واقع لها أو كان محقاً فيما يريد؟ ولم يجد ما كان يتمنَّاه، وحاول مراراً ولكن لم يصل إلى تلك النهايات، ولطفَ الله تعالى به كثيراً في تلك الأمانـي وأبقاه على حبِّـه الأصل، وسـلمَ من نزاع الضرائر وخصام البيوت، والله المستعان!

كان يكابر ويحاول الفرار من إلحاح هذه الرغبة وانشغل بمشـــاريعه، فإذا ما جاء وقت الليل استدرت مشـــاعره من جديد، وجاء حرف الأدب في ســـاعات الليل المتأخرة، وبقي هو وإياه في جلد ومكابرة حتى السحر وينام في مرات، ويعود الضحى بذات الذكرى فيعـــود يطارح ذلك الحـــرف حتى الـــوداع! ومن هو يا سادة لولا هذه المشاعر الخلابة في وجدان إنسان؟!

أشغله حرف الحب كثيراً، وعرض له في الطريق مراراً، فكتب ذات مـــرة لصديقه أحمد الصابطي هذه الرســـالة: من فضل الله تعالى عليَّ يا أبا سعود أنه لم يبق لي من مباهج هذه الحياة إلا شاعرة وصاحبة بيان ووجدان نتســـامر أنا وإياها في أصيل العشـــي ونقوم على ذلـــك في البكـــور، ما الســـبيل يا صاحبي؟ إذا شـــاركني قلم فـــي البوح وجـــدت ضالتـــي وهتفت مشـــاعري، وكأنما أشـــرب لحظتها من زمزم في ظل الحـــرم، قل لـــي ما الســـبيل؟ فكتـــب إليـــه يقول: وما عليك يا حبيبي ألا تكتمـــل مباهج الدنيا؟! لعل ذلك من المحفزات لزيادة حرث الآخرة، ثم ما أدراك



أنَّ في هامش صاحبة البيان وحاشـيتها منغصات قد تفسـد بعض مباهجك التي جهدت في تشييد بنائها في زمانك الماضي، فإذا بك أدركت شيئاً وتضاءلت في عينك أشياء. اهـ.

- له سـبعة من الأبناء: أسـماء، وعلـي، والبراء، ومريم، وعبد الملك، وعبد العزيز، ومعاذ.

- لديه قضايا هي أولويات مع أولاده وما عداها لا عبرة بها، يرى الصلاة وفي المسجد أولوية كبرى ولا يتخيَّل أحداً منهم يتخلَّف، وكان في باكر عمره إذا لم يلحقه ولده إلى المسـجد رتَّـب على ذلك جزاءً رادعـاً، وكبر فأدرك أن الصبـر يأتي بالغيث، والحب يقرِّب المسـافات، وإن حصل عارض سهو من أحدهم ضحك فـي وجهه وبعث إليه برسـالة حب وذكَّره بأن ثمة لقاء بين يدي الله تعالى يحتاج منك إلى جهاد.

- كان يرى انضمام الأبناء فـي حلقات التحفيظ بالحي ضرورة وقضية لا تقبل نقاشاً، ومنَّ الله تعالى عليه فحفظوا كتاب الله تعالى، وهو جزء من الواجب



لهم عليه، وإن لم يدركوا صناعة أبيهم اليوم فسيعرفونها ويذكرونها في غد الأيام. وحاول في بداية العمر أن يبني قيماً، ويكرِّس مفاهيم، ويعزز دور التربية بجهود ذاتية من خلال لقاءات وشعارات ومسابقات، ولكنها لم تستمر لانشغاله بمشروعه، وإن كان رأى فيما بعد من أبنائه إجلالاً وحباً وتقديراً وخدمةً وتعاوناً فوق ما يكتب قلم في هذه المساحة، وذلك فضل الله تعالى أولاً وآخراً، فلا حرمنا الله تعالى منهم دنيا ولا آخرة، وأجرى لنا ولهم ما نرجوه من آمال في مستقبل الأيام.

يرى التعليم ضرورة قصوى، ووسيلة مهمة في بناء الإنسان لكلا الجنسين، لكنه لا يستطيع أن يتخيَّل تسرُّب ولده الذكر من المدرسة لأي عارض بخلاف البنت، فيرى أن الثانوية ـ كمثال ـ واجب لا ينبغي التخلُّف عنه، وما عداه فهي بالخيار، وقد قال ذلك مراراً لبنتيه وكلتاهما وضعتا قطناً في أذنيهما، ثم تخرجتا من الجامعة واعتبرتا هذا من أبيهما ترخُّصاً مذموماً، ولا يعدل مباهج العلم شيء، وحسب الإنسان أمانيه.

يثيره شجن الصغار، ويراهم جمال الحياة وروحها وألقها وفيض مشاعرها، ويحب لهم أن يعيشوا كما يشاؤون، ويؤلمه أو يكاد يبكيه ويستنزف الدمع من عينيه صغير يتعرَّض لتشويه من والد جاهل لا يحسن من التربية شيئاً.

كبر وتعرَّف على سُنَّة نبيِّه ﷺ وهو يرعى مشاعر أولئك الصغار، وحاول جاهداً وما يزال تكريس تلك المفاهيم والمشاعر والعواطف في قلبه تجاه أولاده وأولاد الحي، وما يزال يحلم بتلك الآمال، ويتوق دائماً لمشاهد سيرة نبيه ﷺ، ويتخيَّل الحسن والحسين يتعثران في الطريق ونبي الله ﷺ يخطب على المنبر فيترك خطبته ويحملهما على مشهد من العالم في أعظم المواقف، ويقرأ عنه أنه كان يصلي ﷺ ذات مرة فتأخر في السجود فسئل فقال: «... **لكنَّ ابنَي هَذَا ارْتَحَلَنِي، فكرهْتُ أنْ أُعجِلَهُ حتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[1]. ويتوق إلى هذه المعاني، وتستجيش مشاعره تلك الأخلاق، ويجد فيها كل

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٠٣٣)، والنسائي (١١٤١).



الجمال، ويسأل الله تعالى ملحاً ألّا يحرمه مثل هذه المعاني كل حين.

كان في بيته واسعاً دون ضيق، يُملِّك أبناءه الحرية كبيرهم وصغيرهم، ولا يذكر أنه خاصم في قضية أو سلوك إلا ما كان في دين أو أدب أو معنى تقوم له الحياة! أراد أن يعيشوا أحراراً من ضغط الأسرة، وكباراً في مستقبل الأيام لعلمه أن أجواء الحرية مثيرة لأصحابها لو استثمروها بوعي، وكل الأسر التي فتحت بيوتها لهذا المعنى نالت منه خيراً وبلغت منه غاية! لا يعني تلك الحرية الشوهاء، وإنما يعني أن يتنفَّس الواحد منهم كما أراد، ويشعر أنه مسؤول عن تبعات ما يصنع في واقعه مع الأيام.

تقلَّب في بيته بين أطوار، فكان أولاً لا يؤمن بالحوار ولا النقاش، القيم والمثل قبل كل شيء، ولا قيمة لحوار فيها البتة شاء الابن أو أبى، ثم قرأ وتدرب وشارك الناس، ورأى تجارب، وسمع استشارات، فقرر أن يبني مشواراً جديداً في ذلك الصرح الكبير، بدأ بالحب فجعله قاعدة التربية في تلك المساحات، وفتح أبواباً للحوار، وأغمض عينه

عن كل السلبيات، وآمن إيماناً ضخماً بأن لكل إنسان مرحلة لا بد أن يعيشـــها بكل مشـــكلاتها وأحداثها وأخطائها وظروفها، ثم يعود بعد ذلك للاتزان، ودوره أن يصبر طويلاً ويجهد في ســـلامة تلك المرحلة من الانحرافات الكبرى، كان يضـــرب عند كل خطأ، ثم ترك الضرب بعـــد ذلك مطلقاً، وبـــدأ يجرِّب الحوار والنقاش والهجر الذي يشـــعر فيه الابـــن أنه مارس خطأً، ورأى آثار ذلك أبين ما يكون.

كان فيما بعد لا يثرِّب على خطأ، ويرى التغافل من شيم الكبار، وإذا رأى نجاحاً صفق له بكلتا يديه، وفي المقابل إذا رأى خطأً أعرض عنه، وغضَّ بصره وتركه للزمن، وهو كفيل بكثير من الحلول.

عاش لا يراجع لأبنائه دروســـهم، ولا يذكر أنه راجع مع واحد منهم درساً واحداً، ولكنه كان يحسن التشجيع، ويعلِّم الثقة، ويسنُّ حوافز ويذكِّر بالنهايات فحسب، وقد يصلح هذا في واقع ولا يصلح في آخر، وحسبك أن ترى الأفضل لمستقبل أسرتك، وإن كان لا يرى تلك الصور التـــي يبقى الابن فيها زمانه على



يد والده حتى في مراجعة الــدروس وطرائق الحفظ وقضايا التعليم وينشأ ضعيفاً فيما بعد.

إذا قرر أحد الأبناء أن يغيب عن المدرسة فيتركه يخوض تجربته ويتحمل آثار قراره، وما زال مؤمناً أن المدرســة تســتطيع أن تســنَّ نظاماً يقف له الطالب إجــلالاً ويقوم لــه وهو في أســعد لحظــات نومه، ويمكنها فــي المقابل أن تعلِّمه كيف يحســن التأخر والغياب كيفما شاء.

أدرك بعد تجربــة طويلة أن البيــوت المفتوحة تعلِّم الصدق، وتبني الثقة، لا يعني تلك البيوت التي لا ضابط لها، فهذه يكفيها معنى التفريط، وإنما قصد البيــوت التي تشــرِّع للحرية وســط أبواب الشــرع والفضيلة والقيم والمثل الكبرى في الحياة.

أســوأ ما رأى في التربية تلك الأنظمة الرقابية التي تســن رقابة على الأبناء وتــرى أن القــوة أصلح الطرق للبناء، وطال زمانه حتى رأى آثارها وكيف أنها كانت سبباً في انفجار الأبناء وضياعهم وترك دراستهم والانقطاع عن

الحياة بالكليـــة، وبعض هؤلاء خرجوا مــن خلالها إلى عالم المخدرات، والسجون، ودروب الضياع.

بعد زمن من التجربة يقول لك: التغيير شــاق، ومســافة الأمل فيه تحتاج إلى صبــر، وكم من نتائج تحققت بفضل الرفق! وكل الذيــن تراهم حولك إذا أَفَضْتَ عليهم من قلبك ومشاعرك، وبسطت لهم من رفقك أتيت منهم في قــادم الأيام على أحلامك التي تؤملها، وأحداثك التي ترقبها فلا تعجل، فالعجلة من الشيطان، والتؤدة من الله تعالى.

أدمن الدعاء في كل موضع إجابة ورجا الله تعالى كثيراً، وأبان له عن ضعفه وقلة حيلته، فحفظ أولاده علي، والبراء، وعبد الملــك، وعبد العزيز كتابَ الله تعالى، ولا تســل كيف وصلــوا إلى تلــك الأماني الكبار، فالله تعالى إذا لطف بعبــده أكرمه بمثل هذه النهايات، ولله كرامــات وفواتح توفيــق، وإذا أعطى أدهش جلَّ في علاه، والله المسؤول أن ينفعنا وإياهم بما جرى، ويكون ســلماً للفوز والفلاح بين يدي الله تعالى يوم القيامة.



لم يكن يعطي أي شــيء، ولا يمنع في المقابل كل شيء، وقد يتأخر في طلب بعضهم تدريباً له على أن الأماني لا تأتي من أول المحاولات، وتحتاج إلى جهد وعناء، وقد يعطي مباشرة، والمواقف هي التي تحدد القبول والرفض، وتغيَّرت هذه المواقف بعد أن كبروا فكان يعطي في مرات كثيرة دون سؤال.

كان يؤمن باختلاف الأبناء في كل شــيء، فقرر أن يكون تعامله معهم وفق تلـك الاختلافات، فجعل (علياً) ابنه الأكبر مسؤولاً عن البيت وتلبية احتياجاته وسد نقصه، فكان هو الذي يأتي بكل شيء، ويتفاوض مع العمال في أي إصلاح في البيت، وهو المسؤول عن كل ذلك، وكان (البراء) جميل الصوت، فكان هو المسؤول عن الإمامة في المسجد عندما يســافر والده أو يغيب، وهو الذي يصلي التراويح والقيام في رمضان وقد صنع له القرآن حكايات كثيرة ووقف من خلاله على مدارج التكريم وشــارك في مســابقات محلية ودولية، ثم لما غادر للدراسة في الكلية الجامعية تولَّى (عبد الملك) إمامة المسجد وخلف والده أثناء غيابه حتى غادر للوظيفة، فخلفــه (عبد العزيز) في

ذلـــك، وكان (عبد العزيـــز) هو صانـــع القـــرار في هذه الخلافة، ولم ينتظر تكليفـــاً من أحد، وثمة طاقات تحتاج أن تكلفها، وطاقـــات ترى الحاجة فتســـدها وتمضي في دروب الحياة، لا تنتظر تكليفاً من أحد، ولم يكن لـ(البراء وعبد الملـــك) علاقـــة بشـــؤون البيت وإصـــلاح ظروفه العارضة إلا في أشياء تأتي عرضاً، وإن كانت العائلة كلها اتكأت فيما بعـــد على (عبد الملك) فـــي نفعهم وتحقيق مرادهم في كثيـــر من الأحيـــان، وكان يحســـن الصمت الطويل، وهادئ الطباع، ولا يكلفك شيئاً، وتأتي منه على مرادك من أقرب الأحـــوال، و(عبد العزيز) يجمع لك بين أمور شـــتى؛ فإن شـــئت أن تجعله إماماً فلا يحسن التردد ويأتي من أول طلب، وبمجرد غيابك أو سفرك يلبس ثوبه ويكون إماماً بدون مقدمات، وهو يحســـن كذلك التعامل مع الآخرين وأخذ حظاً من مسؤوليات البيت، وبقي معه بعد هذا الزمن (معاذ) ابن الست سنوات في الطريق، وفيه على صغره حكايات وأحداث؛ فهو لا يلبس إلا ما يناسبه، ولا أحد في البيت يفرض عليه لوناً أو شكلاً ما لم يقتنع بذلك، والله المسؤول أن يتولاهم بتوفيقه في الدارين.



قصة التدريس

(كم من مشروع بدأت قصته الكبرى
في حياة صاحبه من ميادين العمل!)

بدأ حياتـــه العملية معلماً فـــي محافظة محايل، وفي مدرسة الوفاء بمليحة تحديداً، وما زال يذكر أول يوم في حقل التعليم وقد بنى لذلك اليوم صرحاً عالياً في خياله ما لبـــث أن أودت به أول خطوة في رحاب تلك المدرسة ضعيفة المقومات، للدرجة التي أُخرج فيها كأس الشـــاي المغمور وســـط التراب ثم غُسل وملئ بالشاي ليشربه، ودارت في القلب خواطر لتلك المعالم الباليـــة التي يراها في مدرســـة الأحلام، ثم ما لبث يومـــاً بعد يوم حتـــى تأقلم معهـــا وصار لها واحداً من العشَّـــاق، وهكذا هي الأشياء والأشخاص والأمكنة لا تتفاعل معها مـــن أول وهلة، فإذا بقيت زمنـــاً ألف منهـــا صاحبها كل شـــيء، ومـــن فقهك ألَّا تعجل في قرارك في البدايات مهما كانت الدواعي

من وجهة نظرك، ويصلح شـاهداً على ذلك أنه كان ذات مرة في مكتب التعليم بحلي وهو في عمله في الإشراف التربوي جاءه زميل نُقل من مدرسة تبعد عن بيته ثلاثين كيلاً وقد عاش فيها سـنوات إلى مدرسة تبعد كيلاً واحـداً أو أقل، فما لبث ذلـك المعلم أن طلب إعادته إلى مدرسته الأولى، وكان مدير المكتب حينها ـ أستاذ التؤدة والأناة ـ عطية بن شامي العقيلي فقال له: أبشر في ظرف أسـبوع إلى أسبوعين نرتب أمرك ونعيدك إلى هناك، وما هي إلا أيام وإذا به يأتي مترجياً ألا ينقل من مدرسـته التي وصل إليها وهي أقرب ما تكون إلى بيته، وهذا المعنى يجري في كل شـيء في الزواج والصحبة والعمل والمشاريع، ومن كمال فقهك ألَّا تعجل في قرار حتى تبليه الأيام.

قضى في تلك المدرسة عشـر سنوات من أمتع أيام حياته العملية علـى الإطلاق، كان معلماً لخمس سنوات ثم وكيلاً لخمس سنوات أخرى، وثمة أحداث من البناء على مستوى المدرسة والمجتمع ما يودُّ أن له بها حمر النعم، وهو يقول لكل موظف: لا تبتئس



بمكان عيِّنت فيـه مهما كانت ظروفـه وواقعه وقربه وبعده؛ فالعاقل يهتبل الفـرص، وكـم من مكان خلَّد ذكر إنسان! وكم من إنسـان في تلك الأماكن البعيدة صار مضرب المثل في الأثر! فاصدق مع ربك واجهد في العمل، وكن قدوة صالحة وستجري لك أحداث المشاريع في قادم عمرك كما تشاء.

إذا كنت في ديار غُربة فما يضرك قربت فيها أو بعدت، وكم من قدر استقبله الإنسان كارهاً ثم ذرف الدموع عند الوداع! والأرواح جنود مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، امنح نفسك بعضاً من الوقت، وشيئاً من التأني حتى تقف على الحقائق كلها، ثم خذ قرارك بعد ذلك على بيِّنة ووضوح، ولن تخسـر شـيئاً بالانتظار، وفي الوحـي: «**العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالتَّأَنِّي مِنَ اللهِ**»(١).

جـرَّب التدريس فـي كل الصفوف الدراسـية بالمرحلـة الابتدائيـة بما فـي ذلك الصـف الأول الابتدائي، وتعرَّف على جوانب كثيرة في شخصيات

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٢).

طلابه بمختلف مراحلهم وميولهم، وكم من صيد ثمين بين هؤلاء! وكم من لذة نعيم تجرُّها اللحظات! ومن جرَّب عرف، ومن ذاق استلذ، ومثلك لا يخفى عليه أن طالب اليوم هو رجل الغد، فإذا ما لقيته فانظر إلى مستقبله البعيد وارفع عينك ونظرك عن صغره وواقعه، وغداً يحدثك عن كل مواقفك، ويسرد لك فصول الذكريات التي بنى من خلالها مستقبله الكبير.

تحدَّث الراجحي عن أثر معلمه فقال: من عام (١٣٦٣هـ) وأنا أذبح في بيتي أضحيتين: الأولى عني وعن أهل بيتي، والثانية عن معلِّمي، وسبب ذلك ريال أهداه له في تلك الحقبة من الزمن، وصنع الريال أحاديث الذكريات. انتهت رحلة التعليم في حياة سليمان الراجحي بالصف الثاني الابتدائي وامتدَّ أثر معلمه بعد ذلك ما بقيت بصاحبه الحياة.

تعرَّف في تلك المدرسة على العمل الإداري وكيلاً، ثم قضى فصلاً واحداً مديراً حاول في ذلك الفصل أن يرسم من خلاله ملامح التفوق والإبداع، فكان يسلِّم كل معلم تقديره في نهاية كل أسبوع في



مختلف أعماله وأنشطته، وقلَّ أن يجد مستقبل ذلك التقرير حرفاً خلاف ما دوَّن، ولكنه لقي الويلات في ذلك الطريق رغم قصره، فإن أردت منه نصيحة مجرِّب: فلا أعذب من التدريس في أثره رغم كلفته ومشقته، والأعمال إنما تتفاضل في الأثر على قدر واقعها من العمل، ثم الوكالة ذلك البرزخ بين الإدارة والتدريس، وهو برزخ من جنة لا يمل الماكث فيه مهما طالت به الأزمان، ولكنه ما يلبث أن يلقي بك في حياض المسؤوليات مع الزمن، ومن خلال تجربة ذلك الفصل الوحيد في الإدارة يقول لك: والله ما أتى عليه زمان مليء بالمشكلات والأزمات كذاك الزمان، وقد فسخ الإدارة من بيته بعد عودة مدير المدرسة من دورته الإدارية وقبل أن يستلم تفرغه من الكلية، ولا سبيل لك لقياس أفراحه بما حصل له ذلك المساء، وعهده برغبة المناصب من ذلك الفصل، فرفض بعد ذلك كل علاقة بهذا المعنى على سبيل الخصوص، واستقبل الحرية كما هي من غير تكاليف. وهذا شيء خاص به، وكلٌّ له وجهةٌ هو موليها، وهو هنا يحدثك عن نفسه، والناس مشارب،

وكم هي حاجة هذه المسـؤوليات إلى قادة ومؤثرين وقدرات! ومن أقبل عليها محتسباً ما عند الله تعالى، وتحمل مشاق الطريق، وصبر على لأوائه، وركَّز على الأهداف الكبرى، وجعل القيم والمهارات قبلة وجهه، فإنه صانع لمجتمعه ووطنه وأمته آمالاً مع الأيام.

عاش في إدارة التربية والتعليم بمحايل عسير عشر سنوات رأى فيها من جلالة قدر مديرها في تلك الحقبة الأستاذ مهدي الراقدي ما ينبئك عن قدر القائد الواعي، كان لطيفاً ينضح أدباً وخلقاً، وقلَّ أن تجده إلا ويأسرك بجميل تواضعه، وهو صاحب قرار، وإذا أراد شيئاً صنعه وبادر إليه غير ملتفت لظنون الواقع بين يديه، وكانت الإدارة تلك الحقبة في أجمل وأبهج عافيتها، وقلَّ أن يقف لك حقٌّ أو يتعثَّر طلبٌ في تلك الإدارة برجالها الأوفياء، وكلها تمضي في ثوب من اليسر والرفق وجميل المعاملة، فجزاكم الله تعالى يا أهل محايل خيراً، والطيب من معدنه لا يستغرب، وسلام على كل العاملين في إدارة التربية والتعليم تلك الحقبة،



وجزى الله تعالى خيراً كل أمين حريص يؤدي رسالته في ثوب من الأخلاق والأدب والصدق والإخلاص.

انتقل إلى محافظة القنفــذة معلماً عام (١٤١٨هـ) وكان مدير المدرسة تلك الحقبة الأستاذ الكبير حسن عبده الفقيه، وقد نفعــه الله تعالى بذلك الفصل الذي قضاه مديراً عرف من خلاله ماذا يريد مدير المدرسة من المعلم، فحاول أن يأتي على كل واجباته في ثوب من التميُّز والإبداع.

عــاد معلماً في الفصــول الدراســية من جديد، واســتلم (٢٤) حصة أعلى ما يستلم معلم في مدرسة ولم يشعر بثقلها، ولم يحدِّث مديره في تخفيفها رغم إلحــاح الزمــلاء، وأتى علــى كل ما يشــتهيه مدير المدرسة، وحاول جاهداً أن يصنع واقعاً جميلاً رغم تبعات العمل، ومن ذاق تكاليف إدارة المدرسة هانت عليه فيما بعد تكاليف التدريس.

بدأ رحلته العملية في الفصول من جديد، وصُدم في البداية لواقع الطلاب فربما دخل الفصل الســاعة

العاشرة فيسأل عمَّن صلَّى الفجر في جماعة فلا يعثر على من صلى الفجر فضلاً عن أنه صلَّاها في جماعة، وكان يأخذهم لمصلَّى المدرسة فيصلون ثم يعود بهم لدرس العلم، وما ينفع حرف بلا عمل، وعلم بلا أثر! وكل علم لا يكون له أثر في واقع طالبه فلا مفروح به في شيء.

بدأ رحلة التوعية الإسلامية بين طلاب المدرسة وجهد أن يصنع مساحات خضراء في أرض مجدبة، وحاول، ولكنه لم يصـــل إلى كل ما يتمناه، والجهود الفردية لا تصنع ما تصنعه الجماعـــة، وقد رأى فيما بعد أن كل موضوع شـــاركت فيه الجماعـــة ناله من بركتها وأثرها، وزان مع مـــرور الأيام، والفردية مهما كانت جادة تنقطع في بدايات الطريق، ولا تســـتكمل أحلامها إلا في النادر اليسير.

ما زال يذكر طالباً في الصف الثاني المتوســـط آتاه الله تعالى بســـطة في الجســـم، وقيل لـــه قبل أن يدخل ذلك الفصل: إنك ستلقى طالباً لا رغبة له إلا في الفوضى، ورآه أول ما دخـــل في مؤخرة الصف،



وهذه أماكن صُنَّاع الفوضـــى في غالب الأحيان، وإذا بدأ درسه حدَّث ذلك الطالب زميله وتبسَّم، فما كان منه إلا أن ترك ســـبورته وعاد إلى حقيبته وأخذ منها ورقة أعدها الإرشاد الطلابي تلك الحقبة وسجَّل فيها أحداث الطلاب في قاعة الصف، ولتستكمل فصولها معه فيما بعد، وظل يتعامل معه بهذه الطريقة دون أن يُحدِّثه بشيء، وعرف الطالب ما يصنع معلمه فتسلَّل إلى قلبه أن نهايته ستكون على يديه، وأن هذا المعلم الجديد يخبئ غيباً قد يأتي بقواصـــم الأخبار، فجاء هذا الطالب يوماً إلى معلمه قائلاً: كأنك تريد إخراجي من هذه المدرسة يا أستاذ! وكان يعرف تماماً أن مدير المدرسة ينتظر تقريراً عنه لينهي قبوله في المدرسة، ومـــرت الأيام ووجـــده يدخن في ممرات المدرســـة وأخذه إلى المكتبة وتحدَّث معه عن خطر هذه العادة على حياته فرجاه ألَّا يحدِّث مدير المدرسة بما صنع، ووعده وأوفى لـــه بما يريد، وفقـــه الطالب بعد تلك الحادثة أن معلمه يريده للحياة، وكم من صغير اليوم كبير الغد! ومرت سنون طويلة ولقيه يعمل في دائرة

حكومية مؤثرة، فتبسَّم ذات الابتسامة التي كان يبثها في أيام الدراسة وأقبل إليه مسلماً وقبَّل رأسه، فلله ما أعذب الصبر!

صحب في هذه المدرسة معلم اللغة العربية مطهر مدهش الفقيه، فأعاد له ذكريات أستاذه خلف الفاهمي من جديد، كان ذلك الأستاذ مثالاً في العمل والتضحية والولاء لرسالته. يبدأ رسالته العملية مع أول يوم في الدراسة ومع أول صافرة، وما يزال حتى آخر حصص العام وآخر لحظات العمل حتى ترسَّخ لدى هؤلاء الطلاب مثاليته، وظلت هذه الذكرى العطرة تصحبه كل حين، وتأتي على أمانيه كما أراد، فلله ما أروع الذكر الحسن! وقد قال الله تعالى على لسان نبيِّه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

أقبل ذات مرة في آخر أيام الدراسة وقبيل الاختبارات وافتتح درساً في كتاب التوحيد، فقال له أحد الطلاب كلمة تدلُّك على أثر القدوة في حياة الأبناء: «حتى أنت تريد أن تكون مثل الأستاذ مطهر



مدهــش!!» فيا لله ما تصنــع القدوة من آثــار! فيا أيها المعلمــون: القــدوة القــدوة! وما تصنعــون بمعارف تتهافتون على نهاية أسطرها في أذهان طلابكم وعهدهم بها حين صافرة النهاية في كل يــوم! ركِّزوا على القيم وضعوا أعينكم على المفاهيم الكبرى ولا تنفصلوا عن القدوة يوماً من أيامكم، فأعيــن طلابكم معقودة على النظر إليكم؛ فإياكم وفوات هذا المعنى الكبير!

قرر لطلابه أنه إذا دخل لا يسمح لأحد منهم بعد دخوله إيماناً منه بتكريس مفاهيم الوقت، ودعوة منه لمباهج هذا المعنى في حياتهم، وما أكثر ما كان يلقى شــفاعة زميله الأســتاذ علي أبو جــلاد الفقيه معلم الاجتماعيــات رحمه الله تعالى فــي هــذ الشــأن! وكان يجيب شفاعته، والهدف في ذاكرته ليس حرمان طالبه بقدر ما هو درس نافع للحياة، وقــد كان مولعاً بالمحافظة على الوقت، ويرى القدوة فيه من معالم الكبار، ولم ينجح في تأسيس هذا المعنى مع طلابه وإن كان أبقى لهم شــيئاً من تلك الذكريات مع الأيام؛ لأنه الوحيد الذي كان يؤســس لهذه الفضيلة بهذه الطريقة، وكرر

المحاولة مرة أخـــرى بعدما أصبح مشـــرفاً للتدريب التربوي مع المعلمين ولم يتحقق له ما يريد، ومارسه وما يزال في العمـــل التطوعي مع رفـــاق العمل في مرات، وهو يقول لك بعد تلك التجربة: إذا كنت في مؤسســـة يقوم نظامها على الترخص أو التساهل في شيء ما فلا تســـن فيها نظاماً يخالف ذلك فلن تبلغ أمانيك، ومهمـــا كانت جهودك الفردية فيها فســـيظل النجاح فيها ضئيلاً بسيطاً، ويد الله تعالى مع الجماعة، وعاش زمناً من عمره بعد ذلك وكثرت تجاربه وأيقن أن الجماعة كل شيء.

كان يتربع على عرش إدارة التربية والتعليم تلك الحِقبة أســـتاذنا الفاضل إبراهيم بن علي الفقيه، وقد حرص ـ حفظـــه الله تعالى ـ على العنايـــة بالكفاءات على مستوى الإدارة عموماً والإشراف خصوصاً، وإذا رزق المســـؤول إخلاصاً في النية وصدقاً في العزيمة فتح الله تعالى له مـــن توفيقه ما يشـــاء، وقد فتح الله تعالى عليه في الأخلاق، وقلَّ أن تجده مغضباً، ويأتي على كل أحلامه وآماله من خـــلال خُلقه، وقد فارقته



لتقاعده، ثم التقيت به في المجلس البلدي في بلدية القوز فزادني يقيناً أن تلك الأخلاق التي كان يتمثلها لم يكن منها شيئاً متكلفاً، وإنما تجري سجية وطبيعة.

كان جاداً في عمله ويُجري تلك الجدية في فلك خلقه وعقله، وأتى على كثير مما يشتهي من خلال ذلك، وقد رزقه الله تعالى صبراً على ما يريد وأناةً وفقهاً فكان يبلغ أمانيه من خلال تلك المعاني، وقد قال ﷺ: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»[(١)].

المسؤول مهما كان حرصه لا يستطيع أن يقف على كل ثغر من ثغور تلك المسؤولية، وإذا عني بما يقوم على تلك الثغور ويسد تلك المسؤوليات وفِّق لكل خير، وغالب التوفيق والضياع من خلال ذلك المعنى الكبير، وقد عني جزاه الله تعالى خيراً تلك الفترة بهذا المعنى وتحقَّق له بعض تلك الآمال التي يرومها مع الأيام.

ولعل من الشواهد على معالم تلك الشخصية ما حصل لأخينا المعلم: محمد الحسن المعشي من حادث انقلاب وهو في سيارته في الطريق العام، ثم

---

(١) سبق تخريجه (ص ٧٧).

شُلَّ ـ كتب الله تعالى أجره وعافاه وشفاه ـ فذهب إلى أحد المستشفيات الخاصة وقرروا بأنه عجز كلي ولن يستطيع التدريس، وحينما جيء بذلك التقرير إلى الأستاذ إبراهيم بن علي الفقيه، وكان حينها مديراً للتعليم، ونظر لذلك التقرير تعامل معه كأنما يتعامل مع أحد أبنائه، فقال: إن هذا التقرير لا نعتمده في الإدارة، وإنما يعاد عرض الأخ على الهيئة الطبية وهي المعتمدة في وزارة التعليم، فعاد الأخ للهيئة الطبية فقررت أن العجز ليس كلياً فكتب ـ جزاه الله تعالى ـ لمركز الإشراف التربوي في حلي لتوجيه المعلم إلى المكان الذي يراه، وكان يدير المكتب تلك الفترة الأستاذ عطية العقيلي فأشير على الأستاذ عطية أن يحوِّله أميناً للمكتبة، فرفض قائلاً: لو تم تحويله للمكتبة فقد يتحوَّل بعد زمن إلى إداري، وقد يتضرر في مستقبله، ولكن سأحوله معلماً للقرآن ويستطيع أن يؤدي دوره وهو على دراجته، ومن ذلك التاريخ إلى هذه اللحظة والأخ يمارس دوره معلماً للقرآن في مدرسته، فلله ما أعظم مواقف الرجال!



كانت وزارة التربية والتعليم تعيش أبهج عصورها على الإطلاق، وكان يمثِّل هذا الوهج سعادة الدكتور محمد أحمد الرشيد رحمه الله تعالى وغفر له وجزاه ما جزى مثيراً في واقعه، والكبار يصنعون إبداعاً في واقعهم غير معتاد! وإذا انداحت في قلبي ذكريات التعليم تذكرت تلك الحقبة المليئة بالأفراح!

عاش التعليم في تلك الحقبة أجمل وأبهج وأدهش أيامه على الإطلاق، فلبست المناهج ثوباً جديداً، وكانت الصفحة الأولى من كل كتاب تحمل حرف قلم الوزير مشجعاً ومباركاً ومذكراً بأثر المسؤوليات، وإذا بدأ عامه الجديد كان التعليم حاضراً أولاً في شخص مسؤوله، وانداح صوته في الإذاعة والتلفاز فلا تسمع إلا كلمة تشجيع وشكر وتقدير وتذكير بالغايات الكبرى لهذه الرسالة، فيا سقى الله زماناً كان مليئاً بالحياة!

انطلقت في تلك الحقبة (مجلةُ المعرفة) إدراكاً من ذلك الوزير رحمه الله تعالى أنه لا يحرك الآخرين سوى الأفكار والمفاهيم، ووصلت ذروتها، وكانت في أيدي

المعلمين، وعلـى طاولاتهم، وفي مكتبات المدارس تمثِّل وهـج الوزارة، وتُقدم رسـالة رائعـة في واقع الميدان. وكان شغوفاً بقراءتها، وكاتباً فيها، ومستفيداً من آثارهـا، والمعلم الذي لا تربطه برسـالته علاقة معرفية وجدانية يقف في منتصف الطريق لا علاقة له بصناعة التأثير.

كان ذلك الوزير مؤمناً بأثر التدريب فدعمه دعماً غير مسـبوق، وانتشـرت مراكز التدريب في الإدارة ومراكز الإشـراف، وكثـرت البرامج على مسـتوى الوزارة، وبـدأت تأخذ حظها مـن التأثير، وبين هذه وتلك كانت لغته رحمه الله تعالى مليئة بالـروح والإلهام، وكان يردد قائلاً: «لا يحدُّكم إلَّا السماء»، ويلقب المشرفين التربويين بالصفوة، ولا يتحفَّظ على مبادرة، ويشجِّع كل فكـرة إيجابية، فرحمه الله تعالى رحمة واسـعة، وجزاه الله تعالى خيراً على كل ما صنع في مساحات هذه المسؤولية.

كان في تلك الفتـرة كاتباً في مجلـة المعرفة، وكانت هـذه المجلـة تعيـش وهجهـا الثقافي بين



المعلمين، وتعـرَّف سـعادة مدير التربيـة والتعليم إبراهيم بن علـي الفقيـه عليه من خلالهـا، ومدير المدرسـة قريبه وجاره فزاره أستاذه حسين بن عثمان العقيلي ـ حفظـه الله تعالى ـ ورشـحه مع جملة من الزملاء لحضور اختبارات المشـرفين في مكة، وتمَّ تكليفـه بعدها مشـرفاً تربوياً للتربية الإسـلامية في مكتب التربيـة والتعليم في حلـي، وكان قبل ذلك باسم مركز الإشراف التربوي، ويمَّم وجهه في الشهر الخامس من العام (١٤١٩هـ) إلى ذلك المركز، وبدأت رحلة جديدة من العمل والمسؤولية والبناء، وإن كان من فضل عليـه في أيام الإشـراف التربوي وبدايات العمل وأولى خطوات التجربة فهي لأستاذه حسين بن عثمان العقيلي، وكان يزوره في البيت ويسـتفيد منه في تجربته الأولى، وينمو من خـلال تلك اللقاءات كل يوم، وامتدت هذه الصلة طويلاً من خلال زيارات بيتية لولا انشغاله بعد ذلك بمشروعه الشخصي.





البدايات الجادة

بدايته الجادة كانت عام (١٤١٠هـ) وهو معلم في مدرسته الأولى، وكانت تلك البداية من خلال زميله الفاضل عبد الرحمن إبراهيم الفقيه حفظه الله تعالى، وقد رزقه الله تعالى حسن خلق وطول صبر على سمتٍ وهدي، وكانت هذه المعاني كافية في استجلاب قلوب العطشى للحياة في ذلك الزمان.

كانت أجواء المدرسة غاية في الجمال والمحبة والألفة، وسط رفقة ملهمة تعينك على الإبداع؛ كالأخ ياسين العمري مدير المدرسة في تلك الفترة، وعلي شامي هيازع الشاعري، وحسين إبراهيم الفقيه، ومحمد ذاكر القوزي، وأحمد الحسين الصمي وآخرين، وكان حينها عادياً في همومه، بعيداً عن لغة المشاريع والأهداف الجادة وإن كان على خير من حيث المحافظة على الصلاة والرباط عليها وكونها



أولويــة، فقد تلقى تربية أســرية جادة مــن الأبوين، ومضى يقوم بواجباته التعليمية ويصنع مواقف مثرية لرفقة الطريق، ثم ما هي إلا أيام حتى بدأ يشده منظر ذلك الزميــل المتفرد عــن بقية الزملاء في ســمته وهدوئه وكتابه الذي لا يفارقه، وسجادته التي يحملها حين يريد صلاة الضحى، والمدهش في ذلك الزميل أنه يجلس معــه ومع بقيــة الزملاء، ثــم لا يتكلف البدايات، فإذا ما جاء الوقت المناسب قرأ له ولصحبه مواقف وقصصاً من كتابه واستشــهد بمواقف أخرى من حفظه كانت كفيلــة بمراجعات كثيــرة في ذهن صاحبه مع مرور الأيام.

تمضي الأيام وتتكرر هــذه الصور وتتكرر معها تلك اللقطات البسيطة جداً والمؤثِّرة إلى أعمق مدى، فشرح الله تعالى صدره وأقبلت به على الحياة، وبدأت تتغيَّــر همومــه، ورمى بــكل عارض مــن عوارض الطريق، وبــدأ الربيع يأخذ حظه من قلبه ومشــاعره وواقعه، والناس بين متلفت وسائل ومستغرب، وهو يمضي في الطريق ولكن ببطء، وفي مشاعره ركام من



الفوضى والاهتمامات تحتاج إلى زمن طويل، مضى في ذات المدرسة فرتب ذلك المعلم له ولرفاق العمل رحلة إلى الباحة، ومـرَّ أثناء تلك الرحلـة بالمكتبة فأخذ بعضاً من الكتب وعلى رأسـها وأهمها تفسير ابن كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وكانت تلك أول خطـوة في الطريق إلى العلـم والقـراءة ونقـاش الأفـكار والمفاهيم والتصورات، وما كان له عهد بها قبـل ذلك مطلقاً، واستمر وهج الحياة من خلال تلك المعاني فيما بعد إلى أن بلغت به النهايات.

عاد إلى بيته ولا علاقة له بالقـراءة، ولم يكن يعرفها بعد، ولا يدرك ما فيها مـن لذائذ، وبدأ يقرأ من هنا وهناك، غير أن صاحبه لم يذكره بأسس هذه القراءة وكيف يبدأ ومن أين وما الكتاب المناسـب لتلك المرحلة، فخاض لجـج البحر بمفرده وتخبط دون وعي وأخطأ مراراً وتكراراً، وبقي زمناً في ذلك الشتات حتى منَّ الله تعالى عليه بمعرفة الطريق، فلله الفضل أولاً وآخراً! ولا تعجـب وأنت ترى إصراره على تكاليف الطريق ومجاوزة شُـقته؛ فإن مشـاهد



الكتاب في يد صاحبه كل صباح، وتلك القصص واللقطات التي كانت تتكرر وبأسلوب هادئ دون ضجيج ظلت تتردد على مشاعره وتغريه بمواصلة الطريق والإصرار على بلوغ أمانيه، وكم من مشهد جلب لصاحبه الحياة!

كان يقضي يومه بين المدرسة والبيت، والمرحلة فاصلة وتحتاج إلى جهد حتى يجاوز مفازتها فأكرمه الله تعالى بصاحب الراية والداعية المخلص ورجل الدعوة الأول في وادي حلي الشيخ إبراهيم الحضريتي، وما كان في ذات المساحة التي يعيش فيها، ولكنه ليس بالبعيد، كان يبعد عنه حوالي عشرين كيلاً، ولكنه لمح بوادر الخير ورأى مشاهد الربيع على شاب في باكر عمره فاستثمر الفرصة، وكوَّن علاقة، وبدأ يزوره ويتعاهده، ويسأل عنه في كل حين، وإن كان صاحبه ما زال رغم كل ما هو فيه متعلقاً بالكرة مولعاً بأحداثها مقبلاً عليها، ويحتاج إلى زمن حتى يجتث تلك الفوضى من قلبه ومشاعره، ويعيد ترتيب أولوياته واهتماماته.



كان مرة يأتي إليه في البيت، وأخرى يضيفه على العشاء، وبين هذه وتلك تفسير لقصار المفصل، وفي ربوع السيرة النبوية، وأحاديث عادية، ولقاءات سمار فأراد الشيخ ـ جزاه الله تعالى خيراً ـ أن ينقل صاحبه نقلة نوعية، فسلَّمه كتاب الشيخ المصلح: (المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع) وطلب منه أن يلخِّص هذا الكتاب ويقدِّمه محاضرة في أحد الجوامع، وما كان يتصوَّر يوماً أن يقف محاضراً وفي جامع وخارج إطار قريته، وكان الخبر كبيراً على نفسه، ولكنه رزق نفساً طيبةً وحياءً عظيماً فلا يحب أن يماكس الآخرين، ولا يعارض رغباتهم فوافق تحت ضغط الحياء وقبل العرض، وكأن الشيخ أراد عصفورين بحجر واحد، فلعل الكتاب يغيثه قبل أن يغيث الآخرين، وفقه في الجانب الآخر أنك إذا أردت أن تصنع الرجال فضعهم في المواقف وجهاً لوجه، ثم دعهم يخوضوا تجارب الحياة، وهي رسالة تقول لك في تأهيلك لمن حولك من الأبناء والطلاب والمتربين والعاملين: لا تبقَ عمرك كله تشرح لهم كيف يصعدون



سلم الحياة ومن أين، بل كن ملهِماً وادفع بهم إلى تلك السلالم، ودعهم يجربوا الصعود، وستلقى حظوظك منهم أعجل ما يكون! وبدأ رحلته في صعود ذلك السلم بنفسه فلخَّص الكتاب وبدأ يراجع تلك الأوراق بين حين وآخر، ويذهب يمارس هوايته الرياضية، ومثار الدهشة أن شيخه يأتيه العصر فلا يجده في بيته، فيقال له: إنه في الملعب، فيأتي إليه في الملعب ويقابله ويطمئن على التزامه بموعده ثم يتركه، ثم هو يعود إلى ملعبه من جديد، وما زال على هذه الحال حتى أقعده شيخاً محاضراً في ذلك المجلس المهيب، وأعانه الله تعالى ووفقه تعالى، وبنهاية المحاضرة وقيامه من على كرسي الجامع تغيَّرت لديه الحكاية من جذورها فقرر ترك الكرة، والتخلي عن الهوامش، وبدأ رحلة جديدة من عمره. وكم من مواقف هيأت لمشاهد عزٍّ لم تكن على البال!

كانت تلك البدايات في حدود (١٤١٠هـ)، بدأ بعدها بمواصلة الطريق يلخص دروساً وكتباً ويقدم كلمات بعد صلاة الجمعة فيَ جامع قريته الصغيرة،



كان يختار موضوعاً ويلقيه، ونسي مع الزمن هل كان ذلك الجهد من دافع ذاتي ورغبة في بلوغ أمانيه، أو تكليف من صاحبه، المهم كانت تنتهي الخطبة ويقف ملقياً موضوعه، ولو أنك رأيتـــه في البدايات ورأيت ذلك العرق الذي يتصبب، وتلك الرعشة التي تلازمه، والأزمات التـــي تلاحقه وكأنه يلقـــي المحاضرة في الحرمين الشـــريفين وهي في الحقيقـــة بين عامة من الناس لا يدركـــون في مرات كثيـــرة ما يقول، ولكن هكذا البدايات في كل مشروع.

مـــن تلـــك البدايـــات البســـيطة وتاريـــخ تلك المحاضرة الميمونـــة وهو يقدم الدعـــوة في صورها المختلفة: كلمة ومحاضرة وخطبة ولقاء، ويشـــعر في كل مرة أن مخاطبة الجماهير فـــن وتحتاج أولاً إلى تقوى وصلاح صاحبها، وهي القاعدة الصلبة في كل شيء، وتحتاج في المقابل علماً يثري واقعها ويصنع مباهجها، وليس أضر عليها مـــن الجهل، ويرى بعد تجربة طويلة أنه مع كل النصوص التي تشـــجع على هذا المشروع ينبغي ألا يأتي إليه إلا من لديه طاقات



وقدرات ومهارات تناسبه، ويدخل برامج تصقل هذه المواهب وتهيئه لصناعة التأثير.

- تتطوَّر الدعوة كل يوم، وتتداح في الواقع متغيرات جديدة، وتزيد هذه المتغيرات مع بطء أصحاب المشروع، وعدم فهم واقع الدعوة الجديد والقدرة على مسايرته، وبقليل من الوعي والجهد يمكن أن نكتب لها شأناً عظيماً في مستقبل الأيام.

- كان الشريط الإسلامي إلى قبيل (١٤٣٠هـ) كل شيء، وقفزت الدعوة من خلاله إلى مراحل متقدمة، ووصلت البيوت وعانقت القلوب، وكان الناس ينتظرون بشوق وتلهف إصدارات بعض المشايخ وطلاب العلم، وصنع الشريط الإسلامي تلك الحقبة آثاراً لم تكن على البال، ولو قيل لك: إن كل من تراه اليوم من آثار تلك الحقبة لما برح الحقيقة، ثم جرى قدر الله تعالى وانتهى الشريط من الساحة بالكلية، وجاءت وسائل أخرى أقرب حضوراً وأكثر تأثيراً وشتاتاً في ذات الوقت.

كانت المساجد تلك الفترة تكتظ بجماهير غفيرة لحضور المحاضرات والدروس، وربما تُقطع مسافات سفر من أجل تلك الغايات، وصاحبها صلاح جموع غفيرة من الناس وكوَّنت أثـراً إيجابياً، ثم دار الزمن وقلَّت تلك الحركة، ثم انشغل الناس بالواقع وحلَّت وسـائل التواصل الاجتماعي التي بها يحضر الدرس في مرات ألوف، ويسـمع الكلمـة العارضة ملايين، ويتواصل معك بعد ذلك مئات، فلله الحمد على كل شيء، غير أن المسؤولية عظيمة والحاجة ماسة جداً، وثمة ضرورة إلى إعادة بناء تصورات هذا المشـروع بأفكاره ومفاهيمـه وتصوراته، وبنـاء طاقات مؤهلة للقيام به على أحسن الوجوه وأكملها.

أعظم القنـوات المؤثِّرة في حيـاة الناس خطبة الجمعة، وهي مشـروع ضخم وثمة جهـود في هذا الشـأن، ولكنها ما زالت تحتاج إلى عناية كبيرة من حيث ترتيب أهدافها ومشروعاتها وموضوعاتها حتى تبلغ منهـا أمانيـك، وإذا كانت هـذه الخطبة واجبة ولا يمكـن أن يتخلـف عنها مسـلم، ويحـرم مسُّ



الحصى لمن في المسجد، فمن الغبن ألا تجد منذراً في الجماهير يبث فيهم شجون الحياة من جديد.

الحاضـــرون لخطبـــة الجمعة جماهيـــر متنوعة مختلفة في التصورات، والمفاهيم، والرؤى والأفكار والحدود والأزمنة، ومن فقه الخطيب أن يتولى نفسه بالإعـــداد والتدريب والتأهيل، ويتقـــي الله تعالى في أمانة من أعظم الأمانـــات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وليس من الفقه أن يتسنَّم هذه المنابر كل إنسان بحجة قوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُوْرِ مَنْ تَبِعَهُ**»[1]، أو لغير ذلك من الحجج، فهذه أماكن الأنبياء والدعاة والمصلحين والناهضين، وحقها أن تجل عمَّـــن لا علاقة له بهذا الشأن الكبير.

ننحو دائماً في أحاديثنا للكثرة على حساب الكيف، وهو طبع يحتاج إلـــى مغالبة، مع أن ثمة نصاً شـــرعياً موجهاً لخطبة الجمعة بالذات يقول فيـــه ﷺ: «**إِنَّ طُوْلَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيْلُوْا الصَّلَاةَ،**

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) (١٦).



وَأَقْصِـرُوا الخُطْبَـةَ، فَإِنَّ مِـنَ البَيَانِ سِـحْراً»[1]، وكثيراً ما يجري الواقع على خلافه، والله المستعان!

كثيرة هـي قوائم الأخطـاء في حياتـه في هذا المشروع، وكم من قناعة لازمته واكتشف بعد أن قطع فيها شـوطاً طويلاً أنها خاطئة! وكم من مفهوم سيطر على حياته في هذا المشـروع زمناً، ثم اكتشـف في النهاية أنه غير لائق بمقامه.

اسـتقبل النـاس فـي عصـره وسـائل تقنيـة كـ: (الفيسبوك، وتويتر، والواتس، والسناب) وغيرها من الوسائل الأخرى، وتمكن الإنسان من خلالها من التواصل مع كل العالم من حوله، ولم يعد يحول بين الإنسـان والترقي والنجاح وتحديات واقعه شـيء، وليس في المقابل ما يحول بينـه وبين الانحدار في مستنقع الرذائل سوى رقابة الله تعالى وتوفيقه.

لا تسـتطيع في عصـر العولمة أن تقـف أمام عواصف التقنية لشـخصك، فكيـف بأهلك وولدك وأسرتك؟! وفي مثل زمانك يمكنك أن تدخل ولدك

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٩) (٤٧).



للبيت وتقفل عليه بالمفتاح، ثم يفتح أبواب العالم على مصاريعها، ويرى فيها ومن خلالها كل شيء.

لم يعد لدى المربين أياً كانت مستوياتهم التربوية والفكرية ومؤهلاتهم العلمية وتخصصاتهم في هذا الزمن وسيلة واحدة لوقف نزيف القيم سوى تمتين العلاقة بالله تعالى ومراقبته، والتربية على القيم، وإعادة بنائها، وبناء خارطة للطريق على مستوى المؤسسات في مستقبل الأيام، وإن كان الخرق أكبر على الراقع، وصُنَّاع الهدم أكثر، وتوجه العالم نحو مدِّ مساحات الرذيلة بكل صورها وآفاقها، إلا أن دين الله تعالى أبقى وأدوم في النهايات.

قضت هذه التقنية على رأس المال الكبير (الوقت) وذهب أعز ما يملك الناس في قضايا هامشية، وحوارات باردة، وتفشَّت دوائر الهموم للدرجة التي لم يعد لصاحبها سوى الحديث عن الآخرين، والتركيز على الأخطاء، وإثارة كل ما من شأنه جلب الفوضى وخلق صور الشتات فحسب.

حوَّلت هذه التقنية كثيرين إلى دُمِى يبقى الواحد منهم على وسيلة من هذه الوسائل ساعات طويلة،

وقلَّ أن يخرج منهـــا بفائدة، فكيف بهـــا مجتمعة؟!
ولو دخلت مجلســـاً لرأيـــت الناس مشـــغولين بهذه
الأجهزة، وقد تُســـلِّم فلا تظفر بِرادٍّ، وتدخل وتخرج
وتأخـــذ ما تريـــد دون أن تفلـــح في إثـــارة أحد من
الحضور لذلك الاستغراق على هذه الوسائل.

باتت المعرفة في عالم اليوم كالكرة كلٌّ يركلها في
جهة، ولا يدري ما فيها من قيم، وكم هي المرات التي
نَقَلَ فيها أحدهم آية أو حديثـــاً عن عاقبة قطع الأرحام
ووزعها على مجموعات كثيرة من خلال تلك الوسائل
وهو أحد الواقعين في هذه الكبيرة من ســـنوات، ولم
تنفعه تلك المعرفة في واقعه، وقد تجد من ينقل فكرة
خاطئـــة أو فتوى مكذوبـــة أو قضية على لســـان آخر،
وحين تســـأله عنها لا يعـــرف صحتهـــا ولا مصدرها،
ويقول لك في نهاية الرسالة: كما جاءتني!

مشـــكلة الكثيريـــن أنهـــم لا يملكون مشـــاريع
يوظفون من أجلها الوســـائل الجديـــدة، فتتحوَّل هذه
الوسائل إلى عبء ثقيل وتذهب أوقاتهم بعد ذلك في
غير طائل، وبدأ كثيرون يشعرون بهذه الأزمة ويبحثون



عن النجاة، وأمثل الحلول بعد تقوى الله تعالى وكثرة سؤاله وجود مشروع في حياة صاحبه وأهداف تحتاج إلى نضال حتى يتفوَّق على ما يعانيه من أثر هذه الوسائل، والله المستعان!

عاش زمناً يكتب مقالاً بعنوان: (حديث الجمعة) في صحيفة البندر، وقد كانت الصحف كل شيء، وكانت تلك البداية بناءً على طلب من المعلم الفاضل بركات سالم الغبيشي جزاه الله تعالى خيراً، فلله كم جرى من أنفاس ذلك الحرف في واقع الناس ذلك الزمن! وكم من إنسان صنع آفاقاً من الخير ومساحات من الجمال من خلال كلمة وموقف ورسالة! فدعك من الكسل وتخلَّ عن الأوهام، واستثمر كل حدث واصنع جمالاً في كل مساحة، وكن وصلاً للحياة ما بقي بك العمر!

بدأت علاقته بعد ذلك بتويتر من خلال حسابه الشخصي الذي خاطب فيه جموعاً من الخلق من شتى أقطار الأرض وأوصل من خلاله ما يؤمن به، وقد عاش مؤمناً بأن الأفكار والمفاهيم والتصورات هي كل شيء، وكم من بطل وصاحب راية وصانع تحديات كان أثراً



لتلك المعاني! وكم من قاعد يشتكي ظروف زمانه ويبكي على فوات حظوظه لأجل ذلك! وقد ركَّز على فكرته الملهمة (مشروع العمر)، وحاول أن يعرضها بصور كثيرة ومتنوعة وبكل الوسائل المتاحة، وما زال يجهد في إقناع أولئك الجماهير بفكرته ويعتقد جازماً أن من عرفها وآمن بها فقد ولد من جديد.

ولم يترك وسيلة إلا وعمرها بالوحي، وجهد في ملئها بالحقائق، وعرض من خلالها فكرته، وجهد في استثمارها في سبيل دينه ومنهجه وقضيته الكبرى، ويرى بأن الحياة فرصة، وما أكثر ما كان يطربه في هذا المعنى قصة عكاشة رضي الله تعالى عنه حين كان يسمع لنبيِّه ﷺ: «**يَدْخُلُ الجَنَّةَ سبعونَ ألفاً مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ**»، فقام من مجلسه وأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**»، وقام الآخر لاهثاً فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال له: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ**»[(١)]! وقصة الصحابي الجليل خزيمة بن ثابت رضي الله عنه في قصة شراء النبي ﷺ فرساً من أعرابي فاستتبعه

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤).



النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته، فقال ﷺ: «**أَوَلَيْسَ قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟**»، فقال الأعرابي: لا، فقال ﷺ: «**بَلَى، قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ**»، فطفق الأعرابي يقول: هلمَّ شهيداً، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «**لِمَ تَشْهَدُ؟**» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله شهادة خزيمة بشهادة رجلين[(1)]، ومن قرأ حديث البغي التي غُفر لها في سقي كلب، والرجل الذي غفر له من أجل أنه كان يداين الناس ويقول: خذ ما تيسَّر واترك ما عسر، وتجاوز لعل الله تعالى يتجاوز عنَّا، والآخر الذي قطع غصن شوك من الطريق فدخل الجنة، عرف قيمة هذا المعنى، وجهد بكل ما يملك في استثمار الفرص العارضة، وبنى لنفسه من خلالها ألف معنى! فدونك الحياة.

---

(1) أخرجه أبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧).



قصة الدراسة الجامعية

(إذا لم تكن نفسك تواقة للعلم
فقد لا تأتي على أحلامك التي تريد)

فكرة الدراســة الجامعية تراوده من زمن طويل، وكان ذهابــه لمعهــد المعلميــن الثانوي اســتعجالاً للوظيفــة، بينمــا كان قلبه فــي ذات الوقــت يطمح للمعالي، وكم تأســف على ذهاب رفاق الطريق إلى الثانوية، ومن ثم الجامعة، وهو في غير الأماني التي يهفو إليها، غير أنه لم يفقــد الأمل، وكلما رأى حلماً ابتدره حتى جرت له أمانيه كمــا يريد، ولا ينبغي أن تقف بنــا ظروفنا عن مواصلــة الطريــق مهما كانت الصعاب والعوائق، وقد ترى فــي أجيال اليوم حرصاً على الوظيفة واستعجالاً في تأمين المستقبل كما يقال، فتنازلوا عن هذا المعنى واكتفوا منه بالثانوية، وسيأتي زمان يتأســفون فيه على هذا التفريط إن لم يتداركوه قبل الفوات، وعلى الآبــاء أن يضعوا هذا المعنى في ســلم أولوياتهم، وهو جزء من دور الآباء، وقد حكى



لي ذات مرة أحد الآباء أن ولده أخفق في بداية دراسته الجامعية ورغب في الخروج منها، ولكن أبلغته أنه لا سبيل لك لأي مجال إلا بعد نهايتها، فعاد من جديد وخرج متفوقاً، ولن تقف الفرص يوماً، وكلّما متن الإنسان علمياً وفكرياً تعدَّدت تلك الفرص بين يديه، وزمانك خير الشاهدين.

بعد مضي أربع سنوات في التدريس قرر في عام (١٤١٢هـ) تحديداً الالتحاق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع أبها منتسباً، وبقي فيها أربع سنوات، وتخرج فيها عام (١٤١٦هـ) ولحق بالرفاق، وتم له أول الأماني، ولكنه ما كان يرضيه مجرد اللحاق، وكان كما هو في كل مرة يعشق صناعة المبادرات، ويصرُّ عليها ويقتحم مجاهيلها، ويركب صعابها، ويأبى إلا أن يجري في فلك آمال المتنبي حين قال:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُوْمِ
فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُوْنَ النُّجُوْمِ
فَطَعْمُ المَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيْرٍ
كَطَعْمِ المَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيْمِ

أو قول الآخر:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيْمَةٍ
فَـإِنَّ فَسَادَ الـرَّأْيِ أَنْ تَـتَـرَدَّدَا

وإن كانت هـذه المغامـرات لا تبلغ حـد الموت، ولكنهـا جزء من الحيـاة، أو هي الحيـاة، وقد قال أحدهم يوماً: الحياة في سـبيل الله أعظم من الموت في ذات السبيل.

حاول جاهداً بعد ذلك في الدراسات العليا وظل يبحث زمناً من عمره فلـم يجد طريقاً في بداية الأمر ينفذ منه إلى تلك الآمال التي يرجوها، وإنك لتعجب من زمان ونظام تأتي راغباً وقابـلاً للتحدي وحاملاً لتكاليف مسـتقبلك، ثـم لا تجد مسـتقبلاً لأثقال الروتين فـي ذلك الحيـن، وتطوّر الزمـن وتغيَّرت الأنظمة، وأصبحـت موقوفة على بعـض التكاليف المالية، ثم تمضي في الطريق الذي تريد بعد ذلك.

بقي يبحث عن جامعة يجد فيها بغيته ويتم من خلالها مشـروعه العلمي حتى عثر علـى (الجامعة



الأمريكية المفتوحة) وهي جامعة متينة في مناهجها، كبيرة في رسالتها، قوية بأساتذتها! وكان نظامها دراسة منهجية مدَّة عامين، ثم رسالة علمية بعد ذلك وفيها بحوث، ومناقشات، ولقاءات، أتم فيها دراسة العامين، ثم سجل رسالته العلمية: (ترجيحات الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى من بداية كتاب الصلاة إلى نهاية صلاة التطوع مقارنة بما استقر عليه المذهب الحنبلي)، وأشرف على الرسالة شيخنا د. عبد الرحمن الجرعي من جامعة الملك خالد بأبها، وناقشها كل من د. فهد العريني من جامعة أم القرى، ود. جميل اللويحق من جامعة الطائف وذلك في عام (١٤٢٨هـ)، وكانت ليلة المناقشة ليلة حافلة بالأصدقاء والمحبين والزملاء.

ذات يوم وهو في الطائرة في سفر إلى الرياض عثر على مجلة وفيها إعلان عن جامعة مكة المكرمة المفتوحة في جدة، وإذا أراد الله تعالى أمراً ساق له الأسباب، نزل من الطائرة واتصل بحبيب القلب د. علي بن أحمد الراشدي وشاوره وأشار عليه بذلك،

فسافر إليها والتقى بأستاذها الكبير د. خلدون الأحدب، وبدأ دراسته فيها وبقي فيها ثلاث سنوات ناقش فيها رسالته العلمية للدكتوراه: (القواعد والضوابط الفقهية عند الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في كتابه السيل الجرار جمعاً ودراسة)، وقد أشرف على الرسالة أستاذ الدراسات العليا في كلية الشريعة بجامعة أم القرى د. حسين بن خلف الجبوري، وناقشها كل من فضيلة د. أحمد بن حمود اليماني، وأ.د. خالد محمد العروسي من جامعة أم القرى، وذلك في عام (١٤٣٢هـ) في ليلة بهيجة، شارك فيها لفيف من المحبين، وجمع من الصحب والزملاء ورفقاء الدرب الطويل، وكان أبو عبد الله ياسين الدرهمي وأبو خالد أحمد العلوي ورفيق العمر محمد مبارك رحمه الله تعالى شركاء تلك المناسبة وصنّاع بهجتها على وجه الخصوص.

لم يكن هدفه الأول من دراسته العليا طلب العلم الشرعي، ولديه قناعة متينة من زمن طويل أن هذا الهدف الضخم وهذه القضية الكبرى يكفي فيها المساجد، وحلق العلم، والكتب، ويستطيع أن يصل



طالب العلم إلى بغيته من غير هذا الطريق، وإن كانت الجامعات إذا أكرمها الله تعالى بطلاب علم يتجاوزون الروتين يمكن أن تصنع آفاقاً لطالب العلم الجديد، وتدله على قضايا البحث، وتفتح له آفاقاً في الطريق.

- شرع في دراساته العليا تعويضاً لطريق البدايات الذي سلكه باتجاه معهد المعلمين الثانوي، وتحدياً للواقع الذي يعيشه، ومراغمة للنفس، وتغلباً على اللذات العارضة، وأراد خدمة دينه ومنهجه في مواقع متعددة لا تأتي في زمانه إلا بها ومن خلالها، وتحقق له بعد ذلك كل ما أراد، وهذا جزء من السنن الإلهية، ومن أراد شيئاً وبذل في سبيل تحصيله بلغه ولو طال طريق أمانيه.

- تمَّت الدراسات العليا في زمن نضجه، فلم يكن حريصاً على أن تكون تلك الجامعات معتمدة، فهو منذ عرف نفسه لا علاقة له بتلك المناصب وأزهد مَنْ يكون فيها، ولا شأن له في تلك المعاني مطلقاً، وقد خلقه الله تعالى حراً والروتين أكره ما لديه والحرية لا يعدلها شيء. ولا ينقضي عجبه من أناس درسوا



في جامعات غربية واعتلوا بها منابر صناعة القرار، ثم رفضوا اعتماد كل شهادة لا تأتي عليها بأثقال من الروتين الذي بنوه هم من خلال قراراتهم الشخصية.

قال له صديق ذات مرة وكان يدرس في بلد عربي بغير موافقة التعليم العالي: حضرت موقفاً في وزارة تعتني باعتماد هذه الشهادات بين المسؤول ودارس في الخارج، وكان ذلك الدارس قد أعطى الشهادة لذلك المسؤول لإتمام مشاهد قبولها واعتمادها فرفض المسؤول، وقال: إن هذه الجامعة التي درست فيها غير معتمدة لدينا، فقال له: كيف غير معتمدة وجزء كبير من الخريجين منها يعملون أساتذة في جامعات بلدك، وأنت الذي قبلتهم ونظامك الذي هيأ لهم؟! فكيف تسمح له بذات الشهادة التي أحملها ولا تسمح لابن بلدك؟! ودار نقاش طويل ما كان يرد ذلك المسؤول إلا أن النظام يقول ذلك، حتى تدرك عقم كثير من الأنظمة في واقعك. وإن كانوا يُعذرون في مرات لانتشار الفوضى في جامعات وهمية ولا وجود لها وتمنح شهادات،



ومثل من يأتي إلى هذه كالسارق في الظلام يظن أنه لا يراه أحد، وقد شبعت نفسه من بخسها إلى أقصى مدى، وأعتقد جازماً أن المترددين على أبواب تلك الجامعات الوهمية بهم حاجة إلى استرداد الثقة المسلوبة من نفوسهم قبل كل شيء، والمُتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَي زور!

من منن الله تعالى عليه أن كل دراسته الجامعية بسنيِّها وأيامها الطويلة لم تفصله عن العمل الخيري، أو قضية تستحق العمل، أو فكرة صالحة للحياة في زمن طوت هذه الشهادات ذكريات كبار بين جدران أربعة وانفصلوا عن كل شيء بحجج هذه الأوهام، في حين لو حسبت تلك الأوقات التي صُرفت منهم على وسائل التواصل الاجتماعي ـ كمثال ـ في تلك الفترة لكانت كفيلة بتأسيس كيانات ضخمة ومشاريع كبرى، ولكنها الأوهام، وكم من مفصول في تلك الحقبة لم يعد إلى تلك المباهج التي فرط فيها مع الأيام!

يعترف أن هذه الدراسات مكلفة ومجهدة، وكم من ليلة بات فيها مهموماً مغموماً من أحداثها

وآثارها! ولقي فيها من المشاق ما يعرفه أصحاب الطريق، ولا يعد لك تلك الليالي التي عرضت له مسألة في البحث، فلا هو الذي وجد لها حلاً، ولا هو الذي استراح من همومها، وبقي على ذلك أياماً! ويخبرك أنه لا يحسب تلك المرات التي ترك رسالته، وقام إلى فراش نومه، وتدثر بلحافه فراراً من أرق تلك اللحظات، فلا هو الذي نام، ولا هو الذي مدَّ في بحثه وتخلَّص من همومه.

في هذا النوع من الدراسات تجارب ضخمة وصعاب وعقبات تحتاج إلى جهاد، ومن صبر نال! ومن بدأ فيها خطوته الأولى أتى فيها على النهايات، وصدق من قال: طريق الألف ميل يبدأ بخطوة. ومن استطال الطريق وفوَّت الفرص أكلت قلبه الأماني فيما بعد، ولا سبيل له إلى الوصول. والله المستعان!







قصة الإشراف التربوي

(إذا لم تملك أدوات التأثير الفاعلة
فخير لك ألا تدلف من هذه البوابة)

بدأت رحلة الإشراف التربوي في مكتب التربية والتعليم بحلي عام (١٤١٩هـ)، وكان على رأس هرم ذلك المركز تلك الفترة أستاذه اللغوي الأديب عطية بن شامي العقيلي، وعلى رأس هرم إدارة التعليم الأستاذ إبراهيم بن علي الفقيه مديراً للتعليم، وهي تجربته الأولى، وبداية رحلته في عالم الإشراف، وقد وجد صاحبه مدير المركز في تلك الفترة فوق تصوره، ولم يكن له عهد بذلك النوع من القيادة إلا في صحبته، فلله دره ما أكبر عقله! وما أوسع خاطره! وما أطول صبره وحلمه وأناته! وإذا دهمته الأحداث طال صمته، وقلَّ أن يفتح لك حديثاً حتى تبتدره، وكم من مُتعٍ كوَّنتها تلك الفترة في رحاب ذلك المركز! وثمة حكايات كثيرة قد لا يأتي عليها قلم الذكريات.



يثق فيك ذلك المدير فـوق تصورك، ويتصدى للمشكلات التي تثار في طريقك دون أن يفتح معك باباً للحديث حيالها إلا إذا طرقت بابه فتأتي منه على ما تريد.

لم يكن يدري أنه حين كُتب خطابه مشرفاً تربوياً إلى ذلك المركز أن قوماً قابلوا ذلك الرئيس وحذروه من ضيفه القادم، وصاحوا في أذنه ناصحين: لقد حان موسم الشتات، ولعلهم سـمعوا عن شيء من دعوته وحركتـه، ورأوا أنه سـيقف أمام كثير ممـا يراه في واقعه، وإلى هـذه اللحظة لا يدري ما سـبب ذلك، ولكنه يؤمن أنها جزء من تكاليف الطريق، وكان ذلك المدير كالجبل الأشم الذي لا تحركه الرياح.

بدأ أول أيام عمله، وخطوة في مسـتقبله الجديد، ودخل على رئيسه وسلَّم عليه وكان استقبالاً حافلاً، وقد أرادت تلك الأصوات أن تلقي حجـراً وفاتها أن الماء الصافي لا تكدره الدلاء! والأجمل والأدهش أن صاحبه لم يخبره بشيء مما حدث طوال تلك السنوات، ومرت كل المواقف التي تهيِّئ للإفصاح ولم يُلمح له بشـيء



من ذلك فضلاً عن أن يروي له التفاصيل، فأين هذا من صاحب سـر لا يملكـه في صـدره بضع سـاعات؟! وما أكثرهـم في زمانـك! حتى تم انتخابـه عضواً في المجلس البلدي في تجربته الأولى في عام (١٤٢٧هـ)، وصنعت القبيلة كمـا هي عادتها فـي كل حين احتفاءً بابنها الفائز في ذلك السباق، وحضر صاحبه ليلقي كلمة بتلـك المناسـبة، وهنا فتـح كل الأسـرار! فقال: في أمسيات الوفاء يرسم أهل الوفاء مساءات جميلة يتضاءل على عتباتها قول القائليـن، وتتناثر عبارات البيان على ضفافها، ويزيد الأمر تأزماً على المشاركين عندما يكون المحتفى به أهلاً للاحتفاء وجديراً به، ولعلي أرى الأمر من زاوية تخصني، أرى من خلالهـا أنهم قليلٌ أولئك الذين يسكنون كل الأماكن ويلذ لهم محاورة المستحيل عندما يتقمصهم العشـق للإبداع والعطاء، وقليلٌ أيضاً أولئك الذين يرسمون بريشـة الخلق الجميل صفحات حب ناصعة البياض على جدارية التعامل، ليصنعوا من كل ذلـك ذكرى جميلـة يُعطِّر أريجها بسـاتين الإخاء عندما ينفث الحاقدون شيئاً من سموم صدورهم، وتزيِّن التاريخ عندما يُسوِّد الخاملون بياض صفحاته.

أيها الأعزاء: في هذه المناسبة المباركة يسعدني اللقاء بكم، ويشرفني المشاركة، ويطيب لي البوح بمكنونات صدر ظلت حبيسة أضلاعه ردحاً من الأيام. لم تكن تربطني بأبي عبد العزيز علاقة، ولم يسبق لي اللقاء به على بساط التعارف، ولكني عرفته ذات يوم جميل كواحدٍ من كوكبة العاملين الذين انتظمهم مركز الإشراف التربوي بحلي إبَّان إشرافي عليه مديراً، بيد أنه سبق الرجلَ إليَّ سيلٌ من النشرات المعلوماتية التطوعية تضعه في دائرة اتهام قاتمة السواد، وتصوره لي نشازاً سيؤدي إلى زراعة بذور فرقة بين الزملاء المتآلفين، وقد تكون له نزغاتٌ لا تروقُ لكثير من العاملين معه.. لا أدري كيف وصلت إليَّ هذه المعلومات، ولم أكن أعرف الأهداف الحقيقية وراء ترويجها. فمرة أقول: لعلها الكراهية عندما تتصوَّر حية رقطاء تتلوَّن بألوان الطيف لتخفي وراءه ضياء الناجحين، ومرة أقول: لعله الحب والإخلاص عندما يلبس جلباب الوعظ المتشح بأخلاقيات المراء، فيفسد ذلك الأريج العطري لنسمات الإخاء. وثالثة أقول: لعله الحرص



على بيئة العمل أن تبقى نقية صافية خوفاً أن تتنازعها أهواء شتى، بيد أن أصحاب هذا المنحى ضلوا الطريق الأمثل لما رموا إليه. جَمَعْتُ كثيراً من هذه الرؤى واحتفظت بها لنفسي وأغلقت عليها في حقيبة صدري وتركت مفتاحها بيد الأيام. وبين هذه وتلك ظللت أرسم صوراً شتى للقادم الجديد، تتضح ملامح الرؤيا في خفايا غيب الأيام حيناً، وتستعصي قسمات الملامح في حنايا المجهول حيناً آخر حتى جاء ذات صباح خُيِّل إليَّ أنني لمحت ابتسامة في إشراقة شمسه. صاحبَ ساعاته الأولى انضمامُ ثُلة خيِّرة لركب العاملين تحت لواء المركز، وكان صاحبنا واحداً منهم.. كان استقبالي لهم جميعاً حافلاً وإن كنت من ذاك على حذر، استدرت للماضي أستجلي حقيقة ما جاء به، وطفقت أتابع الرجلَ بعقلانية من حيث لا يشعر أحد ولم أشعر به أحداً، وأخذت أضعه على محك التجريب والاختبار، وأدلف إلى مقارنة مستمرة بين ما أراه وما سمعته، وبين ما عندي من معلومات تيقنت فيما بعد أنها كانت مشوَّهة وبين واقع ملموس أراه عياناً. ارتقى

صاحبي درجات الثقة بسرعة خاطفة، وحلَّ من عيني في سوادها وســكن من قلبي في ســويداه، ولكنني تركت للأيام مهلة لعلها تلد ما بقي في مشيمتها، بيد أنها أخــذت تريني في كل مشــاركة جديــدة وجهاً صبوحاً يزينــه الجد والإخلاص والمثابــرة، ويعلوه حب العمل وتميز الأداء ودفق العطاء، وتسكنه روح شــغوفة بصعود القمم وتهــوى تتالــي النجاحات، وصنعتْ منه الأيامُ رجلاً باســمَ الثغر بشوشَ الوجه مشــرقَ المحيا، عرفت فيه صلابته في الحق، يجيد التعامــل مــع متغيــرات العمــل، ويحــرص على الاستشارة رغم معرفته رغبةً في الاستزادة، وهو مع ذلك شابٌّ تتقمصه روح الشــيوخ التواقة إلى عمل الخير والمعروف وإن اصطدمت بصخور المستحيل، ويســيطر على روحه وقار الوعظ والدعــوة إلى الله تعالى وإن نثر المغرضون شــوك الحقد والكراهية، وهو يملك نفســاً تواقة إلى ورود حيــاض المعرفة والعلم لينهل من معينها، لمعرفته أنها الطريق القويم لصناعة الرجال المتشوقين إلى مداعبة المجد وتَسَنُّمِ الدرجات العليا في المجتمع ليكونوا أعضاء نافعين



لأنفسهم وأمَّتهم. أقول: إبان تعاملي مع صاحبي في محيط عمل واحد تراءت أمام ناظري كل هذه الرؤى وكوَّنت قناعة قامت أركانها على اليقين، فدفنت تلكم المعلومات التي سبقته إليَّ في غياهب المجهول، وجفَّفت منابع ذلكم السيل الهادر الذي كاد يجرفني معه لظلم الرجل قبل ابتلائه، وبعد ذلك رسمتُ له صورة مشرقة الجبين أجبرتني على اختياره في كثير من مهام العمل التي أرى فيها شيئاً من أهمية الطرح أو صعوبة التناول والمعالجة، وكان في كل مرة يرسم على صفحات العمل خطوات الواثق من الإتقان.

عزيزي أبا عبد العزيز: لقد كنت ذاك وأنت لا تدري وأصبحت هذا ولعلك تعرف. وإنما هذه خطراتٌ كانت حبيسة الصدر، فقد تألفت من مضامينها صورة زاهية البريق حلَّيتَ بها مساحةً من القلب أيام العمل وبعده. وللحق فإني لا أدري أأدعوك ابناً فأنت ذاك لما لمسته من روح شفافة في تعاملك معي، أم أدعوك أخاً فأنت هو لما يتراءى لي من صدق المشاعر وبهجة



الأحاسيس، أم أدعوك صديقاً فإنك كذلك لما ترسمه من الود والمحبـة في تعاملـك معي؟ أمَّـا أنا ففي الحقيقة أني أرى فيك كل ذلك.

وختاماً: معذرة في هذه الخواطر المتناثرة بعد حين، فإن الحب أملاها والصدق أعلنها، وهنيئاً لك مكانةً تبوأتها بانتخابك عضواً في المجلس البلدي، ولا أراك إلا أهلاً لـه. ودعواتي لك أن يمـدَّك الله تعالى بعـون وتوفيق، ويمكِّنك من رسم معالم الثقة التي أنيطت بك، وأمنياتي لك بتوفيق مسـتمر في القادم من الأيام، وأشاركك في تقديم الشـكر جزيلاً لأولئـك الذين تبنَّـوا إقامة هذه التظاهرة الاحتفالية، والوفاء من أهله لا يستغرب! شكراً لكم يا من صنع هذه الأمسـية الجميلة، شكراً لكم أيها الحاضرون جميعاً. نتلاقى على دروب الخير. والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته. اهـ.

فهل تعجب مـن أناته وتؤدتـه؟! أو تعجب من طول صبره؟! أو تعجب من ترك كل ما يقال للأيام؟! وهي كفيلة برصد الأحداث، فلله لو لم تكن في تلك الليلة إلا تلك الكلمة لكان حدثاً يستحق الاحتفاء.



بدأ العمل جاداً وما عرف في حياته كلها غير هذا المعنى، وكان يبذل جهده ويعتقد أنه يمثل دوراً مهماً في إصلاح واقعه من خلال تلك المنظومة المبهجة والمتآلفة روحاً وهدفاً ومعنًى، وكان يمثل حلقة وصل في مجموعة العمل ويشارك بفاعلية في كل حدث، ويصنع فألاً في كل مساحة، ومضت سنوات على هذا الأمر فاحتاج ذات مرة إلى إجازة يوم لعارض من العوارض، فذهب إلى باب مديره وطرق الباب وخرج له في تؤدته كما هو، فسلَّم عليه وعرض له طلبه، فقال له كلمةً ظلَّت تطرق أذنه في كل حين: إياك أن تُكرر هذا الاستئذان مرة أخرى، كلما عرض لك عارض اذهب إلى حيث شئت واقض غرضك وتمم أمورك، ويكفي إذا جئت أن تبلغني بما عرض لك. وكذلك الكبار! ولا تظن أن هذا طريق للفوضى فقد عَلَّمه درساً ظل مديناً له مدى العمر، ودفع به إلى صناعة كل ممكن لصالح منظومته فيما بعد، وكم من مسؤول يظل يسألك: أين ستذهب؟ ومتى ستعود؟ ولو وقَّعت في بداية يومك، أو تأتي بورقة تثبت



ذهابك، أو نسجل لك اضطرارية؟ ويظل كئيباً على قلبك ثقيلاً في مماكستك حتى تود أن الجبال على ظهرك ولا تلقاه في عارض من عوارض الطريق، وما أكثرهم في زمانك!

كان يزور الميدان التربوي، ويعتقد أنه يمارس دوره كما هو ويريد كل شيء منتظماً من أول وهلة، ويعتقد وما زال أن دور المسؤول الواعي أكبر من أن يبقى متلقياً لتوصيات زائر في كل حين، ويكفيه تجربته العريضة في بناء واقعه ومساحته كما يشاء، وكان عَجِلاً في البدايات، ويود أن لو رأى النور من أول وهلة، وعاش مباهج النجاح من أول الطريق، والعجلة جزء من شخصيته وقد لازمته في كثير من المواقف، وما زالت معه على كِبَر، يريدك أن تكون منضبطاً في وقتك، وعلى ذات موعدك، وتقدم عملك قبل موعده، وتنجز فوق المتوقع منك، وتكون جاهزاً لأي حدث وفي أي وقت، وفاته أن الناس مواهب وقدرات، وواقع الحياة يحتاج إلى صبر طويل، وما كل ما يتمنى المرء يدركه! وما زال يتدرب على



التؤدة، ويســـأل الله تعالى أن يمنَّ عليه بآثارها، وكان فــي المقابل يمارس دور الإصلاح مــن خلال حياته كفرد، وفاته أن العمل في المؤسسات لا يأتي إلا من خلال نظام وفريق، وأي جهود فردية مهما كانت قوتها لا تمنحه إلا الخصـــام النكد، ويرجــو أن التجارب صقلته وبانت له عن طبائع الأشياء.

كان في بدايـــة عمله عبــداً للروتيــن يأتي إلى المدرسة في عمله الإشرافي في الصباح، ويبقى حول دفتر الدوام، ويرقـــب المتأخريـــن، ويضبط ما أمكن ضبطه من ذلك، ويحضر طابــور الصباح ويقف على تفاصيله، ثم يأخذ دفتر إعداد زميلــه ويبقى فيه زمناً ويكتب زيـــارة مكرورة كمـــا يكتـــب كل زميل، ثم تخلص من ذلك الروتين وخـــرج من قيوده وفك كل تلك الآصار وعاش حراً، وبنى رسالته على الأهداف والأولويات، فـــكان يكتب أهداف العـــام، ثم يبعثها لزملائه في الميدان، ويخبرهم أن كل الزيارات القادمة حيال هذه الأولويات فحسب، وترك دفتر الدوام لمدير المدرســـة، ولـــم يعد يســـأل عنـــه ولا يطلـــع عليه،

ولا علاقة له به في شـــيء، وقرر فـــي بعض مفردات تلك الحريـــة التـــي بدأهـــا ألا يحضـــر الاصطفاف الصباحي، وتنازل عن الحضور المبكر إلى المدرسة، وكان يأتي فـــي مرات الســـاعة الثامنـــة، وفي أخرى التاسعة، أو العاشرة حسب هدف الزيارة، وفي مرات يزور مدرســـتين في يوم واحد، الأولى زيارة لزميل، والثانية لمتابعـــة قضايـــا تربوية كالصـــلاة ونحوها، والذكريات هنا أقل من أن يفصح لك فيها عن مباهج الحياة التي عاشـــها في تلك الفترة من عمره وزمانه، ويرى بأن جـــزءاً كبيراً من تلك المســـؤوليات لمدير المدرسة ولجهات أخرى، ويقتصر دوره على الإشراف الفني الذي هو لبُّ رسالة المدرسة، وتلك وسائل لهذا المعنى الكبير فحسب.

تطوَّر دوره الإشرافي وركَّز على واقع طلابه وأثر المدرســـة في تأهيل أولئـــك الطلاب تربويـــاً وفكرياً وسلوكياً، حتى إنه دخل ذات مرة على أحد الزملاء في فصله وتأثر بمشاهد المخلفات في الصف، وطلب من الطـــلاب أن يجمعوا كل تلـــك المخلفـــات قبل بداية



الدرس، وذكَّرهم بأدوارهم التربوية والسلوكية، وخرج دون أن يناقش مسألة علمية، وقال لزميله بعد ذلك: لا قيمة لدرس لا أثر له في سلوك المتعلمين، وكل زمان تقضيه من عمرك في تكرار محفوظ لا يتحوَّل إلى تطبيقات عملية في واقع أبنائك وطلابك فلا مفروح به في شيء. وكثيراً ما كرَّر هذه الصور، فكان مرة يتابع كتب الطلاب وعنايتهم بها، وتارة يناقش الطلاب والمعلم في تلك العبارات المكتوبة على طاولات الصف، ويرى بأن هذه صور لأثر الأفكار والمفاهيم والتصورات في حياة أولئك الطلاب.

- كان يأتي لتلك الأهداف التي دفع بها مبكراً لزميله فإذا وجدها لم تنضج بعد عاد إليه مرة ومرتين وثلاث، حتى يتأكد من نضجها وأثرها في سلوك طلابه مع الأيام.

- كان يرى وما زال أن الكتاب المقرر للطالب وليس للمعلم، وأن دور المعلم فقه الهدف العريض من الدرس والتركيز عليه وإشباعه، وما بقي تتم قراءته قراءة جماعية أو فردية ويدار فيه النقاش، ولهذا



المعنى دخل ذات مرة على طلاب المرحلة الابتدائية في أحد الصفوف وأخرج طالباً وطالبين وثلاثة وسألهم عن كيفية التيمم، وكان هذا الذي يشغله في كل درس ويرى أن كل ما عداه مجرد وسائل فحسب، فسأل أحدهم وطلب أن يريه كيفية التيمم فمسح وجهه ويديه ثم توقف، فقال له: وقدمك؟ فتدارك الطالب نفسه ومسحها! فنظر إلى زملائه وحكَّمهم فيما فعل زميلهم وبيَّن له وجه الخطأ الذي وقع فيه، ثم أعاد طريقة السؤال مع آخرين حتى اطمأن على متانة المعلومة التي وصلت إليهم من خلال ذلك النقاش، فقال المعلم مناقشاً له: إن الطالب حكى لك الصواب وتيمَّم بصورة صحيحة، ولكنك نهرته وخاف فمسح قدميه، فقال له: صدقت، ولكن أحتاج منك في المرات القادمة أن تؤهله حتى يصبح بطلاً شجاعاً لا تثنيه الرجال عن الحقائق التي يحملها، ويقاتل دون المباهج التي وصل إليها، ولا يؤمن بعوارض الطريق، فرقٌ يا سيدي بين إيصال معلومات عارضة وبين بناء منهج أصيل، وتأهيل نفوس قادرة



على النضال من أجل الحـق الذي تحمله والمعارف التي تمتلكها، علِّمْ أولادك يـا صديقي أن الحق كلٌّ لا يتجزأ، واصنع منهم رجـالاً، واجعل مواقف هذا الدرس تمتيناً لشخصياتهم في قراراتهم مع أصدقائهم وزملائهم في مستقبل الأيام، والمهارة التي تبنيها من خلال الدرس أثمن ألف مرة مـن معلومات عارضة لا تثبت مع أول النقـاش، ودور المعلم أجلُّ من أن يمضي في تكرير معارف يستطيعها العوام.

دخل ذات مرة على طلاب الصف السـادس في يوم أقيمت فيه صلاة الاستسقاء فسـأل الطلاب قائلاً: ثارت مشـكلة اليوم في مصلى من مصليات المدارس ويحتاجون حلاً شـرعياً، فهل تتبرعـون؟ فقالوا كلهم بلسان واحد: نعم، قادرون على الجواب. فقال لهم جاء المؤذن في صلاة الاستسقاء فأذن، ولما جاء الإمام قال له: ليس في صلاة الاستسـقاء أذان، وإنما تنادي عدداً من المرات (الصـلاة جامعة)! فما رأيكـم: الحق مع المؤذن أو مع الإمام؟ وتعمَّـد أن يكون كلا الخيارين خطأً، فإن صلاة الاستسـقاء ليس فيهـا أذان ولا نداء



(الصلاة جامعــة)، فافترقــوا كما توقع إلــى نصفين: النصف الأول منهم: يقــول الحق مع الإمام، والنصف الآخر يقول الحق مع المؤذن، وهو يــدرك أن المعلم شــرح هذه المفاهيــم والمعانــي، ولكنــه ككثير من المعلمين يمرِّرون المعلومات ولا يخلقون منها مواقف للتفكير! وما حاجة أبنائنا إلى شــيء حاجتهم للتفكير الحر والخروج من الصندوق، ودفــع الروتين الممل، وصناعــة جرأة على الأســئلة وإثارة مواطــن الإبداع، فيــا رب هيِّئ زمانــاً ممتلئاً بهــذه المعانــي في واقع المعلمين.

ما زال يؤمن بأن طلاب اليوم يعيشــون شــتاتاً كبيراً، ويتناوب عليهم عشرات المعلمين، وكلٌّ يريد منهم أن يســمعوا ويفقهوا ويفهموا فــي ذات الوقت على تباين المواد التي تصلهم، ولا ســبيل إلى ذلك إلا بشــيء من التركيز، وذلك بأن يضع المعلم عينه على الأهداف الكبرى من الدرس والجوانب التطبيقية بالذات، ويعيد ويكرر عشــرات المرات ما يريد ثباته في عقولهم، وينوِّع الأســئلة والتطبيقات التي تصل



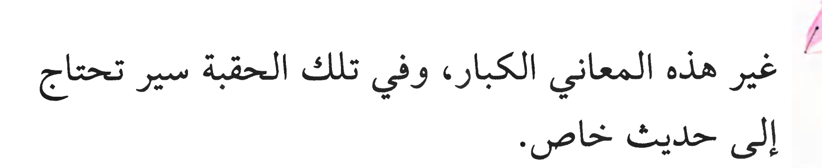
بهم إلى فقه المفاهيم التي يراد لها الحياة في واقعهم، وبغير هذا الطريق إنما يزيد في المسافة الحائلة بينهم وبين ما يريد.

كان ذلك القائد الملهم عطية العقيلي يهبك العمل بكل ما فيه، ويزرع فيك الثقة بكل فصولها، ويدرِّبك على أن تخوض غمار العمل دون نزاع في فكرة أو طريقة! وهذه صناعة الكبار فحسب، فأين أنت يا زمان الحياة؟! وفي الوحي: «**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»[1].

تقاعد الأستاذ عطية العقيلي في نهاية (١٤٢١هـ) ليحل مكانه الدكتور علي إبراهيم الشيخي والذي لقيه أولاً طالباً في المرحلة المتوسطة، ولقيه ثانية زميلاً في مدارج مركز الإشراف التربوي بحلي ليأتي على ذات الخطوات، ويصنع جمالاً وألقاً في إدارته، وما فتح الله تعالى على أستاذه شيئاً ما فتح عليه في الأخلاق! وهو في ذات الوقت عند كلمته، صلب وصادق، وواضح جداً، وجاد في عمله، ولا يعرف

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩).



غير هذه المعاني الكبار، وفي تلك الحقبة سير تحتاج إلى حديث خاص.

نُقل أستاذه علي إبراهيم الشيخي بعد ذلك مديراً للإشراف التربوي بالمحافظة، وتولى المسؤولية بعده أستاذ الأخلاق والحلم وسعة البال أحمد بن عمر الفقيه رحمه الله تعالى، فلله ما أوسع خاطر ذلك الرجل! وما أطول صبره! وفي الوقت ذاته ما أعظم حياءه! وما أكثر ما أدار نقاشاً معه في جملة قضايا معترضاً ومخاصماً، وكان كثيراً ما يسعه بحلمه وعقله، وكم هي المواقف التي تعلمها منه، ومنذ رحل من الدنيا وهو يدعو له حتى لحظة هذه الأسطر التي يخطها قلمه في كتابة ذكرياته.

تحوّل بعد ذلك إلى التدريب التربوي عام (١٤٢٥هـ) مع رفاق الدرب الأستاذ غازي الفقيه، وابن الخالة إبراهيم الفلاحي، وأبي عبد الله حامد المنتشري، وأبي عماد عمر الراشدي، ومناجي الغبيشي، وأبو بكر الزبيدي فيا سقى الله تلك الأيام! كان الأستاذ غازي رئيساً لقسم التدريب في تلك الفترة وبقي معه زمناً، وكان صادقاً جاداً في عمله، وكانت



أجواء الرفقة في أجمل معانيها، وإذا لقيت في عملك من يملأ مشاعرك جرت الحياة في قلبك كما تشاء! ثم افترقوا بعد ذلك وكلٌّ ذهب إلى عمل آخر، واستمرت صحبة أبي عبد الرحمن مناجي الغبيشي رحمه الله تعالى، فلله ما أعذب قلبه! وما أجمل مشاعره! وما ألذ صحبته! وما أروع أيامه التي عاشها معه في تلك الأيام! فهل يحدثك عن جمال قلبه وسلامته ومشاعره؟ أو يحدثك عن مزاحه الذي لا يكاد ينفك عنه يومياً في حياته؟ أو يحدثك عن تلك الأسرار التي كان يجود بها لصاحبه ويشاوره فيها كل حين؟ عاش رحمه الله تعالى خفيفاً ولطيفاً، ومات رحمه الله تعالى كذلك خفيفاً لطيفاً! ولن يحدثك عن فاجعة موته على قلبه ومشاعره، ولكنه قضاء الله تعالى وقدره، والحمد لله تعالى على كل حال، مات رحمه الله تعالى على سرير نومه، وتوجه ليلة موته مبكراً لجنازته كغيره من تلك الجموع التي توافدت على جنازته، ودخل عليه قبل صلاة العصر وهو في مغسلة الأموات وقبَّل جبيناً جرت له معه تلك الحكايات، وكتب تلك الليلة أسطراً في وداعه رحمه الله تعالى تحت عنوان: (ورحل

صفي الروح) قال فيها: ودَّعْنا هذا المساء (١٤٤٣/٧/٢٣هـ) رفيق الروح والقلب والمشاعر، صديق العمر، صافي الود، وطاهر القلب أبا عبد الرحمن مناجي الغبيشي، فرحمك الله يا أبا عبد الرحمن وأسكنك فسيح جناته، وإنا لله وإنا إليه راجعون. زاملتك يا خليل الروح ما يزيد على عشر سنوات في الإشراف التربوي والتدريب التربوي في حلي والقنفذة والقوز، فلله ما أعذب صفاءك! وما ألطف روحك! وما أجمل مشاعرك! وما أبهج خاطرك! وما ألذ مزاحك! وما أكرم نفسك! عن ماذا أتحدث يا صديقي هذا المساء؟ عن صدقك الذي لم أعرف غيره على طول عشرتك، أو أتحدث عن صفائك الذي لم يخالطه شيء كل ذلك العمر، أو أتحدث عن نصحك لصديقك تارة حين تراه يقف موقفاً لا تراه أنسب له، أو يلبس لباساً لا يروق في عينك، أو يصنع قراراً وترى غيره أولى منه؟ وها أنا يا أبا عبد الرحمن أعترف بعد طول زمن أنك كنت ناصحاً أميناً وصادقاً صافياً، ولو لم يكن إلا ذلك



لكان طوقاً في عنق صاحبك ما بقي به العمر! ما زلت يا صديقي أتذكر هداياك التي تطوّق بها صاحبك في كل حين، وكلما حاولـــت أن أرد دينك أقبلت بمثلها، حتى والـــدي يا صديقي شـــكوت لـــه ذات مرة غلبة جميلك وفضلك فشـــاركني رد الجميـــل. لله يا صفي الروح كم هو حديثك عن القيم والبنـــاء والتربية في تلك المواقف الطويلة! وكم هي أمانيك لأجيال الغد القادم فـــي كل مرة! وكم هي الشـــواهد التي تحفظها دفاتر الزيارات في الميدان التربوي وأنت تذكّر وتبني وتنصح وتؤكّد لكل من يقرأ حرفك أن تربية الأجيال أولاً وقبل كل شـــيء. وكم هي المعارض واللقاءات التي ناضلت يا صديقي من أجلها حتى جرت أحداثها في الواقع كما تشاء. لله يا ســـلالة الروح ذلك القلب الذي أعطـــاك الله تعالى، فلا تـــكاد تختلف مع أحد، وتتحمل أعباء ما يصل مشـــاعرك، وتترك للزمن محو تلك الصـــور، وتعود تعـــذر غائباً، وتفتـــح أبواباً من الحياة للمتخلفين. يا رفيق الدرب: كم هي الرســـائل والصور التـــي تأتيني منـــك وأنت تمـــازح وتداعب

وتصنع نكاتاً مشــاعرية على مواقف حاضرة ومواقف تستدعيها من الذاكرة، ومواقف تبني لها صوراً لتقيم عليها مشــاهد من المشــاعر تطيل بهــا التواصل مع صاحبك كل حيــن! ما زلت أذكــر ـ يا رفيقي ـ تلك اللقاءات التي تمت في مــدارج مكتب التعليم بالقوز على وجه الخصوص، ودارت فيها فصول من الأماني قلَّ أن يمحيهــا الزمان من ذاكــرة صديقك، فيا لهف قلبي علــى أحاديثك وشــجونك وذكرياتك! يا بهجة الروح والقلب: من سيماكسني بعدك في أفكاري كل صباح؟ من ســيتابع حرفي فيخلق منه مباهج للمزاح ومشــاهد للمداعبة ومســاحات من اللقــاء؟ قل لي يا صديقي: من يأتي لنا بلحظات الضحك وهي غائبة، ومشــاهد الفرح ونحن في أضيق الظروف؟ يا صفي الروح: كم كان خبر رحيلك مدوِّياً في مشاعري! وكم هي وسائل التواصل الاجتماعي التي حملت صورتك مترحمةً وداعيةً! ولو أنك رأيــت بعضاً منها لأدركت ما لك في قلــوب العالمين. وداعــاً يا صفي الروح، واللقاء بإذن الله تعالى في جنان الخلد.



ودَّع في هذا العام الأستاذ إبراهيم بن علي الفقيه من إدارة التعليم متقاعداً، ولا أنسى ذات يوم قال له ولجملة رفاق مازحاً: شــرقت الشمس لأول مرة وأنا في بيتــي من ســنوات طويلة وقلت لزوجــي: اليوم لا سلطة لأحد عليَّ ولا يستطيع أن يكلمني أحد، أنا اليوم حر طليق من كل شــيء، فقالــت له: صدقت، ولذلك أســطوانة الغاز الفارغة تنتظــرك، فأعانك الله تعالى على حملها وتعبئتها إذا كنت تريد إفطاراً!

خلفه على رئاسة إدارة التعليم: الأستاذ بلغيث بن حمد القوزي، وبدأت رحلة جديدة على مستوى إدارة التعليــم، وبدأ هو فــي مجالــه وشــغفه (التدريب التربــوي)، وثمــة موقف في هذا الشــأن يســتحق التدوين: قبيل هذا الانتقال للتدريب ـ وهو في عمله الإشــراف التربوي ـ وصل خطاب لــلإدارة وفيه أن دورة في المدينة النبوية في ضبط القرآن الكريم وأخذ إجازة في ذلك، فهبت رياح الشوق في مشاعره، دورة في كتاب الله تعالى وفي المدينــة النبوية! ورآها كل شيء، وتمنَّى وســأل الله تعالى أن ييســرها، وكانت

مشـــروطة باجتياز اختبار في الحفظ وقد بلغه الخبر قبل أسبوعين، ولا وقت للمراجعة، وذهب مع زميل أضبط منه، وما زال يذكر أنه سُـــئل في سورة يونس الســـورة التي لم يكـــن يضبطها بصـــورة متقنة تلك الفترة، واكتُفِي منه بذلك، فاجتاز زميله وعاد هو دون شـــيء، وتمنَّى الأماني وظن أن التوفيق خالفه، وأن هذا الطريق هو الأصلح لمستقبله، وفاته أن الله تعالى يختار لعبده الأصلح والأجمل والأدهش في كل حين ولو تركه لنفسه لضاع، كان من شـــروط القبول أنك تؤدي ســـنتين بعد الدورة على الأقل في الإشـــراف التربوي، وفتح الله تعالى آفاق التدريب في ذلك العام ولو قُبل في تلك الدورة لفاتته الفرصة في مجال يحبه ويعشـــقه ويتمناه، فعرف فيما بعد أن الله تعالى حرمه من تلك ليسعده بهذه، وفوَّت عليه تلك الآمال ليبقيه في ربوع ما يشتهي ما بقي من العمر، وطال به زمان فعرف أنعـــام الله تعالى لعبده وفضائله عليه وحســـن اختياره له، وتأكد له ذلك حين قرأ كلاماً نفيساً لابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه النفيس (مدارج السالكين) حين



قال: وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله. اهـ.

كانت تلك السنوات التي قضاها في التدريب أجمل سني عمره في العمل ولا يعادلها عنده شيء إلا الخواتيم التي قضاها في مشروع القيم النبوية - كما سيأتي - لأمرين اثنين، الأول: أن هذا هو توجهه ومجاله الذي يستطيع أن يعرض من خلاله مفاهيمه وأفكاره ومشروعه الشخصي، والأمر الآخر أنه سلم من تبعات الإشراف والزيارات ولقاء المثقلين باليأس والمحبطين من واقع العمل في كل يوم، فتخفف بذلك من الرهق النفسي، ووجد معيناً صافياً من اللذات، وما هو محدثك عن شيء في هذه السنوات

كما يحدثك عن الكتب التي قرأهـا والدورات التي حضرها، واللقاءات التي صنعها، وتعلّم منها في وقت وجيز ما لم يكـن إدراكه في أزمنـة طويلة، فقد كان يقضي يومه كله فـي القراءة والتلخيـص والتدريب وتحصل على شـيء كبير، ومن ذلـك التاريخ إلى يومك هذا والتدريب بوابته التي يقدم منها ما يحمله من أفكار ومفاهيم وتصورات.

من هذه المسـؤولية بدأت قصة التدريب وألقى أول دورة: (صناعـة الحياة) وتعـرف على التدريب والمدربين والدورات وبدأ يسافر هنا وهناك ويحضر ويشـارك، وكان حضوره لتلك الدورات مختلفاً عن كثير من الحاضريـن، كان لا يحضر إلا في الدورات التي تمـس روحه ومشـاعره كإدارة الحيـاة، وإدارة الأولويـات، وإدارة الوقت، والتخطيط الشـخصي، وما يجري في فلك هذه العناوين فحسب، وإذا حضر دورة من هذه الدورات لا يخـرج منها إلا وقد كتبها ولخّصها وسجّل مواقفها وعرف منها وفيها كل شيء، للدرجة التي يمكنه أن يعيدها بكامل تفاصيلها، كما



يفعل مع الكتب تمامـــاً؛ فإنه إذا وجـــد كتاباً ولذَّ له وعانق مشاعره لخَّصه واختصره، وأخذ منه كل شيء، وجعله مُلْكاً له في مستقبل الأيام.

حاول تلك الفترة التـــي قضاها في التدريب خَلْق مفاهيم جديـــدة في العمل وبناء قيـــم متينة من خلال الحرص على الحضـــور المبكر وإقفال باب القاعة في الوقت المعلن عنه، ولكنها في الواقع لم تصنع جديداً لاختلاف الرؤية فيما بينه وبيـــن الحاضرين فهو يرى بأنهم قدوات، ومثل هذه القضايا تذكير لهم بالغايات التي يعيشـــون لها، وهم في المقابل يعانـــون إحباطاً ويأساً كبيراً في عملهم، وبينهم وبينه آماد وآمال، وفي ذات الوقت هو يمارس دوراً فردياً لا يقوم به أحد من زملائه فـــي ذات الدائرة، والأعمـــال الفردية مهما بلغ شأنها وسمت غاياتها الكبرى لا تخلق ما يريد ولو دفع صاحبها من أجلها كل شيء.

تلك الفترة التي قضاها في التدريب تولى إدارة التعليم الأستاذ بلغيث بن حمد القوزي، وكان شجاعاً جريئاً متحمســـاً قادراً على صناعة القرار، كان مثالاً



للحريات التي يتحدث عنهـا الكبار، لا يلتفت مهما كانت الدواعي، يكره الروتيـن، ويصنع الحدث في كل زاوية يشـغلها، ولا يبالي بحـوادث الزمان بعد ذلك، لا يعرف التردد، يكتب خطابـاً ويصنع قراراً، وإذا اكتشـف أنه خطأ بلَّه بالماء وألغـاه في لحظته، يكتب قـراره الذي يريد على كرسـيه، وفي الطريق، وفي جنبات المدرسـة التي يزورها، وهو واحد من خصوم الروتين في زمانه.

حيـن تولى الأسـتاذ بلغيث بن حمـد القوزي مسـؤولية إدارة التعليم فـي القنفذة جـاء إليها وهو يحمل بعضاً من التصورات المسبقة، وأخطر ما على الإنسـان ما يرد إليه من أفكار وتصورات، فوقف في أول لقاءٍ جُمِع فيه جمعٌ كبيرٌ مـن مديري المدارس ومديـري الإدارات علـى مسـتوى إدارة التعليـم والمشرفين التربويين على مختلف تخصصاتهم، وقال ضمـن كلام طويل فـي كلمتـه الافتتاحيـة يُعرِّض بآخرين: كلما جئنا بقضية أو رأي قالوا ممنوع لسـد الذرائع، سـد الله حلوقهم! فما تمالك نفسـه ووقف



وســط تلك الجموع ورد على أستاذه وذكَّره بأن هذه قاعدة شرعية وأصلها في الوحي، ولا ينبغي أن تمتهن لموقف غضب أو تصورات خاطئة! وظن كثيرون أن هذا الموقف جالب له الندم والحســرات في مستقبل الأيام وخــاب ظنهم، فقــد زادت الصلــة وتعمَّقت، والشــجعان تعجبهم مواقف الرجولة ويشــرفون بها ويجعلون منها ســلماً للحياة، وقد جــاء المدير مرة أخرى بعد ذلك اللقاء في اجتماع آخر في مســاحات مركــز الإشــراف التربــوي بحلي بحضــور مديري المدارس فالتفت بعد نهاية كلمته وسأل عنه: هل هو موجود؟ وهل لديه رأي مخالف؟ قالها مازحاً مداعباً!

حــاول تلك الفتــرة أن يمد في أثر القســم من خلال (التدريب عن بعد) الذي أصبح اليوم كل شيء واقترح الفكرة، ووضع لها عرضاً يتناســب مع عمل المعلم، وكيف يتم تقييمــه في النهاية ولكنها لم تلق رواجاً عند المســؤولين عن التدريب تلك الحقبة من الزمن، والروتين أعظم خصوم الإبداع على الإطلاق، حتى جاءت أزمة (كرونا) المرض الــذي عمَّ العالم



بأسره عام (١٤٤٠هـ) وتوقفت معه الحركة العالمية في كل شـــيء، وأقفلت المســـاجد والمدارس وتعطلت المطارات، ففتـــح الله تعالى للتعليم عـــن بعد بوابته الكبرى على كل المستويات فأخذ حظه وما زال!

- امتزجت حياته بالتدريب منذ تلك الفترة (١٤٢٥هـ) إلى يومك هذا فلم ينفصل عنه مطلقاً، والتجارب تخبرك أن ثمة فرقـــاً بين عمل وعمـــل، وتخصص وتخصص، ومجال وآخر، وفرق بين أن تعثر علـــى هوايتك وفنك ومجالك وبين أن تكون أجيراً ينتهي يومك عند ســـاعة محددة، ثم لا علاقة لك بما كنت فيه حتى تعود.

- المجـــال والتخصـــص والشـــغف ومشـــروعك الشخصي لا يمكن أن يتخلَّف عنك في عملك أو في بيتك، فـــي الصباح أو المســـاء، في حضـــرك أو في سفرك، وإذا لم تجد روحك في تخصص أو مجال أو فن فدعك منه، وما لك وللهموم!

- في عام (١٤٢٧هـ) تم تغيير المســـؤولين على مســـتوى الوزارة وبدأت وزارة جديدة، والمشكلة الضخمة التي تواجه هذه المؤسســـات أنه ليس لها



خارطة للطريق، وإنما كل مسؤول يلقي بمعارفه وأفكاره ومفاهيمه بمعزل عن كل من سبقه، ويبدأ رحلة مفاهيمه الخاصة وأفكاره الطارئة وتصوراته المسبقة بدليل تلك النتائج التي أفرزتها الإدارة الجديدة، فقد قُضي على التدريب وأغلقت مراكزه وعاد جملة كبيرة من الزملاء إلى المدارس، وكان هو ممن شملتهم تلك القرارات فترك مركز الإشراف التربوي في حلي، وانتقل لإدارة التعليم في الفصل الثاني من عام (١٤٢٧هـ) مشرفاً للتربية الإسلامية، وكان ذلك الانتقال بناءً على رأي مدير الإدارة في تلك الحقبة الأستاذ محمد بامهدي، فجزاه الله تعالى خيراً.

في العام التالي (١٤٢٨هـ) أُفتتح مكتب التربية والتعليم بالقوز وتحوَّل إليه مشرفاً للتربية الإسلامية، وكان على رأس هرمه تلك الفترة حمد محمد الشقيفي، وبقي فيه إلى عام (١٤٣١هـ) فتجددت فيه الروح بفضل رفاق الدرب وعلى رأسهم مدير المكتب، وقد كان يزيِّنه حلم كبير، وتؤدة رائعة، وقلة حديث، وصبر



طويل، وثقة في أصحابه وأعوان المشروع، وهذه قلَّ أن تجدها إلا في الكبار! وللمسؤوليات طبع لئيم من كبر وفوضى وكثـرة حديث وهمٍّ مسـؤولية، وكلها لم تلق رواجاً مـع صاحبه في تلك الفتـرة، والرجال مواقف، والكبار يصنعون فارق الأحداث!

تُعد هذه الفترة بالذات منعطفاً جديداً في حياته فقد عاد وتغيـرت لديه جملة مـن المفاهيم، وبُنيت لديه في المقابل مفاهيم أخـرى، وتأكَّد له من خلال تجربـة طويلة أن الأخـلاق هي التي تصنـع أثرك، وتكتب حظك، وتعين على بلوغك أمانيك، وإذا رُزق الإنسـان همَّةً وإرادةً ووضوحاً في أهدافه ومشاريعه وتزيَّن بالأخلاق جرت له الحياة كما يشاء.

في آخر عام (١٤٣١هـ) تفرَّغ لمشروع القيم النبوية بناءً على رغبة الكبير في قيمه ومبادئه مدير إدارة التربية والتعليم سـعادة د. محمد إبراهيـم الزاحمي في تلك الحقبة، والقادة يحسـنون التركيز على المشاريع التي تصنع التغيير، ويعتنون بالقيم والمثل، ويرون أنها هي كل شـيء، وهذا القائد فتح الله تعالى له فصنع طريقاً



واسعاً للمشـــاريع الرائدة، ومكّن كل حريص من أداء أدواره التربويـــة في أجـــواء من الثقة، وحســـن الظن، والتشـــجيع، وهو من تلك القلة التي تحسن فن العمل والتخطيط، والمبادرة، ولولا أنه لقـــي إرثاً من روتين السنين في زمنه لصنع للتعليم أكبر مما تراه في زمانك.

كان مديـــر التعليم د. محمـــد إبراهيم الزاحمي يملك رؤية واضحـــة ركّز من خلالها على مســـارين اثنين، المســـار الأول: العناية بالقـــراءة والكتابة في الصفوف الأولوية، فهيأ لها مشروعاً، وصنع لها نظاماً وظل مصـــراً على بلـــوغ أمانيه من ذلك المشـــروع، وتحققت له أشـــياء ما كانت على البـــال، وأوقفه في النهاية مضطراً لانحرافه عن مساره وتحوُّله عن فكرته ومناهضتـــه للقيم بعد أن كان كل شـــيء، والمســـار الثاني: التركيز على بناء القيم وجعلها أولوية، فقد بدأ المشروع في إدارة التعليم بمكة في الحقبة التي كان يرأســـها ســـليمان بن عواض الزايـــدي رحمه الله تعالى على يد صاحب المشروع الأول: الأستاذ حسن الفلالي تحت عنوان: (مشروع القيم النبوية) وكَلَّفه مع بعض الرفاق

بزيـارة التجربة فـي مكة، وتـم تقديـم تقرير عن المشروع وأثره الإيجابي، فأوكل إليه القيام بالمشروع في محافظة القنفـذة وفَرَّغه لهذه المهمـة، وفتح له الطريق، وصنع لـه كل ما يملك من سـبل النجاح، وبدأت الحياة.

تفرغ للمشـروع وتوجه إليه بقلبه ومشـاعره، وسـافر، وعاد، وكوَّن أعواناً على مستوى الإشراف ومديـري المـدارس، وقامـت مشـاريع للتدريب والتأهيـل، ونجـح المشـروع وخلق فـألاً جديداً وخرجت نتائـج مبهجة، وكوَّن نجاحـات لم تكن على البال، وبقي ثلاثة أعوام متتالية ذاق فيها طعم النجاح وقد فقـده منذ زمن، ودمعـت عينه بأفراح الواقع بعد أن كادت تصـاب بالجمود! فيا لله على تلك السنوات التي عاشها! والتجارب التي خاضها! والمعاني التي لقيها! وقد بكى مـراراً، وعاش لذةً كان يشتاق لها من زمن طويل، وأدرك أن القيم كل شيء، وأن التعب والعناء في سبيل بنائها أثمن ألف مرة من كثير من الجهود.



في مرات كثيرة يأتي نجاحك من أعوانك، وقد رزقه الله تعالى في تلك الفترة التي أشرف فيها على مشــروع القيم بالأخ الفاضل إبراهيم علي المعشي، نشيطاً في عمله، دؤوباً في مساحته، وقد كان مشرفاً في النشــاط الطلابي وحُوِّل لصالح المشروع، وكل ما جرى مــن نجاحــات كان بعد فضــل الله تعالى بجهده ودأبــه وحرصه وانضباطــه، وكم حرص أن يصحبه في مشاريع العمل الخيري ويمد في أثره في تلك الساحات، ويســتثمر فيه تلك القدرات، ولكنه عجز عــن إقناعه لذلــك الدرب الطويــل، والناس طاقات، وحسبك منه ما فتح الله تعالى له ولا تكلفه بعد ذلك بشيء.

كانــت المدارس مختلفــة ومتباينة فــي العناية بالمشــروع لأمرين اثنيــن، الأول: وجــود قائد يفقه موقعه، ويدرك أثره، ويعرف أولوياته، ووجد المشروع فكــرة ملهمــة لتحقيــق كل ما يريد فدعمــه بالمال والرجال حتــى أتى من خــلال ذلك علــى أمانيه، والثاني: وجود مشرف للمشــروع في تلك المدرسة



ملهم وصاحب قضية، ويدرك تبعات العمل، ويحتسب جهده عند الله تعالى، وقد أفرز المشروع طاقات تعمل بكل ما تملك دون أن يخفف عنها شيء من أعباء الحصص والإشراف، ورصدت نجاحات لبعض المدارس فوق العادة، ومن عرف أثر المشروع على طلابه وتكوَّنت لديه الرغبة الصالحة للبناء صنع كل شيء.

من توفيق الله تعالى لمدير التعليم د. محمد إبراهيم الزاحمي في تلك الفترة حرصه على التركيز، وتعزيزه لمفهوم (إدارة الأولويات)، فقد كان المشروع يخرج من مكتبه مباشرة، ويتولى الإشراف عليه والسؤال عن تفاصيله ويسأل عن واقعه، ورفض أن ينضم إلى قسم آخر، وكان مدير التعليم نموذجاً في حرصه على الوقت وانضباطه فيه وحض الآخرين على تمثل هذه الفضيلة، وهو من المبادرين إلى الصلاة، ويحرص على إدراك تكبيرة الإحرام، ولو أنَّك سبرت حال كثيرين في أقل من هذه المسؤوليات لرأيت كم هي خسارتهم في هذا الباب! فجزاه الله



تعالى ما جـزى مصلحاً ومربياً عـن أبنائه، وكم من صيد ثمين يرجـو الله تعالى أن يجري لـه أجره في ساعات الحاجات، والله المستعان!

كم مـن المصلحين في مثل هذه المسـؤوليات ضاعوا في مسـاحات الروتين وأصبحـوا عبيداً له، وتحوَّلت هموم الواحد منهم لطلب السلامة، فلا هم الذين تركوا هذه المسؤوليات لأهلها والقادرين على صناعة الفأل فيها، ولا هم الذين سدوا ثغراً عن الأمة وخلصوهم من فروض الكفايات!





قصة التقاعد

(إذا لم يكن لك مشروع عمري تتوجه إليه في باكر حياتك فليس من شأنك اتخاذ هذا القرار في باكر حياتك وعملك)

قرر التقاعد في (١٤٣٦/١/٥هـ) لأن ستة وعشرين عاماً في العمل كانت كافية من وجهة نظره في أي مساحة، ومن حقه أن يتحرر بعد هذا العمر الطويل، والحرية لا يعدلها شيء!

اتخذ هذا القرار لأن العمل مع كل ما فيه من أثر إيجابي وقف حائلاً دون مشاريعه الأخرى، وأراده أن يكون أسيراً في ساحته، وعبداً في مجاله، وأراد هو أن يجرِّب ساحات الحرية مكتملة ومجالاتها وافية وأحداثها كاملة قبل فوات الأوان.

كانت الفترة التي قضاها في التعليم حافلة بالعمل والبناء، وحاول جاهداً تلك الحقبة من الزمن



أن يترك أثراً، غير أن تبعات التعليم كثيرة ومسؤولياته متعددة، والمشاركون فيه مختلفون في الفكر والثقافة والتوجهات، ويعتقد أن كل المشـــاريع ـ أو أكثرها ـ التي خاضها كان يعرف واقعــه وأثره فيها إلا التعليم فإنه يرجو الله تعالى أن يلقاه يوم القيامة وهو خفيف الظهر من مسؤولياته وتبعاته.

التقاعد في سن الشباب غريب، وفي بيئاتنا أشد غرابة، وقد لقي قــراره رفضاً من الأهــل والمقربين وزملاء العمل، وظل الســؤال الذي يطــارده في كل لقاء: هل لديك فرصة ستتوجه إليها غير التعليم؟ لأن لغة المشـــاريع لم تأخذ حظها في الواقع بعد، ولكنه صبر وأصرَّ على القرار، وكان يعتقد أن الحياة محاولة جريئة أو لا شيء، وصار إلى ما أراد، وفتح الله تعالى بقراره هذا فتوحات لم تكن له على بال، وإذا أراد الله تعالى لطفاً بعبــده صنع له الأســباب، وهو المعين والموفق على كل شيء.

في بدايــة القرار أخذ رأي والديــه وأقنعهما بأن ذلك في مصلحتــه الكبرى فوافقا علــى ذلك القرار،



ثم تنبه أخوه فايز عبد العزيــز الفلاحي متأخراً فصنع كل ما يملك للوقوف أمام القرار خوفاً عليه من الفراغ، وكان كل تقديراته أنه مقبل على الضياع من خلال هذا القرار ونصحه كثيراً، ولمّا لم يجــد قبولاً لديه توجه إلى أمه فصوَّر لها ما ينتظره من مشكلات وأزمات في مســتقبله، فجاءت والدمع في مآقيهــا، وحاولت فيه بكل ما تملــك أن يوقف قــراره في ذلــك، فطمأنها ووعدها خيراً، وما زال يتردد عليها ويعرض لها تبعات ترك القرار وما ســيترتب عليه والفرص التي ينتظرها من خلاله حتى رضيت فتنازلت عن إصرارها وتركت له القرار، فأمضاه وبدأت مشاهد الجمال، وقرت عينها به، وهو معها كل يوم وفي أي وقت.

الوظيفــة رقُّ القرن العشــرين كما قــال العقاد! ولا يتصوَّر كثيرون أن تأكل قوت يومك حين تخرج من ساحاتها، وقد قال الأول: الوظيفة أمان من الفقر وحرمان من الغنى! وصدق ألف مرة.

تقاعد فاشترى راحته وسعادته ورزقه الله تعالى بالأخ وسيم صاحباً في طريق الأماني الطويل، جاء به سائقاً من

بلاد الهند فوجده أخاً يأسرك أدباً ونشــاطاً وأمانة وعفة وفهماً ووعيــاً، فلله ما أعظم أثر هذا القــرار على حياته فيما بعد! يسافر به كل مكان ويقضي له ما يريد، واستثمر وقته في ســفره وحله وترحاله، ومستعد ليدفع من أجل راحته واستثمار وقته وبناء مشروعه كل شيء، وما قيمة المال إذا لم يأتِ لصاحبه بهذه المعاني الكبار؟! ويعتقد أن العاقل ينبغي أن يشــتري مجده بــكل ما يملك، وقد رأى أمماً تجمع المال فتشح به على نفوسها وتتركه بعد الرحيل للنزاع والخلاف بين الوارثين.

تقاعد فاســتقبل يومــه كاملاً لا شــريك له فيه بالكلية! وتفرغ لمشروعه، وتفاجأ في النهاية أن اليوم كله غير كافٍ لحمل تبعات مشــروع العلم الشرعي، فضــلاً عــن أن يكون فــي رفقتــه مشــروع التنمية الشــخصية، ولو تفرغ للتأليف فقط في المشــروعين لاحتاج إلى أضعاف عمره، وكم من أمانٍ وقف الوقت حائلاً دون تحقيقها، ويا ليت الأوقات تُباع!

كان يومه قبل التقاعــد نصفين، نصفه الأول في العمل، ونصفه الثاني بين مشروعيه الشخصيين وبين

واجبات العمل الخيري ومسؤولياته، فلا يبقى له منه إلا النزر اليسير، ومع ذلك غالب ظروفه فكتب شيئاً، وصنع نجاحات، وحين تفرغ تحوَّل النصف الأول له بالكامل، فكانت الحكاية التي يقف القلم عاجزاً عن عرض مباهجها وآثارها في واقعه بعد ذلك الحين.

- استقبل أيامه الأولى بعد التقاعد بتراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأتى عليهما بالكامل في عام واحد، وأذهب عن نفسه الإرهاق الذي كان يلاحقه كلما سمع بأثر هذا التراث على قرائه وهو ينتظر فسحة الأيام، وتمضي السنون وهو لم يصنع فيه شيئاً حتى دبَّر الله تعالى هذا التفرغ فيسَّر له كل شيء.

- أدرك بتقاعده الحرية التي ينشدها الشعراء، ويكتب عنها المسجونون، وتتداولها أفواه الناس، ولم يشعر أنه كان مقيَّداً بصدق إلا في اللحظة التي سافر فيها من أجل مشروعه إلى كل مكان وبدون استئذان! ولا يخفيك سراً أيها الموظف الكريم أنه عاد كأبيه لا يفرح بإجازاتكم ولا يسعد بها، وقد تضايقه في مرات، ويرى أنها كثيرة ومضيعة للأوقات، لأنه بات



يسعده انشغال الناس بالعمل وانشغاله في ذات الوقت بمشروعه وفكرته وقضيته، وعرف حينها المثل الدارج القائل: الذي يده في الماء ليس مثل الذي يده في النار! سألني أحد الزملاء وهو في باكر عمره وعمله في التدريس في تلك الفترة التي اتخذت فيها القرار: متى تنام؟ قلت له: في الوقت الذي يدق جرس الحصة الثانية بالضبط! فقال: ولم هذا التوقيت؟ فقلت له: لأني أعرف حينها أنك بدأت رحلتك الحقيقية في العمل، فقال: وتشمت بنا؟ فقلت له: لا، ولكن من حقي أن أعيش كما أريد! وقد حاول جملة من الزملاء الأفاضل تلك الحقبة أن يتواصلوا معه لتقديم برامج صباحية للطلاب فقال لهم: كل شيء ممكن إلا أن أعود في الضحى إلى المدرسة من جديد.

عادت أيام الضحى في حياته من جديد، يصلي الفجر ثم يبقى في ربوع مسجده حتى الشروق فيصلي الضحى، ويأتي من خلال ذلك الوقت القصير على متعه من كتاب الله تعالى، وقد قال ﷺ: «**بُوْرِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُوْرِهَا**»[1]، وما هو محدثك عن النعم التي لقيها

---

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٥٤٠٩)، والطبراني في «الأوسط» (٧٥٤).



وما زال ينعم في مساحاتها، ويسأل الله تعالى ألا يحول بينه وبينها شيء. فما شعر ذات يوم في باكر التقاعد إلا وزوجه تناديه وتطلب منه أن يوصل ابن الجيران إلى مدرسته لأنه نام وتأخر عن حافلة النقل فبقي في مسجده حتى أتم الضحى ثم ذهب وأوصله، واستثمر هذا الحدث في تأهيل زوجه على المرحلة الجديدة قائلاً لها: إذا نام ولدك عن زمن الحافلة فدثريه بلحافه وليتمَّ نومه فلن أوصله إليها، ودَعِيْهِ يتحمَّل تبعات تخلفه، وجارتك مثلك تماماً، فوقت الضحى أثمن عندي من كل شيء، ولم أتفرغ من عملي لأتحول إلى سائق حافلة أخرى تحمل المتخلفين في كل يوم إلى مدارسهم. وقد عرفت جدية زوجها فما طلبت منه شيئاً بعد ذلك، وبقي ينعم في وقت البكور لا ينغِّص عليه تلك الخلوة أحد من العالمين.

كان وقت الضحى وما يزال مؤثراً ضخماً في إدارة أولوياته، فيصلي الفجر في جماعة ويدخل في عداد المشمولين في ذمة الله تعالى كما قال ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الفَجْرَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يُمْسِي**»، ويقرأ ورده من كتاب الله تعالى تاماً، ويصلي الضحى



ويعود إلى بيته والأفراح في قلبه تجل عن وصف قلم في هذه المســاحة، فكيف إذا قال لك: إن مشــروع حفظ القرآن وضبطه كاملاً تم في ربوع هذه المساحة مع ما بين العشائين!

ذات مرة لحظ على شــيخه الذي تعلم عنده في زمن مضى تفوقاً واضحاً في الاستشــهاد بالسنة على المسائل التي يعرضها من حفظه من دون أن ينظر إلى كتاب، فتواصل معه ذات مساء وطلب أن يفصح له عن ســرِّ هذا التميُّز، فقال له: لقد خصصت مساحة ما بين الفجر إلى الضحى لضبط وتكرار كتاب (بلوغ المرام) في فترة من عمري فأحفظ كل يوم خمســة أحاديث، وأكررها زمناً طويــلاً، وأجمع لهــا ما قبلها، ووردها ثابت في كل يوم، وآتي في المساء على مراجعة ذلك الورد وتثبيته فتحصَّل لي ما رأيت، للدرجة التي صار عندي ختمات لبلوغ المرام في الأسبوع!

يقول لكل قارئ لسيرته من خلال هذه الفصول: دونكم هذين الوقتيــن: (من الفجر حتــى الضحى، وما بيــن المغــرب والعشــاء) لمشــاريع الحفــظ

والمراجعة، وهي أوقات بسيطة جداً ولكنها مؤثرة في بناء آمالكم كما تريدون، فدونكم الحياة.

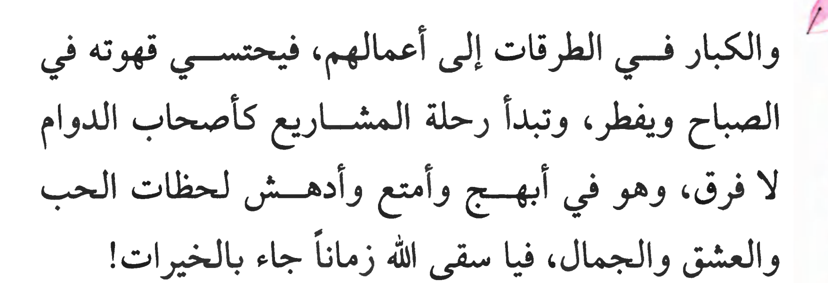
لقد بدأ قصة الضحى كما يبدأها أي إنسان، يبقى في المسجد بلا روح، ولكنَّه أصرَّ على عدم الخروج، وحاول أن يجرب عملياً السنة الإلهية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فأصرَّ على البقاء حتى عندما يسافر، وإذا عاد في وقت صلاة الفجر فإنه يصلي في مسجده، ثم يبقى حتى الضحى رغم طول مسافة سفره وتعبه وسهره إلا أنه كان يمنع الاستثناء في بناء العادات كما في كتابه (كيف تبني عاداتك الإيجابية؟)، ويحرص غاية حرصه ألَّا يدخلها التأجيل مهما كان الداعي إلى ذلك حتى بلَّغه الله تعالى أمانيه وعرف في النهاية آثار ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ على قلبه ومشاعره، حتى إنه يأتي للمسجد في مرات وهو يعاني من مرض أو إرهاق سهر أو تعب وعناء فلا يسمح لنفسه بالخروج ما لم يتعذَّر عليه ذلك بالكلية، وفي مرات يبقى جالساً في فترة الضحى كلها ولا يستطيع أن يقرأ آية من كتاب



الله تعالى حتى يحين شروق الشمس فيصلي ركعتين جالساً ثم يخرج، ولو رأيته حين يودِّع الضحى لسفرٍ أو لعــارضٍ ما وقلبه يتقطــع ألماً على فــوات لذته وذهاب شــهوته التي عاش فصولها فــي مثل ذلك المكان، وهو يوصيك ويرجوك يا طالب التوفيق ألا تبرح هذه المســاحة من عمــرك وإن كان الموضوع شــاقاً في بداية التجربة ومكلفاً في البدايات خاصة، ولكنه يجري في النهايات بأفراح قلبك كما تشاء.

عاش لفكرته الحية، وقضيته الكبرى (مشــروع العمر) كما أراد، وطاف بها أرض الله تعالى، وزار أكثر مدن هذه البلاد المباركة، وشــارك بهــا في الخارج، وازدحم جدوله بالمواعيد بعد التقاعد مباشرة للدرجة التي لم يتمكن مــن الوفاء ببعضهــا، وتمنَّى أن هذا القرار ســبق موعده وجاء في باكر الأيام، والحمد لله تعالى أولاً وآخراً، وهو المستعان وعليه التكلان.

كان يستيقظ قبل الفجر ويصلي بجماعة الحي، ويلزم المسجد إلى الشــروق لا تزحمه ســاعة عمل ولا موعد دوام، ثــم يعود إلــى بيته وهــو مفعم بمشــاهد الصغار



والكبار في الطرقات إلى أعمالهم، فيحتسي قهوته في الصباح ويفطر، وتبدأ رحلة المشاريع كأصحاب الدوام لا فرق، وهو في أبهج وأمتع وأدهش لحظات الحب والعشق والجمال، فيا سقى الله زماناً جاء بالخيرات!

قَسَّم وقته في بداية تقاعده من الضحى إلى الظهر في قراءة الكتب، ورسَمَ لها خطة ومنهجية، ووضع لها جدولاً، ثم يصلي الظهر ويبدأ مشاريع الكتابة إلى موعد الغداء، ثم ينام إلى صلاة العصر، ثم يعود إلى القراءة والكتابة من جديد، وهذا هو الأصل ما لم يعارضه اجتماع أو برنامج ومشروع. وكل مشاريعه أو جُلُّها انتهت من خلال هذا الالتزام.

كان يعود إلى بيته ويجد زوجه في انتظاره بفطورها، وكان يشترط في البدايات أن تنتظره وتفطر معه أو تشاركه مشاعرياً وبقي على هذا زمناً، ثم لطف بزوجه وقدَّر فيها هذا الوفاء فطلب منها أن ترتب فطوره ثم لها أن تنام بعد ذلك، ثم دخل مرحلة ثالثة بعد قناعاته الجديدة بقضية الصحة فتخلى فيها عن الفطور بالكلية، ويكتفي من ذلك بفاكهة ونحوها



وعاش خفيفاً مورقاً في جسده، وسهلاً لطيفاً مع زوجه وأهله، وجرت حياته بعد ذلك على اليسر في كثير من الأوقـات، وقد سـمع أحاديث كثيرة عن مشـكلات الأزواج بعد التقاعد ونزاعهـم في الصباح الباكر على تلك المعاني، وإن كان هو ليس مـن هذه الطبقة من الأصل، وهمومه أكبر مـن أن تجري في فصول طعام وشراب، ولقي مرة زميلاً أكبر منه سناً وصاحب دعابة وقد تقاعد، فسـأله: ما أخبارك بعد التقاعد؟ فقال له: إني مخبرك أنه لم يعد في كل الأسـواق التي بجوارنا شيء من (بسـكوت المداح)، لقد قضيت عليها كلها في ظرف أسابيع، وقد سلمتني الزوجة مسؤولية الأبناء فعدت كما أنا حين كنت موظفاً في الصباح الباكر وأنا أحملهم لمدارسهم وفي الظهر أعيدهم إلى بيتهم، هذه يا صديقي مشاهد التقاعد في حياة محدثك ولا جديد!

كان في بداية تقاعده يبدأ مشروعه في الصباح الباكر ويبقـى عليه حتـى الظهر لا يفارقـه مطلقاً ويقضي فـه الساعات الطوال، وأنجز في هذا الوقت جملة كبيرة من المشـاريع، وكان مقتنعاً تلك الفترة



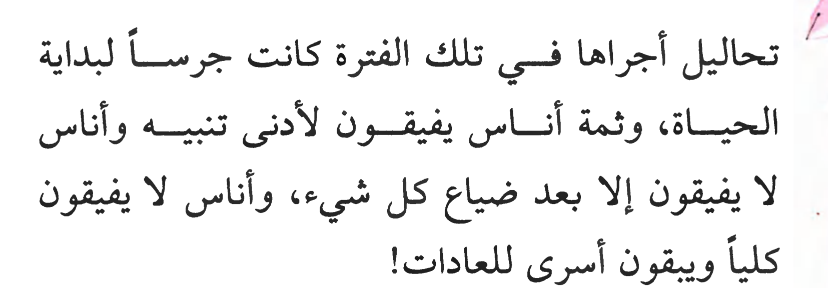
أن الجد والصرامة على الوقت هي السبيل لبناء مستقبله ولا سبيل للاستثناء، وليس للمجد إلا هذه المشاهد فحسب، وأخذ على ذلك زمناً ثم تغيَّرت تلك القناعات، وبدأ يرى أن هذا الجهد يمكن أن يثمر مشاريع، ولكنها قد تخلو من الإبداع للرهق الذي يعيشه في مكابدة تلك اللحظات، وأنه إذا أخذ قسطاً كافياً من النوم استطاع أن يركِّز ويصنع إبداعاً ملهماً فيها، وقليل من الوقت مع التركيز أعظم من وقت كثير بدونه، فكان تارة ينام حين يعود من الضحى، وتارة يعمل من ساعة إلى ساعتين على مشروعه، ثم يعود للنوم حتى قبيل الظهر، ثم يعود لمشاريعه إلى منتصف الليل، وما زال على هذا حتى كتابة هذه الفصول.

تغير جزء كبير من مفاهيمه في الجانب الصحي بالذات فتحول من عدم قناعة بكل ما يتعلق بالجانب الصحي وأنه مجرد ضياع وأوهام إلى ضرورة، فاقتطع لذلك المعنى من يومه وليلته وأصبح جزءاً لا يتخلَّف من برنامجه اليومي.



قرر أن يبدأ برنامجاً مرتباً في المشي فكان يمشي تارات قبيل الفجر إلى قرب إقامة الصلاة ثم يصلي الفجر ويبقى في المسجد يتم ورده من كتاب الله تعالى ماشياً بين جنبات المسجد حتى الضحى، والتزم بنصف ساعة في فترة من الزمن بعد كل صلاة في ذات المسجد مراجعة لورده من كتاب الله تعالى ووِرده من المشي، وفي مرات يبقى من المغرب إلى العشاء في ذات المعنى، ولا ينتهي يومه إلا وقد أخذ كفايته من الجانب الرياضي والصحي، وصنع في ذات الوقت ورداً مدهشاً في كتاب الله تعالى. وقد قرر لك في كتابه: (كيف تبني عاداتك الإيجابية؟) أنك إذا أردت أن تبني عادة فاربطها بشيء ممتع، وقد وجد في القرآن كل شيء.

قرر أن يعتزل السكر بالكلية، ومنع نفسه من الحلويات والغازيات بعد أن كان مسرفاً فيها، وقد كان قبل هذا القرار يرى أن هذه القرارات ضرب من الأوهام وطريق إلى الحرمان من متع الحياة حتى اكتشف أنه على مشارف الأمراض من خلال جملة



تحاليل أجراها في تلك الفترة كانت جرساً لبداية الحياة، وثمة أناس يفيقون لأدنى تنبيه وأناس لا يفيقون إلا بعد ضياع كل شيء، وأناس لا يفيقون كلياً ويبقون أسرى للعادات!

قرر في كتابه: (صناعة التغيير الشخصي) جملة من قواعد التغيير كان من أهمها قضية التدرج، وأنه يحتاج إلى زمن حتى تكتمل فصوله إلا أنه في التعامل مع نفسه بدأ جملة واحدة ونجح باقتدار، والهمم تكسر العادات، والقرارات الكبرى تحتاج إلى تضحيات، وكل قاعدة لها شواذ، وكل قرار يحتاج إلى بطل يرفع رايته ويصم أذنيه عن سماع المخذلين.

يعترف بأنَّ شُرب الشاي بلا سكر أصعب مراحل التحدي التي واجهها، فلله ما أصعب إلف الأشياء! وما أشق تركها بعد ذلك الإلف الكبير! وبقي زمناً يشرب الشاي فكأنما يشرب دواءً صرفه الطبيب وأصرَّ على ذلك ولم يتخلف، وما زال حتى بلغ اللذة بعد طول عناء دام زمناً، وما يدهشك أنه قبل منع نفسه من السكر كان يشرب كوبين إلى ثلاثة في يومه، ثم



تحوَّل بعد ترك السكر إلى مدمن لا يكاد يروى منه، وهذه سُــنَّةٌ في كثير من الأشــياء تبدأ صعبــة ومُرَّة ومكلفة ثم تمنحك بعد ذلك كل شــيء، فلا تعجل على أمانيــك، وقليل أو كثير من الصبر وســتجد به الحياة في مستقبل الأيام.

قرر أن يهيِّئ المكان الذي سيقضي فيه الساعات الطوال لمشــروعه فدفــع آلاف الريالات في ســبيل ذلك، واقتطع خمس غرف من بيته: مكتبة، وبجانبها أخرى للقراءة، وثالثة لجلوسه واســتمتاعه، ورابعها مجلساً لضيوفه، وخامسها لنومه واستقراره، (ولنفسك عليك حقاً)! ولا يمكن أن تقضي الســاعات الطوال في مكان لا يبعث في قلبك الأشواق!

يوصيك بعد تجربة طويلة: إذا لم يكن لك مشروع فلا ينصحك بالتقاعد، ولا يوصيك به ويقول لك: الزم عملك واصنع منه بهجتك واستمتع بكل لحظة تقضيها في رحابه، واكتب فيه حظــك الكبير، وما تصنع بأيام خالية من الأهداف والمشــاريع؟! ويذكــرك بأن هذه النصيحة لعامة الخلق، وقد تناســب قوماً ولا تناسب

آخرين، ومن حقك أن تفرح وتلذ به وتجد روحك وأمانيك من خلاله، ومن فقهك ألا تأتي إليه إلا وفي ذهنك قضية تستحق العيش والتضحية والإبداع.

التقاعد فرصة كبيرة جداً لزيادة فاعلية الإنسان وتقدمه الروحي وإعادة بريق مشاعره من جديد، وأكثر الصور ألماً تلك التي ترى فيها المتقاعد يبحث عن عمل جديد، وقد يكون شاقاً ومكلفاً يغطي به ظروفه المادية، ويلبي حاجاته الأسرية، ويمد به في ذات الوقت في شعث فكره وروحه من أجل ما يرجوه من عيش، وفي مرات تقول: إن ذلك بعض آثار ضياع التخطيط في حياتنا، وفي مرات تقول: ظروف الحياة أكبر من كل ذلك، وأعان الله تعالى من نزع ثوب رقٍّ حريته، ثم عاد في الرق من جديد. ومن فقه الإنسان ألا يأتي هذه المرحلة إلا وهو مستعد لإعادة ترتيب حياته، واستثمار وقته، وبناء مستقبله الأخروي، وإعادة وهج روحه وقلبه ومشاعره، وغير ذلك لا مفروح به في شيء، والله المستعان!



قصة المشاريع

(القراءة)

القراءة متعة عاجلة لصاحبها، وقبس من فيض الحكمة للعاكف عليها، وكم من خُلق ربَّت عليه! وكم من فكرة صنعت لها الحياة! يكفيك منها أنها أول كلمة في الوحي: (اقرأ)، فإياك يا محبُّ أن تجعلها آخر كلمة في الهم.

كانت القراءة فداء الأسير المشرك، وفي زمن غزوة بدر كان من أراد من المشركين أن يفك أسره فعليه أن يعلِّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة! ومن أراد أن يعتق نفسه من ظلام الحبس فعليه أن يشعل فتيلاً من نور العلم.

كانت وما زالت هي الوهج الذي يبدد ظلام الجهل كما يبدد ضوء الفجر ظلام الليل!

وصدق المتنبي حين قال:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ
وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

القراءة أبهج من سفرك إلى مدينة حالمة على شاطئ البحر! أو سهرك على ضوء القمر في ليلة الرابع عشر من الشهر! ولن تفهم حرفي هذا حتى تبذل من جهدك وتقطع من وقتك وتصرف من عزيمتك مسافة طويلة حتى تصل أمانيك من خلال هذه الفاتنة المبهجة.

عاش زمناً طويلاً من عمره وهو يقرأ، ولم يحدث أن شبع منها، وما زال يلهث في عشقها، وكلما امتد عمره زادت الأشواق إليها، وما هو آتٍ على حساب تفاصيل ذلك العشق، وكم من يوم عاد إلى سرير نومه وأشواقه لها لم تنتهِ بعد! ولا يطيب نومه إلا على أفراح العودة إليها من الغد.

لا تسأله: كم ساعة يقرأ؟ فهو من الشروق إلى منتصف الليل أسير في مفاتنها، وقته كله ما بين كتاب



وقلم إلا تلك الفواصل التـي تحدثها حاجة الطعام أو رحلة الدعوة والمشـاريع أو لقاءات الأنس مع الأهل والأبناء! وقد قال لك أنه فـي مرات كثيرة عقد عهوداً على نفسـه بترك الفضول من حياته، فإذا ما رأى كتاباً في يد إنسـان ترك كل تلك العهود التـي أبرمها على نفسـه، وعاد يلهـث وراءه حتى يرى ذلـك العنوان. فلا تلم عاشـقاً بلغ به الحب منتهاه! وكلما قرب منها زاد لهفه إليها، وما من ليلة إلا بات بجوار كتاب!

يعترف فيقول لك: لم يبدأ هذا العشق في حياته من أول وهلة، ولم يولد فجأة، ومن قال لك شيئاً من ذلك فإنما قصَّ عليك حلم نائم، والبدايات شاقة في كل شـيء! وهي لصيقة الشـبه بتعب الأطفال حين يبدؤون رحلة الحياة!

بينـك وبين القـراءة خنـدق مليء بالمشـاق والمتاعب، ويحتاج إلى رصف حتى يسـهل المرور عليه، وزمن هذا الرصف قد يطول وقد يقصر حسب همَّة صاحبه، وكلَّما زاد جهد الإنسان في رصفه قلَّت تلك المدة وآذن بالتمام.

- المتع التي تجدها في القراءة هي الوسائل المغرية بطول الصحبة في قادم الزمـــن، فابدأ وأنت على يقين أنك ستعيش أدهش لحظات عمرك على الإطلاق.

- قد تجد في بداية الطريق ضعفاً وبطءاً وقلة رغبة فلا تقــف عند ذلــك الضمـــور الـــذي يصحبك في البدايات على أن يكون الكتـــاب الذي يصحبك في البداية فـــي فنٍّ يعجبـــك، وميول يأخذ بمشـــاعرك، وتخصُّصٍ تهوى الحوار والنقاش فيه.

- كتب القصص مثيـــرة في البداية وتصلح ســـلالم للبدايات، ومثلها في زمانك كتب الروايات، خاصة تلك التي تصنع القدرة على الاســـتمرار في قراءة فصولها، وتبني قيـــم الأخلاق والمثـــل في طياتها، فـــإذا ما زان الطريق، وبدأ خيط الأمل يولد في ظلام الليل فكن على قـــدر المســـؤولية وواصل طريقـــك، واســـتقبل أيامك العاطرة، فتلك لحظة إشراق الضحى في فجرك الكبير.

- المعرفة رأس المال الجديد! والقُراء يطلُّون من شُرفها على واقع التاريخ حاضره وغابره، ويرون من



خلالها تباريح الواقع الجديد، والجهل يضيق بصاحبه حتى لا يرى حلاً لمشكلته، ولا نافذة يطل منها على الأمل لواقعه، ويموت في مـــرات كثيرة لضيق عطنه وضعف مساحة أفقه، والقراءة تفتح أبواباً من الأمل، ونوافذ من الإشراق.

إذا أردت أن تتعـــرَّف على متع هذه المعشـــوقة فاقرأ قصص المغرميـــن بهذا الهوى، وشـــدَّ رحلك للحاق القوم، واطوِ مســـافات البعد بالأشواق، فهذا شـــافع بن علي العســـقلاني كان كفيفاً مغرماً بجمع الكتـــب بلغ به حبها أنـــه إذا لمس كتابـــاً يقول: هذا الكتاب ملكته فـــي الوقت الفلانـــي، وإذا طُلب منه كتاب قام إلى مكتبته وتناولـــه كما وضعه فيها. وقال الحسن بن زياد اللؤلؤي (ت: ٢٠٤هـ): مكثت أربعين عاماً ما قِلت ولا بت ولا اتكأت إلا والكتاب موضوع على صدري.

أثرك على قـــدر قراءتك! وأحد شـــروط القائد المثير: أن يكون أعلى ممن يدير شـــأنهم ويقوم على تربيتهم، وكلما قربت المسافة بين المتربي ومن يربيه

ـ سواء كان والداً أو معلماً أو مسؤولاً ـ تضاءلت مساحة الطاعة وتقلَّصت مساحات التأثير، وصدق فولتير حين سئل عمَّن سيقودون العالم فقال: الذين يعرفون كيف يقرؤون. وقيل لأرسطو: كيف تحكم على إنسان؟ فقال: أسأله: كم كتاباً يقرأ؟ وماذا يقرأ؟

لن تجد أبهج في واقعك كله من كتاب الله تعالى، وإذا أردت المعرفة فهي بكامل فصولها بين دفتيه، وكل الأفكار الناهضة التي تراها في كتاب من كتب العالمين فهي من مواليده. وهو الكتاب الذي يصحح لك الأفكار والمفاهيم، ويبني لديك التصورات، ومع ذلك فهو كتاب مبارك ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وكتاب هداية ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ومن نصب له ورداً ثابتاً في يومه وليلته، وأقبل على تدبره وتأمله عاش نعيماً معجَّلاً، ووجد في النهاية كل شيء.

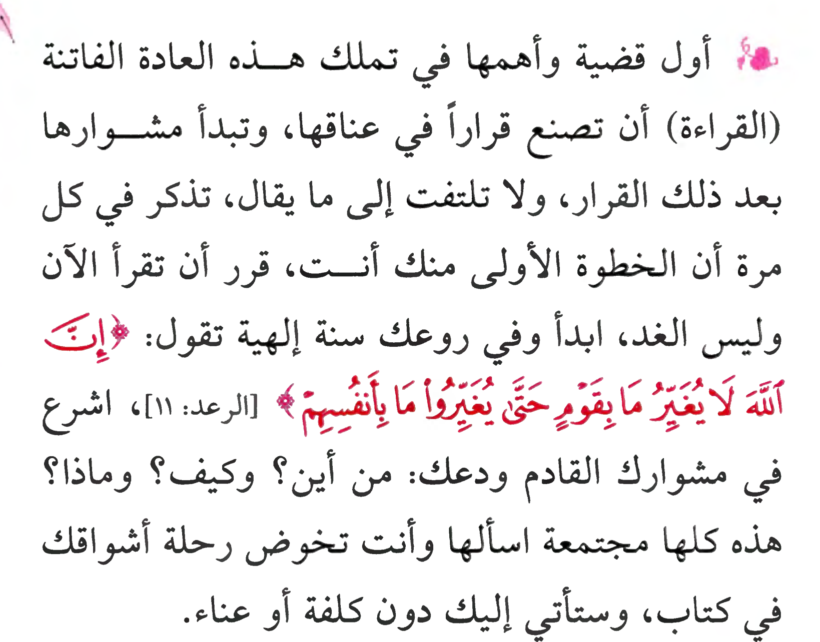
الكتب التي تقرؤها تختلف باختلاف مصنفيها، وقد قال ابن الجهم: إذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ـ فلو تراني وأنا



ساعة بعد ســاعة أنظر كم ورقة بقي من ورقه مخافة اســتنفاده، وانقطاع المادة من قلبه، وإذا كان الكتاب عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ـ فقد تم عيشي وكمل ســروري. اهـ. وقد أوصاك الرافعي بقوله: كل كتاب يرمي إلى إحدى ثلاث: اكتساب قريحة، أو فكر واســع، أو ملكة تقوي على الابتــكار، فاقرأه. اهـ. وصدق صمويل حيــن قال: ما يكتــب دون جهد أو معانــاة يقــرأ عــادة دون اســتمتاع. اهـ. وكل كتاب لا يخصــب مشــاعر صاحبــه، ولا يــروي روحــه، ولا يصنع فكره، ولا يهذِّب نفسه، ولا يدفعه لركوب المجد فلا حاجة لك به، وقتك أثمــن ألف مرة من حكايا كثيــرة في مثــل زمانك. وثمة كتــب تدعوك لقراءتها أكثر من مرة، وتقف بمشاعرك بين أسطرها، وتشــعر بأنها كُتبت لك دون غيرك، وتشرق روحك في ظلالها ألف مرة، وكلما قاربت على الانتهاء منها تمنَّيــت أن لو بــدأت فيها مــن جديد. فــإذا ما أتى الكتاب إلى بناء فكرة جديدة، وصناعة تصور بهيج، وفك أغلال الماضي بجدارة، وشق مشاعرك ليحدثها عن الأمل كان كل شيء.

إذا كنت شغوفاً بالكتب، ومحباً للقراءة فكن حريصاً قبل شرائك الكتاب على قراءة أجزاء متفرقة منه، واستعراض الفهرس، واختبار العناوين، وغالباً ما تحكم من خلال تلك النظرة على كثير من الكتب، وقد صاحبه التوفيق في كثير من تلك الأحكام التي أجراها على كثير من الكتب، وأخفق مرات، وكم مرة خدعه العنوان فلم يكن له صلة بالحياة.

كل الكتب التي اقتناها استفاد منها، وتكونت لديه قناعة كبيرة مع الأيام أن الكتاب لو مَلَّكه فكرة واحدة فقد بعثه للحياة، وكم من فكرة كافية عن قراءة صفحاته المئين! ويوصيك وأنت تقرأ كتاباً أن تضع عينك على أسطره الكبيرة، وركِّز فيما تقرأ وستولد لديك ألف فكرة وفكرة، فلعل فائدة لم تقع عليها من قبل! أو فكرة ثارت من خلال سطر! وهذه التي ذكرت لك صنعت مشاريع لم تكن له على بال! وثمة كتب إذا انتقيت منها المفيد واقتبست منها ما تريد لم تعد لك حاجة بها فمدَّ بها يد العون لمحتاج، أو اجعلها في مكان عام، ومن قضى وطره من شيء زهد فيه مع الأيام.



- أول قضية وأهمها في تملك هـذه العادة الفاتنة (القراءة) أن تصنع قراراً في عناقها، وتبدأ مشـوارها بعد ذلك القرار، ولا تلتفت إلى ما يقال، تذكر في كل مرة أن الخطوة الأولى منك أنـت، قرر أن تقرأ الآن وليس الغد، ابدأ وفي روعك سنة إلهية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، اشرع في مشوارك القادم ودعك: من أين؟ وكيف؟ وماذا؟ هذه كلها مجتمعة اسألها وأنت تخوض رحلة أشواقك في كتاب، وستأتي إليك دون كلفة أو عناء.

- تغلَّب علـى الحيل الخدَّاعة التـي تواجهك في بداية مشروع القراءة في حياتك: (لا أقدر، لا أستطيع، غير ممكن، حاولت وفشـلت)، فـكل هذه إيحاءات سـلبية هدَّامة تأتي على كل قرار وتهدمه من أصله. عليـك أن تبـدأ وتتذكر: الحيـاة مغامـرة جريئة أو لا شـيء. والذين يرددون كلمات اليـأس لم يذوقوا حلاوة التجربة والمغامرة بعد.

- حدد وقتاً للقراءة في يومك! وتأمل أي الأوقات أكثر هدوءاً ومناسـبة للبدايات، فـإذا ما حددت هذا



الوقــت فناضل من أجــل الحفاظ عليــه، وجنِّبه كل مواعيدك القادمــة، وارتباطاتك وظروفــك، واجعله فارغاً لهــذا الشــأن الكبير علــى أن يكــون الزمن المســتقطع لها في البدايات عشــر دقائق أو عشرين دقيقة فحسب، وأنت أبصر بنفســك، فمتى ما رأيت إقبالاً فزد وإلا النضال في البدايات على الاســتمرار دون نظر إلى عدد أوراق أو ساعات زمان.

- إذا لم يكــن لك علاقة بالقراءة مــن قبل، فابدأ بالقصــص والروايات القيمية الأصيلة، واشــترك في القراءات الجماعية، وناقش أفكار كل كتاب مع غيرك حتى تخلــق إلفاً وصحبــة وعادة تمكنــك من بلوغ أمانيك في مستقبل الأيام.

- كان يقرأ متنوعاً بين العلم الشــرعي، والأدب، والشعر، والتاريخ، والتنمية الشخصية، وإن كان أوفر هذا الوقت وثلثيه يذهب في المشــروع العلمي، وإذا أردت أن تكون شــيئاً كبيراً وحلماً مثيراً في واقعك فركِّز فــي قراءتــك واجعل ثلثي وقتك لمشــروعك الشــخصي، ووزِّع ثلثك الآخر على القــراءات التي



تعينك على بلوغ أمانيك، وقلَّ أن تجد نصيحة متينة مثل هذه فعضَّ عليها بنواجذك.

القراءة المبعثرة تخلق ثقافــة مبعثرة، ولا ينتظم لك شــيء مع الأيــام، وتبني منــك مثقفــاً عادياً، لا تســتطيع أن تؤصل معرفة، ولا تأتــي على حقيقة كبرى مع الأيام.

قرأ في المشروع العلمي لكبار يأتي على رأسهم شــيخ الإســلام ابن تيمية وتلميذه ابــن القيم، وإذا أردت حرفاً متيناً فــي بابه وعلماً مؤثراً في مســيرة صاحبه فأقم بباب هذين العلمين تشرق أنوار الفجر في حياتك وتمضِ حيّــاً مؤثراً في واقعك مع الأيام. وإذا لم يكن حرف العلم كهذا الحرف فلا مفروح به! كان في بداية الطلب لا يفقه معنى هذا الصيت الذائع لهذين العلمين، وكلما ســمع شــيئاً قَلَّــب كتبهما، ولا جديد حتــى كبر وعرف أثر حــرف العلم وذاق لذته، وأدرك ذاك المعنى الكبيــر فيما بعد. وما زال يعتقد أنه إذا زان حرف العلم ومضى ذكر صاحبه في العالمين وكوَّن ذكراً صالحاً له فلأمرين اثنين: علاقة

متينة بين كاتبه وربه، وحرف متين يمثل ثقافة وفكر صاحبه، وذات المعنى عند ابـــن قدامة في المغني، وابن عبد البر في التمهيد والاستذكار، والنووي في صحيح مســـلم، وفتح ابن حجر، وآثـــار ابن رجب فدونك العلم يا طالبه!

كان مولعاً بكُتَّاب الأدب والمشـــاريع والأفكار الحية وأصحاب التجـــارب الضخمة، كان يبحث عن روح الكاتب وعشـــقه لفكرته ومتانة حرفه ومشاعره الفياضة قبل كل شـــيء، فإذا ما عثر على قلم يكتب عن (الفكـــرة الحية) ومشـــاهدها في قلب ومشـــاعر صاحبهـــا فلا يملـــك إلَّا أن ينيـــخ مطايـــاه في تلك الرحاب، وفرق كبير بين مـــن يكتب وهو يعيش في عمق الحدث، ويدوِّن تجربة تطبيقية في واقعه، ومن يكتب وهو على سرير نومه لم يفارقه بعد، فرق بين من يكتب وهو يتنفَّس الحريـــة وبين من يكتب وهو عبدٌ يرسف في أغلاله وقيوده.

قرأ للمنفلوطي، والرافعـــي، والجاحظ، والمبرد، والطنطـــاوي والزيـــات، ولآخرين من كُتَّـــاب الأدب



العربي، فما أسره مثل حرف الطنطاوي والمنفلوطي، وما جرت العاطفة دموعاً علــى أفياء حرف كما جرت معهمــا، وما تخيَّل حرفــاً يوقفك على ديــر بلد بعد الفراق، وحرف كتاب بعد الوداع كهذين. وإذا قســت بــك الحياة، وجمدت بــك الأرض فهب لمشــاعرك ووجدانك مــن وحــي هذيــن القلمين وســتعاودك الذكريات مــن جديد. أما الجاحــظ والرافعي والمبرد والزيات فحريٌّ بك أن تكثر من قــراءة تراثهم وأنت موعود بإذن الله تعالى بحرف متين كبير في قادم الأيام.

ثمة كتب تُقرأ مرة، وكتب تُقــرأ مرتين، وكتب تحتــاج أن تأوي معــك إلى ذات الفــراش، وأخرى يكفيك منهــا صفحاتها الأولى فتلقــي بها في أقرب مكان.

الكتب المثيرة لا تكفي قراءتها مرة واحدة وإن أتيت علــى كل حروفها، هبها من وقتــك زمناً آخر، وأعد قراءتها، وكررها، واختصرها، وسافر بها ولتقم معك في كل مكان، وســتدرك أن كل قــراءة جديدة ستورثك ما فاتك من ألقها وجمالها وأثرها مع الأيام.



- الكتاب الورقي سيظل صامداً أمام تحديات التقنية خاصة لأصحاب المشاريع! القارئ الجيد يحتاج أن يعلِّق على كتابه، ويثير تساؤلاً، ويكتب فائدة، وينقل أخرى، ويحتاج أن يحمله ويلقيه على صدره ويتأمل مكتوبه، ويقلب صفحاته، ويشم ريحه في مرات كثيرة، ومشهد معارض الكتب أحد الأمثلة الدالة على رواج الكتاب الورقي حتى الآن.

- ثمة علوم ومعارف ومشاريع لا تصلح أن تقرأها إلا في كتاب ورقي، وكتب أخرى يمكنك أن تأتي عليها من خلال الأجهزة الإلكترونية وتقضي نهمك منها كما تشاء، وقد يسَّرت الكتب الإلكترونية حمل الكتب، والسفر بها، والمطالعة فيها في كثير من الأوقات الضائعة، بل لم يكن يتصوَّر إنسان حريص على اغتنام وقته أن يأتي بكتاب في اجتماع أو لقاء حتى جاء الله تعالى بهذه الأجهزة فصار كل شيء ممكناً مع الأيام.

- (القراءة السريعة) نافعة في كتب دون كتب، وفي مواطن دون أخرى، وفي علوم دون علوم، وثمة كتب



ومجالات وعلوم تحتاج أن تتــدرب على هذا النوع من القــراءة حتى لا تلتهــم تلك العلــوم والمعارف أوقاتك، وتكتفي منها باليســر، وكُتب إذا قرأتها من خلال هذا النوع من القراءة فأنت تكذب على نفسك ألف مرة! وخذ من كل فن ما ينفعك، ومن كل فكرة ما يدفع بمشروعك وفكرتك، ومن كل مهارة ما ينمي قدراتك، ودعك من كثير من الأوهام.

كان يقسِّم أسبوعه في القراءة على قسمين: أيام الدوام الرســمي من الأحد إلى الخميــس قراءة في المشــروع العلمي، ويومي الجمعة والسبت قراءة في مشروع التنمية الشخصية. ويقسم يوميه على جزئين: من الشــروق إلى الظهر قراءة، ومن الظهر إلى الغداء كتابة، ومن العصر إلى منتصف الليــل ما بين قراءة وكتابة، وأخبرك سابقاً أن هذا كان في زمن وتغيَّر فيما بعد مع الأيام.

لا يفتح كتاباً للقراءة إلا والقلم معه يرصد فوائده، ويعلِّق عليه، ويصطاد صيده النافر، ويقبض على متين فوائده، ويضعها فــي أول الكتاب أو آخره، وهي عنده

صيده الثمين، وما تصنع بكتاب تفرغ منه ثم لا تكاد تلقى منه شيئاً صالحاً لفكرك في مستقبل الأيام؟!

- احتفى في زمن من عمره بتلك الفوائد، وخصص لها بعض ساعات الأسبوع في يومي الإجازة، فكان يعود إلى قراءتها مرة ومرتين وثلاث حتى تثبت وترسخ مع الأيام، وفي مرات يختصر الكتاب كاملاً ويكتفي منه بما اختصره منه فحسب. ولله ما أنفع هذه اللفتات على صاحبها! وما أمتعها لثراء فكره! وما أقربها إلى الضبط والتحصيل في مشروعه مع الأيام!

- وضع جدولاً لترتيب الكتب المقروءة، وأتى على جملة كبيرة من كتب التراث، ولا أضر على طالب العلم من الشتات، فيمضي زمانه وينصرم عمره وهو لم يحصِّل شيئاً، وصدق من قال: كثرة الكتب مضلَّة للفهم.

- له طريقتان في القراءة: مرة يحدد عدداً من الصفحات، ومرة يحدد زمناً في اليوم، وكلٌّ لها وعليها، وحسبك أنك تُقلِّب نفسك في كل مرةٍ على ما تراه



أضبط لوقتك وأنفع لنفسـك وأثرى لعقلك، ولا تربط نفسك بقضية وتعتقد أنها كل شيء، فالتجارب لا حدَّ لها وأنت أعرف بنفسـك، وفـي الوحي: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥] ولا يمنع أن تسـأل أصحاب التجارب، وتلقى أصحاب الخبرات، وتسـتفيد من كل من سـبقك، ثم توظفها فـي النهاية بحسب ظروفك وواقعك.

ما رأى أنفع لطالب العلم مـن خطتين: الأولى تعتني بأصول العلم في كل فن يقضي فيها عمره قراءةً ونظراً وتكراراً وتعليقاً لا يبرح عنها في حله وترحاله، والثانية: تعتني بالكتب التي يقرؤها في سيره العلمي مرتبة في الفنون ومتصلة بحيث يأتي فيها على مراجع العلم ومسـائله، ويكون على صلة بكلام أهل العلم حتى يصل فيها إلى النهاية، وليس أسوأ من الفوضى والشـتات حتى أنك قد ترى طالب علم بعد ثلاثين سـنة من عمره ما أتم مصنفاً أو مرجعاً مرتباً، وإنما شتات من هنا وهناك وضاعت الأعمار في غير طريق.

لم يحدث أن تخلَّف عن معرض الرياض الدولي للكتاب منذ تعرَّف على مشروعه الشخصي، ومن ذاق لذة القراءة عرف ما تعني له معارض الكتب، وما هو واصف لك أفراحه إذا قرب زمن افتتاحه، وفي مرات يكفيه يوم واحد لزيارته فيهدأ شغفه ويعود إلى دياره من جديد. وكان يزوره لمشروعه: (العلم الشرعي، والتنمية الشخصية)، ولا تسأله فيما عدا ذلك إلا في النادر اليسير!

كان يزوره سنوياً مع نخبة من طلاب العلم من المظيلف تطيب النفس بلقائهم، وتُسر بأحاديثهم، ويشتاق إليهم شوق المحبين، ولو لم يكن في مرات إلا صحبتهم في الطريق لكانت كل شيء كـ: (أبي عاصم الشيخ حسن بركات، وأبي أحمد د. علي الراشدي، وأبي سلمان د. محمد العلوي، وأبي عبد الله د. حسن المسعودي، وأبي معاذ د. نايف الزبيدي)، وآخرين، وقائد الرحلة وأميرها وسائق مركبتها حبيب القلب د. علي الراشدي، وليس من شأنك أن تصوِّت على إمارته ولا على سرعة سيارته ولا على طريقة

إدارته لمسؤوليته، فهو الذي ينتخب نفسه أميراً، ويتبرع بسيارته، ويحدد السرعة التي يسير بها، ويصنع غداءهم وعشاءهم في ذات الوقت، تعجبه صراحته وثقته برأيه، وإذا أحبك استدان لوفاء دينك، وحل مشكلتك وصنع لحظتها كل شيء! وإذا تذكر موقفه مع رفيق دربه في الإشراف التربوي الشاعر علي الزبيدي رحمه الله تعالى فاضت عينه بالدمع، حين نذر نفسه لوفاء دينه في يومين وأتى على تمامه، وما الدنيا كلها إذا لم تجد فيها مثل هؤلاء! فلله كم كان لذلك الشاعر من ذكريات! وكم كان يصنع من شجون!

علم الراحل من الدنيا الشاعر علي عبد الله الزبيدي رحمه الله تعالى ذات مرة بسفرهم للمعرض، وعلم في ذات الوقت أنهم ينتظرون صديقاً حديث عهد بعرس، فبعث إلى ذلك الصديق ببيت شعر يغريه فيه بالتخلُّف والبقاء في الديار:

دَعِ الرِّيَاضَ بِلَا لَوْمٍ وَلَا عَتَبِ
فَالعِلْمُ فِي أَحْضَانِهَا لَا فِي مَعْرِضِ الكُتُبِ

فرحمه الله تعالى.





قصة المشاريع

(العلم الشرعي)

(إذا لم يكن للإنسان مشروع عمر فلم يعثر بعد على أكثر معاني البهجة في حياته)

بدأ قصة المشروع (العلم الشرعي) من خلال مادة مسموعة أهداها له زميل العمل في مدرسة الوفاء بمليحة التابعة لمحافظة محايل الأستاذ محمد ذاكر القوزي جزاه الله تعالى خيراً، وقد كانت تلك المادة في شرح بلوغ المرام، باب الآنية طهارة جلود الميتة تحديداً، وإذا أراد الله تعالى أمراً أجرى له في قلب صاحبه موارد التوفيق.

سمع الشرح وهو في سيارته عائد من عمله وشدَّه حديث عبد الله بن عكيم أن النبي ﷺ قال قبل وفاته بشهر: «**لَا تَنْتَفِعُوا مِنَ المَيْتَةِ بِإِهَابٍ وَلَا عَصَبٍ**»[1]،

(١) أخرجه أبو داود (٤١٢٨)، والترمذي (١٧٢٩)، والنسائي (٤٢٤٩).



وحديث الشيخ تلك اللحظة عن صحة الحديث وضعفه وكيف يجمع بينه وبين الأحاديث الدالة على الاستفادة من جلود الميتة: «**أَيُّمَا إِهَابٍ دُبغَ فَقَدْ طَهُرَ**»[1]، و«**دِبَاغُ جُلُوْدِ المَيْتَةِ طَهُوْرُهَا**»[2]، وعلق بفكره هذا العراك الفقهي واستلذ هذا الفن، وبعث الله تعالى قلبه لهذا التخصص وأجرى فيه أشواقه وعشقه فيما بعد!

أتم المادة الصوتية ثم تواصل مع المكتبات يسأل عن بقية المواد وعرف أنها في جدة فقرر السفر إليها في نهاية الأسبوع واشترى ذلك الشرح، ووصل وقتها إلى باب التطوع في (١٢٨) مادة مسموعة وعاد بها من سفره، وبدأ مشوار نسخها، وقد أتى عليها كاملة، وتعلم فيها أدب الطلب، وأدب الخلاف، وإذا رُزق الطالب في بداية حياته بشيخ متمكن في فنه، وربَّاه على معاني العلم قبل مسائله؛ فقد تهيَّأ له كل شيء في هذا الطريق الطويل، وإذا خُلِّي بين الطالب وبين نفسه ولم يجد من يرعاه في بداية الطريق ولم يجد محاضن تربوية لازمته الأخطاء والعثرات بقية عمره وحياته. والله المستعان!

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٢٨)، والنسائي (٤٢٤١)، وابن ماجه (٣٦٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٣٨)، والنسائي (٤٢٤٤).



كان كل يومه ينسـخ ويكتب، يعود من مدرسته بعـد الظهر فينـزع ثوب العمـل ويبدأ ثـوب الجد والطلب، فما يزال يكتب حتى يحين موعد الغداء، ثم يعود ليكتب حتى منتصف الليل لا يوقفه إلا صلاة أو طعام، يكتب في دفاتر كثيرة الورق وبأقلام مختلفة، وأتى من خلال ذلك على كثير من الشروح في فنون العلم ومجالاتـه، وما زالت تلـك الدفاتر معه حتى تاريخ كتابة هذه الفصول.

بدأت رحلة الطلب بحفظ القـرآن الكريم، في مسجده، وبمفرده ومن دون شيخ، ولا صاحب، فأتمَّه بفضل الله تعالى، وقد قطع له وقتين ثمينين في اليوم (بعـد الفجر إلـى الضحـى)، و(بعد المغـرب إلى العشاء) وما أقصر هذين الوقتين! وما أكثر أثرهما في حياته! فأما الفجر فالصحبة لـم تنقطع، وآثارها أكبر من أن يأتي عليها حـرف ذكريات، وأما المغرب فقد ودَّعـه بانضمامه للعمل الخيري وانشـغاله بعد ذلك بالتدريـس في حلق العلـم، ثم عاد إليـه فيما بعد، والحمد لله تعالى على توفيقه.



حفظ القرآن وحده من دون شيخ، ولازمته جملة من الأخطـاء زمناً طويلاً واسـتفرغ وقتـه بعد ذلك للتصحيـح، وواحد من أعـذاره الكبار أنـه لم يكن متاحاً له غير ذلك الطريق، فالوسائل ضعيفة ولا أحد من الحفَّاظ حولـه، ومثلك أوعى بـألا تكرر خطأه ولا تتنـازل عن حفظـك علـى شـيخ، والبدايات الصحيحة أسـلم لك من الانحرافات في كل شيء، وفي عام (١٤٢٢هـ) التحـق بحلقة حُفَّاظ الوحيين في مكـة التي يشـرف عليهـا فضيلة الشـيخ يحيى بن عبد العزيز اليحيى جـزاه الله تعالى خيـراً ورفع الله مقامه في الدارين، فكم فتح بهذا الطريق آفاقاً للحياة! وما أحوج الأمة إلـى ناهض يحمل فكـرة، ويؤمن بمشـروع، ويتحمل أعباء قضية، ويسد بها فرضاً من فروض الكفايات، بدأ مشروع ضبطه لكتاب الله تعالى في الحرم، وكان بالنسـبة له مراجعة بعد زمن طويل من الحفظ وكان يحفظ ويضبط كل يوم جزءاً، والخطأ الواحد كبير في حق صاحبه، وكان الشيخ يأتي بنفسه في بعض الأحيان يختبر طلابـه، وكانت فيه صرامة ظاهرة، وكان العـدد حينها يتجاوز المئـة في بداية المشـروع ثم بدأ يتقلص ذلك العدد كل أسبوع لأثر



تلك الشدة حتى بقي المشروع في النهاية على خمسة وعشرين طالباً فقط ورحل البقية.

كان الحفظ والمراجعة في الحرم بعد الصلوات، يسمِّع في ذات اليوم على مشايخ الدورة، كل يوم بجزئه المقرر، ويجري له اختباراً شاملاً كل جمعة في مقرر الأسبوع، ومن لم يجتز الاختبار الأسبوعي وجد اسمه معلقاً في ذات الوقت على جدران الغرف ليحمل حقائبه بعد ذلك ويغادر بلا رجعة، ومهما بذل من المحاولات فلا مكان له بعد الإخفاق مطلقاً.

بقي شهرين أو قريباً منها أتم فيها كتاب الله تعالى مراجعةً وضبطاً، وهذه الدورة وأمثالها في علوم السنة تُمكِّن صاحبها من عرض الوحي أمامه بصورة صحيحة، ولكنها تحتاج بعدها إلى أيام طوال لتُجنى ثمارها وإلا ما أسرع ما تودع صاحبها مع الأيام!

وها هو بعد تجربته الطويلة يقول لكل من رام حفظ الوحيين فعليه أن يبدأ بكتاب الله تعالى ولا يزيد على نصف صفحة يسمِّعها على متقن، أو من آلات



التسجيل ثم يكررها في صبحه ومسائه وليله ونهاره وحضره وسفره، ثم اليوم التالي كذلك بذات القدر، ويدمن تكراراها ويجمع الأول على الآخر ويصلي بها الفريضة والنافلة وقيام الليل، ويذكرك بأن كل محفوظ لا ينتقل معك إلى صلاتك ويجري على لسانك فيها دون خطأ فلا تعده في جدولك، وأعده من جديد وركِّز عليه، واجعل ذلك دأبك في كل خطتك وسيرك في هذا المشروع العظيم حتى تبلغ به النهايات، ولا تقل يوماً من دهرك سأمرُّ به هكذا ثم أعود إليه مرة أخرى، فإن ذلك بداية الضياع، وتذكَّر أن ما حفظته هو رأس مالك؛ فإياك ألف مرة أن تتخلف عنه خاصة في البدايات، اقرأه وكرره في كل حين، ويخبرك أنه عاش زمناً طويلاً من عمره وهو يروم ضبط هذا المشروع من غير مصحف ولكن دون جدوى لكثرة مشاريعه ومزاحمة بعضها لبعض وعدم تفرغه وضعف تركيزه، حتى أعلن عنه كمشروع تركيز عام (١٤٤٢) فقرر أن يضبط كل يوم خمس صفحات ويكررها عشرين مرة على الأقل، وبقي على ذلك شهرين كاملين كلها



لكتـــاب الله تعالى لا مزاحم له البتـــة، ووصل إلى أنه يراجع كل يوم خمسة أجزاء، ولكنه فوجئ بأنه ما زال يحمل مصحفه أثناء المراجعة ولا يكاد يســتغني عنه، فعاد للضبط من جديد، وقرر أن يراجع ربعاً واحداً مع ربط الأول بالآخر مهمـــا طال، وتفضل الله تعالى عليه فأكرمه بتجربـــة تحويل ما حفظه إلـــى ورد ثابت في صلوات الفريضـــة والنافلـــة، وكان ورده الثابت ثلاثة أجزاء كل يـــوم من بدايـــة المصحف إلـــى محفوظه الجديد مع الربع المقرر للضبـــط مع مراجعة للقريب من ورده الجديد، وظل على ذلك تتسع أوقاته كل يوم وتكثر مراجعته وتـــزداد متانة محفوظه حتى انتهى من ذلك المشـــروع العظيم، ولو رأيته وهو يسأل الحفاظ ويناقش أهل التجارب ويزور المتقنين ويدعو في الليل والنهار، وفي الســـفر والحضر، وفـــي الطواف وعلى الصفا والمروة، وفي صعيد عرفات، وســـاعة الجمعة، وفي سجوده وسحره، وبين الأذان والإقامة حتى أجرى الله تعالى له ما يريد في النهايـــات، وصدق الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].



ومثل ذلك مشروع السنة مَنْ رام ضبطها فليحفظ حديثين أو ثلاثة كل يوم وليدمن تكرارها في الليل والنهار، ويجمع الأول بالآخر، ويهب لها وقته وزمانه، ولا يزاحمها بشيء من الواجبات حتى يبلغ منها أمانيه، ويذكرك بالوصية النبوية: «**أدومه وإنْ قلَّ**»، وهي أنفع وصية لطالب عالم، فلا يتوقف عندها مشروعك لتأتي من خلالها على أمانيك.

بدأ بحفظ الأربعين النووية، ثم عمدة الأحكام، ثم البلوغ، ولم يتمّه ولكنه عني بمداومة النظر فيه بعد ذلك. ولا يعدل الحفظ عنده شيء، وهو سلاح طالب العلم، ومن تمكن في الحفظ أتى على كثير من أمانيه، وقد استفاد من تجربتين علميتين متميزتين، الأولى: تجربة د. خالد الباتلي ـ جزاه الله تعالى خيراً ـ فقد جمع بين (عمدة الأحكام والبلوغ وزوائد المحرر) في كتابه: (التمام في أحاديث الأحكام)، فقرر أن يكون له مشروعاً خاصاً بنفسه فأخرج منها الضعيف ، أبقى الصحيح المعتمد، وزاد على هذه الكتب الثلاثة ما يزيد على سبعين حديثاً لم يوردها

أصحاب المصنفات الثلاثة، وهي مما تمس الحاجة إليه، وما عليه العمدة في الفتوى في كتاب أسماه: (الجامع في أحاديث الأحكام)، ويرى بأن طالب العلم ينبغي أن ييمِّم وجهه إلى هذا الكتاب، ويعتني بحفظه وضبطه وتكراره في ليله ونهاره وسيغنيه عمَّا سواه من أحاديث الأحكام، وهو كافيه عن كل ما بقي، ما لم يكن متشوِّفاً لحفظ السنة فذاك شأن الكبار، والثانية: تجربة الموفق الشيخ صالح الشامي - جزاه الله تعالى خيراً - فقد جمع أحاديث السنة في كتابه الكبير: (جامع الأصول التسعة) ووضع له مختصراً لطيفاً بديعاً أسماه: (معالم السنة النبوية) في ثلاثة مجلدات، وقد استفاد منه في مشروعه الحديثي: (الجامع في أحاديث السنة النبوية) فأبقى أصل الكتاب وحذف منه الأحاديث الضعيفة التي أوردها المصنف لأغراض أشار إليها في ذلك الكتاب، وحذف الآثار الواردة عن التابعين فأصبح عدد ذلك المصنف (٣٢٣٧) وكلها أحاديث صحيحة، وذيَّل كل حديث بذكر راويه باسمه الصريح، وقد عمد المصنف

في الأصل إلى ذكر المختصر لتلك الأسـماء، وجعل لكل باب عنواناً في أعلى الصفحــة، وخرج الكتاب منظماً مختصراً في (٦٧٠) صفحة، من أدمن القراءة فيه فقد قرأ ما صح من سنة النبي ﷺ. واستطاع أن يختم سنة النبي ﷺ، في الســنة أربع مرات من خلال قراءة (١٠) صفحات كل يوم، وهو علــى يقين أن بعضاً من طلاب العلم لم يأتوا على هــذا المعنى في أعمارهم ولا مــرة واحدة، فكيف لــو تحصَّل له هــذا المعنى الكبير في عام واحد، ولعدد من المرات؟!

لم يحفظ شيئاً كاملاً في علوم الآلة، وهي وسيلة معينة، ومن قدر على ضبط قواعد الســعدي، أو ابن عثيمين في الفقه، والورقات في الأصول، والآجرومية، ونخبة الفكر لابن حجــر، ونحوها من علوم الآلة نال شيئاً كبيراً، ولكن لا يترتَّب بفواتها على طالب العلم شيء إذا عني بمتونها ضبطاً وتحريراً.

ســافر أول مرة إلى القصيم لطلــب العلم للقاء العالــم الكبير الشــيخ محمد صالــح العثيمين رحمه الله تعالى وذلك عام (١٤١٥هـ) برفقة د. علي مصلح المصلحي،

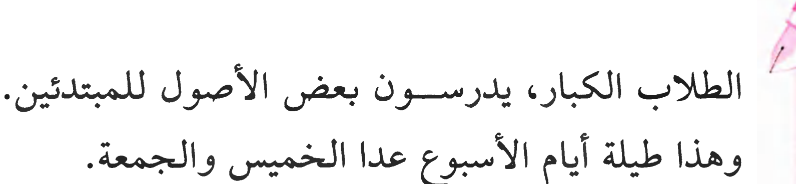
والشيخ حسين بن حسن الفقيه وبقوا هناك قريباً من شــهر في بريدة في ســكن طلاب العلم الذي يرعاه الشــيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، ولذلك السـفر قصة وفيه عبرة: ففور نزولهم من الطائرة التقوا برجل ينتظر في صالة المطــار فســألهم فأخبروه برغبتهــم في زيارة الشــيخ، وعرَّفهم على نفســه أنه أســتاذ للتاريخ في جامعة القصيم ينتظر أباه في ذات الطائرة، فاستضافهم معه وأخذهم في ســيارته، وذهب بهــم إلى الجامعة وعَرَّفهم على أقســامها ثم مرَّ بهــم على أحد طلاب الشيخ وعَرَّفه عليهم وطلب منه أن يرتِّب لهم لقاءً مع الشــيخ، ثم عاد بهم إلى بيته وأكرمهــم وبقوا عنده حتى صــلاة العصر ثم حملهم إلى مســجد الشــيخ وأنزلهم هناك، فجزاه الله تعالى خيراً وأسبغ عليه نعمه وأفضاله، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

دخلوا المســجد، وكان في ذلــك الحين درس الشــيخ يبدأ بعد صلاة المغرب واســتمعوا للدرس والتقــوا بالشــيخ الــذي وعدهــم بلقــاء شــيخهم ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فجمعهم به وهو خارج من المسجد،



وقال له: هؤلاء طلاب يريدون العلم، فقال الشيخ: هل معكم تزكيات من أحد؟ فقالوا: لا! فقال: إذاً اذهبوا استأجروا في أي مكان ونحن ندفع عنكم الإيجار. وذهبوا برفقة أحد الإخوة اليمنيين من طلاب الشيخ وكلما قرعوا باباً سألوهم عزاباً أو متزوجين! فأخبروهم بأنهم عزاب، فقالوا: لا يوجد سكن، حتى تعبوا ولم يتمكنوا من الحصول على سكن، ثم دبَّر لهم رفيق الدرب رأياً وقال: تلتقون الآن بالشيخ عبد الرحمن الدهش أحد طلاب الشيخ الكبار وتعرضون عليه واقعكم، فالتقوا به وعرضوا عليه الواقع فرحَّب بهم ثم أضافهم في السكن، وبدأت أول رحلة في رحاب العلم.

كانت الدروس تبدأ الساعة العاشرة صباحاً، يشرح الشيخ أربعة متون في التفسير والأصول والمصطلح والفقه لمدة ساعتين إلى قريب الظهر، ثم العصر شرح صحيح البخاري ومسلم. وبعد العصر إلى المغرب كان الشيخ خالد المصلح يدرِّس العقيدة الواسطية في أحد زوايا المسجد هو وجملة من



الطلاب الكبار، يدرسون بعض الأصول للمبتدئين. وهذا طيلة أيام الأسبوع عدا الخميس والجمعة.

حين رأى الجامع الكبير في عنيزة، ورأى الشيخ وطلابه ودروس العلم التفت إلى قائدهم د. علي مصلح المصلحي وفقه الله تعالى وكان لطيفاً هيناً كريم الأخلاق، وقال له: لا عودة إلا بعد قضاء الوطر من هذه المشاهد الملهمة، فعتب عليه قائلاً: تجعلني مسؤولاً عن الرحلة وأميراً لها، ثم تحدد مواعيد العودة من قبلك ولا تستأذن في ذلك؟! ودار نقاش حيال زمن العودة، ومن فقه الصحبة ألا تختلف مع أميرك في شيء، وتقيم للإمارة قدرها، وتدع نفسك لمستقبل الأيام فلعل الزمان يلقي بهمومه على قلبك وتعود تبحث عن رأيه من جديد، وما هي إلا أيام حتى عاد صاحب الرغبة يتمنى أن أميره يصر على رأيه ويعجل بالإياب.

كان السكن عامراً بطلاب العلم من شتى بلاد العالم، وهو يسكن مع بعض هؤلاء، بخلاف صاحبيه فهما في غرفة واحدة، وكان يزورهما في غرفتهما، وقد بلغت أشواق العودة في قلبه إلى أقصى مدى



ولكنه يكتم عنهما ما يجد، وهو يرى رغبتهما الجادة في العودة ويعرف ما يطرق تلك المشاعر بين حين وآخر فيقول لهما: دونكما الحياة في هذه الديار، إياكما وفوات الفرص! واصلا الطريق وتحملا أعباء العلم واضربا صفحاً عن تذكُّر الديار، وتذكر حينها ما في الصحيحين من حديث أبي سليمان مالك بن الحويرث رضي الله عنه حين قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً فظن أنَّا قد اشتقنا إلى أهلنا، فسألنا عمَّن تركنا من أهلنا فأخبرناه فقال: «**ارْجِعُوْا إِلَى أَهْلِيْكُمْ فَأَقِيْمُوا فِيْهِمْ**».. الحديث[1] ! فكان أميره يقول له: نحن ماضون في موعدنا وعائدون إلى ديارنا في الموعد المحدد، فلله ما ألذ هذا الإصرار على قلبه ومشاعره! وما أبهجه في خاطره! وسأل الله تعالى مُلحّاً أن يبقى أميره مُصرّاً على ذلك القرار.

كان يصلي الفجر في الجامع الكبير الذي يصلي فيه الشيخ إماماً، ويبقى للضحى، ويرى البون الشاسع بينه وبين طلاب العلم في تلك الديار، هو ما زال في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٧٤) (٢٩٢).

بداية الطريق في مشـروع حفظ القـرآن لم يتمه بعد وأولئك في حفـظ المتون والمنظومـات، ولقي من تلك الصور دروسـاً لـو قرأها في عشـرات الكتب ما كوَّنت تلك القدوة المدهشة في حياته فيما بعد.

كان ذات يوم في حلقة الدرس وكان الشـيخ يشرح مسـألة في التيمم: هل يشـترط في التيمم بالتراب أن يكون له غبار؟ فرفع طالب يده انتظم لدروس الشـيخ قريباً فقال: ما جوابكم يا شـيخ على من يشـترط أن يكون له غبـار؟ فتغيَّر وجه الشـيخ وأقبل عليه قائـلاً: هل أنـا خصمك في مناظرة؟! هذه الكلمة لا تقـال في مجلس كهذا، وأخذ يوجـه ويثرِّب علـى الطالـب وتغيَّر وجه الطالب، ثم عاد الشيخ إلى درسه وكأنه شعر بأنه قسـا قليلاً على طالبه فعاد متلطفاً يقول: حين أرد على طالب فإني لا أعنيه بشخصه، وإنما أستثمر موقفه في تعليم البقية.

اجتمع مع مجموعة من الطـلاب للغداء، وكان النظام كل أربعة أو خمسـة من الطلاب على سـفرة



واحدة وكان طالب العلم الذي تعرَّض لذلك الموقف معهم على ذات السفرة، وكان في حلقة الشيخ شاب من دولة مجاورة لذلك الطالب الذي تعرَّض للموقف وكأنه أقلقه وضع صاحبه وخاف عليه ترك حلقة العلم والعودة إلى الديار، فجاء فجلــس معهم ودار نقاش حيال الموقف وقال له: كنت مثلك حين أتيت جديداً وقد قال لي أكبر مما قال لك وخاصمني، وفعل كل ذلك من أجل تربيتي وتأديبي، ونفعني الله بذلك نفعاً عظيماً، والشــيخ يريد مصلحتــك ومصلحة الطلاب وأخذ يثبته حتى استمر، فلله ما أعذب بعض الرفاق! وما أجملهم وأدهشــهم في حياة أصحابهم! وكم من صديق صنع لصديقه الحياة! وكــم من صديق أعاق صديقه وتسبب في ضياعه في الدارين!

كان من برنامج الشيخ رحمه الله تعالى أنه يفتح باب منزله يوم الخميس من الســاعة الحادية عشــرة إلى الظهر ويجتمع الطلاب والزائــرون حتى يمتلئ البيت، يبدأ اللقــاء بكلمة ثــم يُفتح المجــال للنقاش، وســمِّي بلقاءات الباب المفتوح فيما بعد.

المسافة بين بيت الشيخ وجامعه قريباً من كيلو يقطعها الشيخ ماشـيـاً في كل الفروض ذهاباً وعودةً، وتستثمر تلك المسافات في الأسئلة والفتاوى وقراءة الكتب ونحو ذلك، وكان موكبه بطلابه موكباً بهيجاً مدهشـاً يقطع الطريق العام وتقف السـيـارات لأجل ذلك الموكب، فيا سقى الله أياماً كانت هي الحياة!

حين عزم على السـفر من دياره إلى الشيخ كان قد أخذ كل الأسـئلة التي كتبها ودوَّنها وسجَّلها في أيام الطلب، وانتهز ذات مرة عودة الشيخ من المسجد إلى بيته فبدأ بعرضها والشيخ يجيب ونسي نفسه في غمرة الأسئلة فتقدم على الشـيـخ فنهره وقال له: عُد للوراء، وكان من سـوء الأدب أن يتقدم الطالب على شيخه في الطريق، ثم رأى الشيخ أنه استأثر بالأسئلة على بقية الطـلاب فأوقفه فالتفت إلـى الطلاب فلم يشارك أحد، فقال له: أكمل، وتمت الإجابة على كل تلك الأسـئلة التي جمعها لسنوات طويلة في الطلب في مشـوار واحد، فلله ما أمتع تلك الأيام! ويا سقى الله تلك الذكريات!



أعظم ما يمنحك ذلك الشيخ عالم (القدوة) وقد رأى من إجلال العلم والورد اليومي شيئاً كبيراً للدرجة التي إذا سلم من صلاته أقبل على المأمومين بصوت مرتفع ولا يسمح بمقاطعته من أحد حتى لو للسلام، حتى يتم أوراده كاملة، وربما ردَّ يد من يريد أن يقبل رأسه أو يسلم عليه وقت الأذكار وربما نهره، حتى استقر له الأمر وعرف الناس تعظيم وقت الأذكار لديه.

كان الشيخ يرفع صوته بالذكر بعد الصلاة مع المصلين حتى تسمع للمسجد دوياً، وكان يجلس بعد العصر لقضاء حوائج الناس وطلاب العلم: فواحد يمنحه مبلغاً من المال، وآخر مجموعة من التسجيلات، وثالث شفاعة، وآخرون! ومرة كنت جالساً إلى جانبه بعد العصر فجاءه رجل فعرض عليه حاجته، فقال له الشيخ: أنت مررت عليَّ قبل ذلك؟ قال: نعم! فنهره الشيخ وطلب منه ألا يعود.

كان الوقت بين الأذان والإقامة في جامع الشيخ فسيحاً فقد يأتي بعد عشرين دقيقة وفي مرات بعد نصف ساعة وفي مرات أكثر من ذلك، وكان في

الجانب الآخر من الجامع مسجد صغير يؤذن ثم يقيم مباشـــرة، فمن أحب أن يصلي ويذهب لقضاء حاجته ذهب إلى ذلك المســـجد وإلا بقي في جامع الشيخ يستثمر هذا الوقت الطويل فيما ينفعه.

كان الشـــيخ في مرات يمشـــي حافياً خاصة في صلاة الفجر يتابع في ذلك ســـنة النبـــي ﷺ أنه كان ينتعل تارة ويمشي حافياً تارة، وكانت مشاهدة القدوة في حياة الشـــيخ حاضرة جداً وهو الأصل الذي يعود إليه في كل فعل مع طلابه أو مع عامة الناس.

كان جملة من الطلاب يُفرِّغون دروس الشـــيخ مباشرة فتُصوَّر وتُرسل إلى المكتبة المجاورة للجامع، فلمح أحد المشـــرفين في اللجنة العلمية جودة خطه فطلب منه أن يشـــارك مـــع تلك اللجان فـــي تحرير الدروس، فوافق على هذا ونســـخ جملة من مذكرات المصطلح في تلك الفترة.

ودَّعوا عنيـــزة أرض العلم في الموعد الذي حدَّده أمير الرحلة، وفي طريق العودة أحـــبَّ أميرهم أن يمرَّ



على عمه في جدة ليسلم عليه، فاستقبلهم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وأوصلهم إلى بيته وكان مصراً على البقاء عنده إلى الليل، فبدأ الحديث مع قريبه وأخبره برغبتهم في العودة فأبى وأصرَّ على البقاء، ثم أحال الأمير الحديث إليه رغبة في إقناع عمه ولكنه لم ينجح معه، فكان في غاية الإصرار، ولما رأى صاحبهم الثالث أن العقد أوشك أن ينفرط أخذ بزمام الحديث وأقسم يميناً مغلظة لا استثناء فيها أنه لن يبقى، وكانت هي قاطعة النزاع، وفات الرجل الكريم غربتهم ولهفهم للديار ورغبتهم الملحة، وفي المثل السائر في دياره: بعضه إكرام وبعضه إكراه! وما جرى معهم نوع من الإكراه!

كانت أياماً حافلة بالعلم والأدب والتربية، وثمة معالم كانت دروساً ضخمة في مشاعر صاحبها، وقد عرف تفريطه في زمانه وهو يرى أولئك الطلاب من شتى بقاع العالم تركوا ديارهم ورابطوا عند الشيخ للعلم لسنوات طويلة.

سافر إلى الشيخ مرة ثانية في العام الذي يليه (١٤١٦هـ) برفقة الكبير في خلقه وجوده وكرمه وأدبه



أبي عبد الرحمن الشيخ خالد عبد الرحمن الكناني وعاد إلى ذات السكن وبقي فيه أسبوعاً كاملاً، وأبو عبد الرحمن ممن فتح الله تعالى عليهم في الأخلاق والجود والكرم وطيبة النفس وسعة الصدر وسلامة القلب، وهو مدرسة في هذا الباب، ولا يكاد يقول لأحد لا، وقرر ألا يستسلم لظروف زمانه، وقد بقي مديراً لمدرسة زمناً طويلاً حتى تقاعد، ثم اعتنى بنفسه وتدرب وتأهل وتخصص في مشروع الاستشارات الأسرية، وما زال مرابطاً على ذات الفكرة حتى كتابة فصول هذه الذكريات، وكم من فارغ يشتكي زمانه! وكم من قاعد يشتكي ظروف واقعه! والكبار لا ترى إلا الفرص ولا ترضى بالقعود مهما كانت الصعاب في الطريق.

ثم سافر ثالثة إلى القصيم لذات الهدف وذلك في عام (١٤١٩هـ) برفقة أبي عبد الرحمن كذلك وشاركهما صالح إبراهيم الفلاحي، إلَّا أنهم لم يجدوا الشيخ في ذلك العام، فقد كان مشاركاً مع هيئة كبار العلماء في الطائف، ومروا على الديار والآثار وعادوا



دون شيء، وكم لاح بيت امرئ القيس في مشاعرهم في تلك اللحظات:

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى
أُقَبِّلُ ذَا الجِدَارَ وَذَا الجِدَارَ
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي
وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَ

مما نفعه الله تعالى به في بداية طلب العلم كتابة شروح شيخه ابن عثيمين رحمه الله تعالى، فقد عكف على الشرح الممتع من بداية طلبه، ولم يخرج الكتاب مطبوعاً في تلك الفترة إلا أنه وجد طبعة مصرية تجارية فأخذها ثم أخذ يقابل كل مجلد منها على المواد الصوتية ويتم الناقص فيها حتى أتم جميع نواقصها، وعني بعد ذلك بهذا الكتاب: (الشرح الممتع) عناية خاصة فكتب أصول مسائله كلّها مرتبة من باب الطهارة إلى باب الإقرار، فعمد إلى تسجيل مسائل كل باب في أشرطة فارغة بصوته يستمع لها أثناء دوامه أو قضاء حوائجه، واستمر على ذلك زمناً طويلاً من عمره. وتنقَّل بين شروحات الشيخ الصوتية والمقروءة لبعض فنون



العلم الأخـرى، وهو يقول لـك ويوصيك من خلال تجربته: لكل عالم فنه الخاص به، ومن فقهك أن تركِّز على ذلك الفـن عند صاحبه وتمنحـه وقتك، وتعدد وسائل الفائدة منه حتى تبلغ منه أمانيك.

تابع الطلب على شيخه من خلال حضور دروسه في العشـر الأواخر من رمضان سـواء تلك التي تقام بعد صـلاة التراويح أو دروس ما بعـد الفجر، وبقي على ذلك مدة طويلة من عمره. ثم واصل ذلك الطريق من خلال تفريغ الأشـرطة الصوتية علـى متون أهل العلم فنسـخ كتباً كاملـة في هذا الشـأن، وفي فنون مختلفة ولعلماء فـي تخصصات أخـرى كلٌّ في فنه الذي يحسنه وتخصصه المبدع فيه، ثم اهتم بعد ذلك بشروح العلامة عبد الكريم الخضير الفقهية والحديثية على وجه الخصوص، فانتفع كثيـراً بتواضعه وتقدير أهل العلم، وتحرير المسائل، وحفظ اللسان، ومعرفة مداخل الشـيطان، وهكـذا ينبغي أن تكـون دروس الكبار، وما ينفع فقه مسـألة دون أثر من خشـية في قلب صاحبها؟!



من أعظم فواتح التوفيق عليه في مسيرته العلمية أنه عني باختصار الكتب وتلخيصها وترتيبها، وكان باكورة هذا العمل وأصله وذروة سنامه الشرح الممتع على زاد المستقنع لشيخه ابن عثيمين رحمه الله تعالى، فقد اختصره ولخَّصه في بداية الطلب من كتاب الطهارة إلى كتاب الإقرار، يدوِّن المسألة ويضبطها بدليلها والراجح فيها، والقواعد والضوابط الناظمة للأبواب والمسائل، وركَّز على هذا الكتاب في بداية الطريق وعني به بعد ذلك قراءةً ونظراً ومراجعةً وزيادةً ونقصاً حتى تكوَّن له كتابه: (بداية الفقيه)، وفيه مسائل كل باب بأدلتها وقواعدها وضوابطها الفقهية من أول الفقه إلى آخره، ثم توسَّع بعد ذلك فكتب كتابه: (كفاية الفقيه)، وفيه أصول مسائل كتابه (بداية الفقيه) مع توسُّع في المسائل، وذكر للأدلة، وعناية بأقوال الأئمة المحققين، ورصد للمسائل المعاصرة، وذكر إجماعات العلماء، ثم تحوَّلت كل قراءاته المنهجية في كتب أهل العلم بعد ذلك إلى سقاء لهذا الكتاب، فجرد تراث ابن تيمية وابن القيم، والنووي في

صحيح مسلم، والفتح لابن حجر، والتمهيد لابن عبد البر، والمحلى لابن حزم، والمغني لابن قدامة، وكتب الأصول والقواعد وشروحات أهل الفن، وكلما وجد مسألة أو إجماعاً أو قاعدة وضابطاً أو فائدة وضعها في كتابه (كفاية الفقيه)، وبقي هذا الكتاب في النهاية مرجعه الذي يرافقه في حلِّه وترحاله، وسفره وغربته، وليله ونهاره، وقد قرر فيه ورداً يقرؤه في كل يوم لا يتخلَّف عنه، ويختمه كل ثلاثة أشهر ويعود إليه من جديد، ولا سبيل إلى ضبط فنِّك الخاص ومشروعك الكبير ومجالك إلا من خلال هذا التركيز، وإلَّا ذهب عمرك في قراءات متناثرة لا تسمن ولا تغني من جوع، والله المستعان! ثم رأى بعد ذلك ضرورة وجود كتاب مختصر على شكل متن فأنشأ كتابه: (بُلغة الفقيه)، ويحسب أن هذه الكتب الثلاثة: (بُلغة الفقيه)، و (بداية الفقيه)، و (كفاية الفقيه) طريق سالك بطالب العلم إلى أمانيه في هذا الفن من فنون العلم، والله المستعان وعليه التكلان.

واصل مشروع اختصار الكتب وتلخيصها في علم التفسير فصنع تفسيراً لكتاب الله تعالى من



(الفاتحة) إلى (الناس) وكتب عليه تدبرات إيمانية وفكرية وسلوكية تعين الراغب في تدبر كتاب الله تعالى على أمانيه، وأسماه: (رحلة تدبر)، واستمرت فكرة التلخيص والاختصار فأتى على تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم اختصاراً وتهذيباً وترتيباً، ثم أتى على تراث شيخه الشيخ وليد السعيدان خاصة في الأصول والقواعد بذات الفكرة، وهو إلى تاريخ هذا الحرف ما وجد كتاباً يستحق الاحتفاء في بابه إلا لخَّصه واختصره، وبان له مع الأيام أن ثمة كتب تُقرأ مرة، وكتب تقرأ مرتين وثلاثاً وعشراً، وكتب لا تفارقك مدى الدهر، وحقُّها أن تختصر وتُلَخَّص وتبقى معك ما بقي الزمان!

وكان من منهجه في ضبط العلم أنه يؤلِّف في ذات الفن، فبدأ بكتاب الله تعالى فألَّف فيه كتابه: (القرآن وصناعة الدهشة)، ثم كتاب: (علَّمني القرآن)، وألحق به كتاب: (الخارطة القرآنية)، ثم ألف كتابه الكبير: (رحلة تدبر) وهو في ستة مجلدات كبيرة فسَّر فيه كتاب الله تعالى كاملاً، ودوَّن فيه من اللطائف



والنـــكات العلميـــة والقضايـــا التربويـــة والفكريـــة والســـلوكية ما يغنيه عن قراءات كثيرة في هذا الفن، وعلى ذات الطريق قرأ كل ما وقع تحت يده من كتب الســـيرة النبوية وألف من خلال ذلـــك كتابيه: (حين أضاء الكون)، و(مَنْ غيَّر مجرى التاريخ)، وقد دوَّن فيهمـــا كل ما يحتاجه مـــن كتب الســـيرة النبوية من الميلاد إلى الوفاة بما في ذلك الشمائل والخصائص، ومثل ذلك كتابه: (صُنَّاع الحياة) الذي استعرض فيه سيرة الخلفاء الراشـــدين، ثم كتابه: (علَّمني التاريخ) الذي تعرَّف من خلاله على حقب التاريخ من ســـير الخلفاء الراشدين إلى الدولة الإسلامية، وما زال على ذلك المنوال، ولو حدثك عن آثـــار ذلك في تكوينه العلمـــي لما وســـعت لذلك صفحـــات، وكلٌّ أعرف بنفسه وحاله وما يصلح له، والله المستعان!

قرر أن كل متميِّز في فن فهو شيخه، فيمَّم وجهه إليه واســـتمع إلى طرحـــه العلمي واقتنـــى صوتياته المســـجلة في ذلك الفن، فكان يستمع ويكتب معه، وبنـــى مـــن خـــلال ذلك قصـــة تلميـــذ مع شـــيخه



ولو لم يره. وكل ذلك منــه مغالبة للبيئة القروية التي عاش فيها، وهــو يقرر لك بهذا المعنــى أنه لا يليق بطالب علم وصاحب مشروع أن يبقى رهيناً لبيئة أو صحبة أو رفقة مهما كانت تكاليف الطريق.

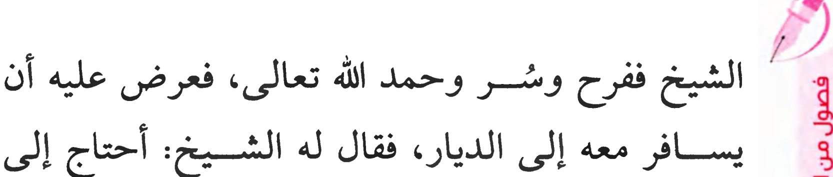
تعلم زمناً من عمره على يد شيخه أبي عبد الله عمر أحمــد آل زعلة ـ حفظه الله تعالــى ـ في الفترة التي جــاء فيهــا معلمــاً فــي المعهــد العلمي في المحافظة، وكان حينها أكبر من شيخه، واستفاد كثيراً من همَّتــه وجلده وتضحياته فــي الطلب، وكوَّن من خلاله مكتبته الحديثية الخاصــة، وفي ذات الطريق أخذ علم الفرائض على شيخه الكبير في علمه وأدبه وســمته الشــيخ ناصر بن أحمد الكنانــي، وهو من الكبار الذين لا يختلف اثنان على تواضعه، وقد فتح الله تعالى عليه فــي الفرائض خاصة مــع ما آتاه الله تعالى من العلم، وله جهود مباركة مشكورة في هذا الباب وغيره من أبــواب البر والفضل والإحســان، وأعجب ما فيه صمت وحســن أدب وخشــية، وهي أعظم ميراث لطالب العلم.

أدرك بعد زمن من الطلب حاجتـــه الملحَّة لتعلُّم اللغة العربية فبدأ بطلبها على يد معلمه اللغوي الأديب أبي شامي عطية العقيلي، وقد صحبه زميلاً في فترات العمل في مركز الإشراف، وما زال يحثُّ معلمه وشيخه ويغريه بكتابة سيرته وتجاربه، وقد آتاه الله تعالى حرفاً ملهماً، وأدباً ذائقاً، ولغةً مدهشـــةً وتلك منن الله تعالى على عبـــاده غير أن هـــذه اللقاءات لم تســـتمر طويلاً، وما زال راغباً بهذا التخصص جاداً في تحصيله، وكان يدعو الله تعالى في الليل والنهار أن يمنَّ عليه ويكرمه ويفتح له في هذا البـــاب من أبواب العلـــم، وما أكثر ما كان يدعو في يوم عرفة وفي ساعة الجمعة والسحر! حتى جرت له أحداث تلك القصة مع شـــيخه ومعلمه مقبول الأهدل، معلم حاذق ذكي يمني الجنسية، وكان لذلك اللقـــاء قصة تدلك على لطـــف الله تعالى وكرمه وتفضله على عبده يحكي لـــك أحداثها كما جرى بها قدر الله تعالى في تلك الحال.

تواصل قبـــل هـــذا اللقاء مـــع أحد المشـــايخ المتميزين في مصر وأبان له عن شدة رغبته في تعلم



هذا الفـن، واتفق مع الشـيخ على أن يأتـي به إلى السـعودية، وبذل كل ممكن، ولكن لم يتيسر للشيخ الوصول، فاتفق معه على أن يسافر إليه ويتم هذا الفن على يديه في مصر وبينما هو يرتب للسفر إلى هناك ذهب إلى مكة للعمرة، بعد نهاية العمرة توجه لأحد المطاعم للغداء، فـإذا بهذا المعلم علـى طاولة من طاولات المطعم ولم يكن يعرفه قبل ذلك، وحين مرَّ بجانبه قال له ذلك الشيخ الجالس: فلان؟ فالتفت إليه وقال له: نعم، فلان! فقال لـه: معك مقبول الأهدل، ولم يكن يعرف الشيخ رغبته في تعلم العربية، ولا هو يعرف شـيئاً عنه قبل ذلك، ودار حديـث في دقائق معدودة: أنـه جاء إلى الديـار وكان يرغب في تعليم كتاب الله تعالى وأن لديه علماً وخبرة متينة في اللغة العربية فكأنما لامس جرحاً غائراً في جسـده فالتفت إليه وقال له: تضبط اللغة العربية؟ قال: نعم، ففتح له المصحـف وقال له: أعـرب! والأشـواق في مرات تذهب بأدبك، وما كان له أن يفعـل ذلك لولا تلك الأشـواق التي تغمر مشـاعره حباً للعربية، فأعرب



الشيخ ففرح وسُــر وحمد الله تعالى، فعرض عليه أن يســافر معه إلى الديار، فقال له الشــيخ: أحتاج إلى ترتيب وضعي ورؤيــة رفاقي، فقال له: تســتطيع أن ترتب وضعك الآن وتبلِّغ رفاقك ولن أعود إلى الديار إلَّا بك، فوافق الشيخ جزاه الله تعالى خيراً على أدبه، فعادا في ســيارة واحدة والأفراح تأخذ مداها في قلبه ومشــاعره، وفي الطريــق كلَّم الرفاق: الشــيخ خالد الكناني، والشــيخ شــايع الغبيشي، والشــيخ عامر العمري، وإنما خص هؤلاء لأنهــم رفقة الطريق من جهة، وكلهم متقاعدون من جهة أخرى، واتفق معهم على درس يومــي في بيته، بــدأ بالآجرومية وانتهى بشــرح قطر الندى فتفتح ذهنه وعرف كثيراً مما كان يجهله، وقد كان الشــيخ ضابطاً في ذلك الفن، وركَّز له ولرفاقه على التطبيق حتى كانوا يعربون من كتاب الله تعالى، ثم توقف الدرس بعد ذلك، ولكن نهمه لم ينته بعد وأخذ يقرأ ويجمــع كتب النحو ويطلع على تجارب الآخرين في ضبط هذا الفن، ويكتب ويلخص ويحفظ ويحاول ويجهد، وبينما هو ذات مساء يقلِّب



في (اليوتيوب) عن مشاهد من هذا الفن وقع على درس للشيخ (محمد غريبو)، مبدع وملهم في ذات الوقت، وحاول جاهداً حتى وجد له بريداً إلكترونياً وراسله وأبدى له شغفه بالعربية ورغبته العارمة في تعلمها وضبطها وسأله أن يوافق على درس يومي فيما يراه من كتبها، فوافق الشيخ وبدأ الدرس عن طريق النت (الزوم)، وكان للشيخ دروس ودورات ومذكرات وطريقة خاصة في التدريس مرفوعة على النت تحت اسم: دورة النحو التأسيسية (أنا أستطيع)، وقد آتاه الله تعالى فناً وجمالاً وذوقاً وطريقة ملهمة في تقريب المعلومة، فكلَّفه في بداية الطريق بالاستماع إلى ما يزيد على خمس وعشرين مادة صوتية وطلب منه أن يستمع إليها، فأقبل عليها ووجد فيها ما كان يبحث عنه واستلذ الطريق بها ومعها حتى تمَّت له، ثم أخبر شيخه وتم اللقاء اليومي بعد ذلك، وما زال به حتى أتم تلك المذكرة شرحاً وتطبيقاً ففتح الله تعالى عليه، وعرف الطريق، وأدرك من أين يأتي القوم، ووجد بعض آثار تلك اللذة التي يبحث عنها،

ثم عكف على كتب أهل الفن واختصر ورتب وجمع ولخَّص حتى تمت له مذكرة فـــي كل ما يحتاجه من مباحث هذا العلم، وهو يقرأ فيهـــا ويراجع بين فينة وأخرى ويقلِّب بصره في أبوابها، ويسأل الله تعالى أن يجري له هذه المعاني كما يريد.





قصة المشاريع

(مشروع التنمية الشخصية)

(الأصل أن يكون لك مشروع عمر واحد، ولكن إذا غالبك الشوق على فن آخر، وكان لديك فيه طاقات وقدرات، ولم يؤثّر على مشروعك الأساسي واستطعت أن تضع لك فيه بصمة فلا حرج).

بدأت قصة هذا المشروع مبكراً في حياته، وهو السبب بعد توفيق الله تعالى له في عناق كثير من الأفكار الحية في واقعه، ويذكرك بأنه لم يأت إليه هاوياً من بداية الطريق، وإنما وجد رغبةً وميولاً فأقبل عليه وبذل فيه وقتاً وجهداً ففتح الله تعالى عليه، ومثل ذلك مشروعه الأساسي: (العلم الشرعي) لم يتكون حبه وشغفه إلا بعد عناء الطريق، فلا يأت إليك أنك إذا أردت فكرتك الملهمة ومشروع عمرك وشغفك أنك ستلقاها من أول الطريق وفي باكر المحاولات. عليك أن تجهد أولاً بكل الوسائل الممكنة، ثم تبدأ

بداية جادة وتواصل الطريق، وتلـحَّ في الدعاء حتى يفتح الله تعالى لـك، فالقضية أجلُّ من أن تجدها في عارضة الطريق أو من أول المحاولات.

نشـأت العلاقة بهذا المشـروع من خلال دورة تدريبية في البرمجة العصبيـة، ولم يكن وقتها يعرف هذه اللغة وإنما دخلها هاوياً للتدريب وبمشورة أحد الفضلاء مع كلفة مبلغها، وكانت أربعة عشـر يوماً، وتعرف حينها على قصة الأوهـام والخرافة والدجل والعبث في واقع النـاس، وهي لا تعدو عنده قصص النساء التي تُروى عند مغالبة الصغار للنوم!

قضى أربعة عشـر يوماً في تجربتـه الأولى في التدريب دون استمتاع عدا بعض لقطات العرض التي كانت تتحدَّث عن النجـاح. وكان محورهـا ودائرة تركيزها تغيير سلوك الإنسان من خلال التمرين، وبناء عادة إيجابية من خلال تمزيق ورق وأحلام نائم!

كانت هذه الـدورة بداية المشـروع الثاني في حياته (مشروع التنمية الشخصية) وفتحت عينه على



كتب هذا الجانب والتخصص والمجال، وبدأت علاقته بهذا الفن، واستفاد من تلك البداية وتشكَّلت فكرته وبدأ طريقه، وفي مرات ليس بالضرورة أن تجد كل شيء، ويكفي ما يفتح الله تعالى لك من آفاق الطريق.

أتى في تلك الرحلة على كثير من كتب هذا المجال، ووجد في الكتب المترجمة شيئاً نافعاً، ووجد عوارض في الطريق، ولكن التجربة التطبيقية في الغرب أكثر من غيرهم، فأخذ ما ينتفع به ودفع كل عارض، وهو مدين لتلك الدقائق التي جرت في فلك ذلك الفن، وهي سبب نضج كثير من أفكاره، ولما وجد تلك الكتب الغربية كان واعياً وعلى علاقة متينة بالوحي فاستفاد منها ووظفها فيما ينفعه، ويحسب أنه بنى لك الطريق كاملاً واضحاً من خلال مؤلفاته في هذا الفن: (ابدأ حياتك من جديد، وصناعة التغيير الشخصي، وكيف تبني عاداتك الإيجابية، ومشروع العمر، والتركيز، وقصة حلم (التخطيط الشخصي وإدارة الأولويات)، والقراءة والأسئلة الناهضة،



وميلاد فجر)، وتقـرأ على أربع مراحل كما سـيأتي لاحقاً في فكرة المشروع الكبير الذي بناه لنفسه.

بدأت قصة التدريب في حياته في عام (١٤٢٥هـ) بدورة صناعـة النجاح، وهي باكـورة قصة التدريب وذكريات التغيير ورحـلات البحث والتجديد، وكان تلك الفتـرة مشـرفاً للتدريـب التربوي فـي مركز الإشراف التربوي بحلي، وكل ما تراه من أحلام مثيرة فـي حياته اليوم فتلـك الدورة هـي ميلادها الأول، وذلك الزمن هو أول أحداثهـا، وتلك اللحظات هي نقطة البداية فيهـا، وهكذا هي الحيـاة تظل الخطوة الأولى في أي مشروع ثمينة ومثيرة في ذات الوقت، ويقف كثيـرون دون هـذه الخطوة وتقـف في ذات الوقت أمانيهم مدى العمر.

علينـا أن نؤمـن أن الخطوات الأولـى مكلفة، وتظل تمثِّـل تحدياً كبيراً أمام صاحبهـا، ولكنها كل شيء، وكم من مشاريع ماتت لفوات حظ هذه الخطوة منها، وكم من مشاريع قامت بأحداثها وهي اليوم كل شـيء، فتهيَّأْ لتلك الخطوة وكُنْ في مستوى الحدث



ودعْكَ من التردد، وإيَّــاك والجبن والخوف، وجرِّبْ وحاوِلْ حتى يأذنَ الله تعالى بانبلاج الفجر وســطوع الشمس في حياتك من جديد.

شاركَ في برامج كثيرة أيام ميلاد التدريب في المملكة، وأفاد منها كثيراً، وقد تحوَّل التدريب في تلك الفترة إلى ســوق يبــاع فيه كل شــيء دون ضابط، ويستقبل كل بائع دون برهان، ويخبرك أنه في تلك الفترة دخل دورات تدريبية وخرج من أول نصف ســاعة فيها وقد دفع فيها ماله وتركه صدقة لأصحابه حتى لا تتكرر مشاهد الفوضى في حياته، وكم ممن تُضرَب إليه أكباد الإبل في تلك الحقبة وتدفــع لــه رواتــب موظفين فــي يــوم ويومين ولا يستطيع أن يقرأ آية، أو يضبط حديثاً من الوحي وهو يتكلم عن إدارة الأولويات واستثمار الأوقات وصناعة المشاريع!

(مدرب معتمد) من الأوهام التي عاشــها سوق التدريب في تلك الفتــرة، وإذا أردت أن تلبس ثوب الزور في التدريب في تلك الفترة فليس عليك سوى



أن تدخل دورة في ثلاثة أيام أو خمسة وتدفع حفنة من الريالات لصاحبها، ثم ما تلبث أن تلبس ثوب الشهرة دون جهد أو عناء، المهم أن تدفع مالاً ليورق لك الواقع وتزدان لك الحياة.

جزء كبير من تلك البرامج والدورات كان المال هدفها الكبير وهي في حقيقتها عبارة عن شرائح (بوربوينت) ومعلومات جُمعت من خلال النت، ثم صنع لها صاحبها عنواناً مورقاً كدورات: (التخطيط، وكتابة الأهداف، وميزانية الأسرة، وبناء الرسالة والرؤية، وإدارة المشاريع) وغيرها، فأخذ بها ومن خلالها ما يريد من الأموال، وغالب هؤلاء الذين يقدمون تلك البرامج ربما لم تنتظم له صلاة الجماعة بعد، وليس له مشروع تطبيقي، ولا أثر لتلك الرسالة والرؤية والأهداف التي يتحدث عنها. ومن الطرائف: وصله عنوان لدورة تدريبية عن الرسالة والرؤية لمدة ثلاثة أيام وبتكلفة خمسة آلاف، فعاد لكتاب إدارة الأولويات (استيفن كوفي) فوجد عناصر الدورة هي فهرس الكتاب، فأدرك أن صاحب الدورة سيحوِّل

كتاباً بعشرين ريالاً إلى خمسة آلاف وفي ثلاثة أيام! ولكل عمل شِــرَّة، وشِــرَّة تلك الفترة التدريب! ثم جرت عليه سنة الله تعالى التي تجري على كل شيء فقلَّ كثيراً أو كاد يتوقــف بالكلية! وكأن تلك الصور لم تكن في الساحة يوماً ما!

التخصص في التدريب مطلــبٌ مُلِحٌّ وهو دليلٌ على ثقافة صاحبه وأناقة فكره وســلامة رؤيته، ومن أدواء النهضة مَنْ يدعي المعرفة في كل شــيء! وقد حرص على أن يتخصص في برامــج التنمية الذاتية، وهي في الأصل عبــارة عن مؤلفاتــه المطروحة في الســاحة، ويبذل قصــارى جهده ليكون قــدوة فيها، وكثيراً ما دُعي إلى غيرها ولديــه القدرة فيها فاعتذر إيماناً منه بالتخصص، ودعوة للتركيز.

عاش أكثر حياته لفكرة (مشروع العمر)، وأوقف نفسه على استنهاض همم أجيال مجتمعه ووطنه وأمته وبناء وعيها وحفزها علــى العمل وإقناعها بما تملك من طاقات وقــدرات ومهارات وإمكانــات، وبعث أرواحهــا للتضحية من أجــل فكرة ملهمــة وقضية

تســتحق الحياة، ولو لم يكن من الحياة كلها إلا هذا الهتاف المشاعري والوجداني لكفاه ما بقيت الدنيا!

(مشــروع العمر) فــي التدريــب كان هو أصل الفكرة، وبقية الدورات إتمام للفكرة ذاتها، وعنده أن فكرة المشروع هي أصل كل صناعة، ومن وجد حظاً منها كتب له القبول في مشاريعه الأخرى.







التأليف

(إياك ألف مرة أن تأتي إلى مشروع التأليف وأنت لست من أهله ولا من أصحاب فنه).

بدأت فكرة التأليف لديه مبكرة على إثر موهبة، فقد كان يكتب قبل ذلك في جملة من الصحف، وشارك في مجلة المعرفة التي تصدرها وزارة التربية والتعليم، والتأليف فنٌّ إذا لم يكن لك في الأصل قدرات وتملك مهارات تحتاج إلى تنمية وتركيز، فلا تنشغل بفن غير فنك ولا مجال غير مجالك، وليس بالضرورة أن تكتب وتؤلِّف، وكم من وقت ضاع في محاولات لا علاقة لها بالطريق من أصله.

انتقل في (١٤٢٠هـ) من الكتابة الصحفية إلى التأليف فكتب: (رسائل دعوية)، و(رسائل محب)، و(بستان الفوائد)، و(اللطائف الروحية في الدروس



الرمضانية)، طُبع اثنان منها في دار القاسم، وآخران في دار الوطـــن، وتوقَّفت عنـــد الطبعة الأولـــى وتلك هي طبيعة البدايات، وتمنى أنه لم يكتب مبكراً، وهو يقول لك بعـــد طول زمـــن: لا تعجـــل على نفســـك واعتنِ بتأهيلها، واجهد في بناء ثروتك اللغوية، وسيأتي حرفك متيناً وقادراً على الصمود والتأثير في مستقبل الأيام.

عاود التأليف عـــام (١٤٣٠هـ) بكتاب (ابدأ كتابة حياتك) في دار القلم، ونفع الله تعالى به، وتوسَّع أثره، وطبع طبعات متتالية، وهو القاعـــدة التي وقف عليها بعد ذلك في كل ما كتب، وتعلَّم من خلاله أن كتابك الأول هو الذي يمثل قاعدتك الكبرى فيما بعد.

لتأليف (ابدأ كتابة حياتك) قصة: وهو أنه دخل بيت والـــده فوجد الأخـــت تقرأ في كتـــاب غربي، فســـألها: ولم هذا الكتاب بالـــذات؟ فقالت: يحظى بشعبية كبيرة بين بنات الكلية، وقد كانت تدرس في كلية المعلميـــن بالمحافظة، فأخـــذه وتصفحه وقرر حينهـــا: تأليف كتابه (ابدأ حياتـــك من جديد) ذلك المســـاء، وعكف عشـــرة أيام متتالية حتى أتى فيها

على نهاية الكتاب، وكم من موقف، ولقاء، وكلمة كانت سبب كثير من مشاريعه بعد ذلك، وهو مدين لكثيرين في أفكاره ومفاهيمه التي خرجت من آثار تلك الرسائل والكلمات.

كان تأليف الكتاب متزامناً مع إقبال الناس تلك الفترة على كتب النجاح والتنمية الشخصية، فجاء في وقته المناسب، وإذا أردت أن تصنع مبادرة متميزة في فنك ومجالك فاقرأ واقعك بعناية، وضَعْ له شيئاً ملهماً، وستأتي على أمانيك من ذلك الفن كما تشاء.

كتابك الذي تدوّن حرفه جزء من شخصيتك، فهبْ فيه من روحك وقلبك ومشاعرك، وليكن ترجمة لأحداثك في الحياة، وقد بلغك أن النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجرة، فليكن ذلك منك على بال.

من فقهك وكمال وعيك في التأليف أن تعتني بأول مؤلف لك غاية عنايتك، فهو عنوانك وصورتك الأولى وشخصيتك في أول لقاء، وكل ما يأتي بعده فهو أثر له، فتأمل أول خطواتك بعناية ودعك من عجلة لا تجني منها سوى الضياع.

جمعه الله تعالى ذات مرة بفضيلة الشيخ عبد الله الشهراني رحمه الله تعالى في لقاء عارض حضر منه آخر خمسة عشر دقيقة طرح فيها الدكتور فكرة (مشروع العمر)، فتأثر بالفكرة وعلقت بقلبه ومشاعره من تلك اللحظة وخرج متأثراً، وإذا أراد الله تعالى أمراً أجرى له الأسباب، فلله ما أعظم لطائفه تعالى على عبده وكرمه عليه! وحين عاد إلى بيته تواصل مع الدكتور عبد الله الجاسر ـ وفقه الله ـ وكان حينها مرافقاً للشيخ فسأله عن فكرة المشروع التي تكلم عنها الشيخ، فألقى إليه ببعض ما سمع ودوَّن ما قال، ثم طواها في مكتبه وبقيت زمناً حتى أحيا ذكرها فضيلة الدكتور حامد الفقيه أحيا الله قلبه، ومَدَّ في عمره وأجرى له التوفيق في كل زمان ومكان، ولله كم لهذا البطل من أفضال على صاحبه! وكم له في هذا المشروع من آثار! وقد دفع له كل ممكن من وقته وماله وفكره حتى أقام الله تعالى له شأناً في العالمين. اتصل به وسأله عمَّا صنع في تلك الفكرة، فأخبره: لا جديد، وأنها ما زالت في مكتبه، فذكَّره بأن يبدأ ويتوكَّل على ربِّه ويسأله مُلحّاً،



فأجرى الله تعالى لقيامها سـببًا آخـر فجرت أحداثها كما يشـاء، وخرج الكتاب في صورته الأولى، وطبع بعد ذلك طبعـات كثيرة بتوفيـق الله تعالى وما زال، ونتج عن ذلك دورات تدريبية، وسُـجل في حلقات تلفزيونيـة، وإذاعية، ونُشـرت بعـض مفاهيمه في الصحـف، وأصبـح اليوم ماثـلًا من خـلال ثلاثة مسـارات: مسـار الكتاب، ومسـار تقني، ومسـار الـدورات التدريبيـة، وكل هذه الأعمـال والجهود والأوقات والأموال التي بُذلت في سبيل هذه الفكرة تؤمن بأن بناء الإنسان هو حجر الزاوية في أي تغيير يراد على مسـتوى الأمم والأفراد، وأن التركيز على أفـكاره ومفاهيمـه أول أدوات النهضة فـي واقعه، ولا يأتي هذا إلا من خلال حفـزه وإقناعه بما يملك من طاقات وقـدرات وإمكانـات، وتوجيه كل تلك الطاقات والقدرات والإمكانات في تخصص ومجال وتوجُّه يمثل فكرته المِلهمة ومشروعه العمري وقضيته الكبرى في الحياة. ويحسب أن عيشه كفرد على هذا المعنى كافٍ لصناعة أثر يبقى ما بقي الزمان!



الأفكار الحية كفيلة بتحريك الإنسـان، وتغيير مفاهيمه، وبناء ذاته، وتكوين واقعه الكبير في مستقبل الأيام! ويزعم بأنه عـاش حياته كلها وهو يناضل من أجل هذا المعنى، ويؤكـد عليه، ويفتح آفاقه، ويجهد من أجل إقناع الآخرين به، وفكرة المشـروع أثر من هذا المعنى الكبير.

يأسـره فـي هـذا المعنـى العلّامـة بكـر أبو زيد رحمه الله تعالى فلا يـكاد يختلف علـى جلالة علمه وروعة قلمه أحدٌ من أهل الشأن، ومع ذلك لا تجد له كلمة مسجلة بصوته، وإذا فتح الله تعالى لك في فـن فالزمه وكـرِّس وقتك لـه واجهد فـي بنائه، وستأتي لحظات الفرح بنهاياته يوماً ما، ودعك من ركوب كل صعب؛ فإنك لا تكاد تترك شـيئاً يبقى طويلاً على مرِّ الزمان.

فكرة أن تدع لك إرثاً وتترك لك مشروعاً فكرة مدهشة، وينبغي لك أن تغالب زمانك بكل ممكن، ولكـن إيـاك أن تأتي فـي غير تخصصـك وفنك ومجالك وعشـقك فيضيع زمانك دون شيء، وكم

من كتاب مات بمجرد خروجـه! وإذا لم تكن من أهل هذا الفن فلا تزرِ بنفسـك في ربوعه، ومثلك أوعى بالدرس.

إذا لم تكن قارئاً نهماً، وعلى صلة متينة بالكتاب فإياك وتسوُّر المحاريب! الكتابة فرع عن القراءة، وإذا لم يكـن حبلك بهـا قوياً متينـاً فدعك مـن أماني الكسالى القاعدين.

المؤلفون المؤثرون قُرَّاء متميزون، ومن لا يقرأ لا يمكن أن يصنع لحرفـه بهجة في قلوب الناظرين، والأفكار الحية التي تتوارد على ذهـن الكاتب الفذ إنما تولد من محاريب الكتب.

تجاوزت كتبـه ما بين مطبوع وتحـت الطبع ومخطوط الأربعين حتى الآن، كتبها كلها بيده وجهد عليها بنفسـه من الفكرة إلى خاتمة الكتاب، وليس لديه لجنـة ولا مُعين في كل تلك المشـاريع، وإذا قلت له: كيف تمت له تلك المؤلفات؟ فسـيجيبك ما من عبد ينطـرح بين يـدي الله تعالـى ويذل له

ويتخلى عن حوله وقوته، ويقبل عليه داعياً في الليل والنهار أن يبارك له في عمره ووقته ويعينه ويسدده ويفتح عليه إلا جرت له تلك المعاني بأوسع ما يكون، والله تعالى كريم عظيم، وإذا فتح على عبده في شيء أدهشه بما لم يكن له على بال، ومن هو لولا فضل الله تعالى ورحمته وكرمه وعطاؤه وإحسانه جلَّ في علاه؟! وقد أخذ بسنن الله تعالى مع توكله فأمسك بزمام وقته وصيَّره لصالح فكرته ومشروعه، وتخلى عن كل الصوارف التي تقف في عرض الطريق، وكان صارماً في التعامل مع وقته فلا يكاد يخرج من بيته، وتخفف من كثير من الارتباطات، ويقضي وقته من الفجر إلى وقت نومه على مشاريعه، لا يصرفه عن ذلك شيء، وإذا بدأ في مؤلَّفٍ فإنه يصرف له يومه وليلته وساعاته ودقائقه، ولا يلتفت إلى شيء غيره البتة، حتى أنه إذا سافر أخذ جهازه المحمول معه وكَتَبَ في ذات فكرته ذهاباً وإياباً، وبعض الكتب أتمها في طريق سفر، وبعضها أتى على جملة من أبوابها في طريق البر،



وبعضها في الجو وبعضها في أفنية المطارات، وكَتَبَ مقدمة كتابه: (رحلة تدبر) ـ ستة مجلدات ـ في مطعم في ربوع مكة، ويبقى زمناً طويلاً مكباً على ذات الفكرة حتى يوردها النهايات.

هو مدين في كل مشاريعه التي خرجت لأبي أحمد الشيخ شايع الغبيشي فلا يعلم مشروعاً إلا وله فيه أثر، وهذا الصديق من أوسع الناس قلباً ولطفاً واجتماعاً وعاطفة، ومثله لا يختلف اثنان على طيب قلبه ومشاعره وجمال خلقه وأنسه في لقاءات المحبين، وهو في ذات الوقت صادق ناصح، وكم مرة خالف رأيه في مشروع ثم عاد له في النهاية! ومثله أبو سعود أحمد الصابطي الشاعر الأديب، وكم له من أيادٍ كبيرة على كتبه ومؤلفاته، وأبو سلمان د. محمد العلوي الذي تأتي منه على أمانيك في أحلك ظروفه وأشدها زحاماً، يستمتع وهو يخدمك، ويغرق في مشروعك ولو على حساب صحته، ويهبك من مشاعره ما يفيض عليك بالنجاح، وإذا طالت شقة الطريق وأراد الحديث في مباهج الحب تواصل معه

وقضى وقتاً ممتعاً. فضلاً عن رفاق أول الدرب عيسى جعدان العمري، ويحيى الحادثـــي، فجزى الله تعالى كل من بذل من وقته وفكره، وجهــد ألا تخرج هذه المشاريع إلا في أجمل حللها ومباهجها، أما صاحب الأنس الخـــاص والــذي يخالط روحك ومشـــاعرك ويضفي لك جواً خاصاً ويســـامرك في ذات المعاني، ولا يعرف ســـوى الفـــأل والأمل والجمال، يحســـن تشـــجيعك ويبعث فيـــك أحاديـــث العمـــل والبناء، ويحسن الإضافة على فكرتك، ويخلق حولها فصولاً من الجمـــال، ثم إذا رويـــت في مشـــاريعك الجادة وأحاديث البنـــاء الملهمة عـــاد لمشـــاعرك الخاصة وأضفى عليها فصولاً أخرى من الجمال فهو أبو حور فهـــد الغفيلي حامل لواء المشـــروع البنائـــي للمرأة، ومؤلفاته شواهد على ثقافته الشرعية ومكنته اللغوية، ومعرفتـــه الواقعيـــة، فيالجمـــال روحـــه وأناقة فكره وعذوبة روحه فلا حرمنا الله تعالى وفاء المحبين.







كيف بنى مشروعه الفكري؟

(كل صاحب مشروع ليس لديه رؤية للبناء ولا يؤسس فكرة للبقاء ولا يترك إرثاً للأمة في مستقبلها فإنه لا يملك مشروعاً قادراً على الحياة)

- هو في الأصل مؤمن إيماناً لا حدود له بأن حياته عبارة عن مشروع، وهذا الإيمان بعد توفيق الله تعالى له هو الذي صنع فارقاً في مستقبله مع الأيام، وعاش على هذا عمره وما زال!

- **بنى لمشروعه الشخصي خارطة طريق:** بدأت هذه الخارطة من خلال إيمانه العميق بأن الإنسان هو قاعدة التغيير، وأن الفرد نواة ذلك المعنى الكبير، وأعظم وسائل التغيير: الأفكار والمفاهيم والتصورات، وهذه الخارطة بمقوماتها الثلاثة كافية لتحقيق مشروعه وآماله الكبار.

الخارطـة تسـير في طريقيـن: طريـق كلي وهو ما يحتوي على المنظومة الفكرية الكلية كاملة ومستوفية كل مراحلها، **وطريق جزئـي** وهو ما يقتصر على بعض تلك المنظومة الفكرية، ويكفي لصناعة أصحابها.

بدأ مشروعه الأول مشروع التنمية الشخصية مشروع تأهيل الإنسان للعمل والإبداع وصناعة الحياة، وخرج له في هذا الجانب ثمانية كتب تمثل هذه الجوانب:

ثلاثة من الكتب تمثل البناء الذاتي وقاعدة الانطلاق: (ابدأ حياتك من جديد، وصناعة التغيير الشـخصي، وكيف تبني عاداتك الإيجابية؟)، **وثلاثة أخرى تصنع الفاعلية:** (مشـروع العمـر، والتركيـز، وقصة حلم: التخطيـط الشـخصي وإدارة الأولويـات)، **وكتابان يمثلان الروح الموقدة لتلك الآمال:** (القراءة والأسئلة الناهضة، وميلاد فجر).

قامت فكرة المشروع على أربعة مرتكزات:

- **الأول: أن إعداد الإنسـان لنفسـه ضـرورة كبرى، ولا سـبيل لاسـتنهاض أمة أو تغيير واقع أو تحريك**



مجتمع دون إعداد الفرد الصالح للبناء، ولهذا كان على كل إنسـان يريد أن يكون مهماً أن يبدأ بتكوين نفسه ويؤهلها لهـذا المعنى الكبير من خـلال قراءته لهذه الكتب الثلاثة: (ابدأ حياتك من جديد، صناعة التغيير الشـخصي، كيف تبنـي عاداتك الإيجابيـة؟) وهذه الثلاثـة كافية لإعداد الفـرد الصالح لحمـل الأفكار الناهضة والمفاهيـم الكبرى، فإذا تهيـأ لهذا المعنى احتاج لفكرة ناهضة وقضية كبرى ومشروع عمر فيقرأ كتاب: (مشـروع العمر)، الكتاب الذي يؤسِّس لتلك المعاني الكبار، فإذا قرأه وتبنـى هذه الفكرة كان من المهـم أن يُلقى فـي روعه بأن فكرتـك لا تبلغ بك أمانيك الكبار حتى تمنحها كل شـيء، فكان محتاجاً حينها إلى قراءة كتاب: (التركيز). فإذا ما أصبح جاهزاً في ذاته، و قادراً على حمل فكرة ناهضة، ومنحها وقته وفكره وماله احتاج إلى أن يحوِّل تلك المكتسـبات إلى خطـة مرتبة من خلال قراءة كتـاب: (قصة حلم: التخطيط الشـخصي وإدارة الأولويـات) ليتمكن من الجمع بين تلك الأفكار التي قرأهـا والمفاهيم التي

اعتنقها فـي خطة شـخصية قادرة علـى الجمع بين مكونات المراحـل الثلاث: (البنـاء الذاتي، والفكرة الملهمة، والتركيز)، وكل مشـروع لا يسـتكمل هذه المقومـات فلن يصنـع لصاحبه مجده الـذي ينتظره وحكايته التي يود أن يسطّر فصولها في قادم الأيام.

ثم أعانه بعد ذلك بكتابيـن، الأول يمثل القاعدة الصلبـة لبناء مشـروعه وفكرته، وهو كتـاب: (القراءة والأسئلة الناهضة، لماذا تقرأ؟ ماذا تقرأ؟ كيف تقرأ؟)، والثاني: كتاب يواجه به الظروف والمشكلات والأزمات وعوائق الطريق التـي تعرض له، وهو كتـاب: (ميلاد فجر)، وقد سـرد له فيـه ما يعينه على طـول رحلته، ويمنحه فصول الفأل والأمل من خلال أسطره ومباحثه.

ولإيمانه بـأن الفكـرة المركزية في المشـروع البنائي الأول (التنمية الشخصية) هي: (مشروع العمر) فقد عني بها بصـورة مركـزة فجعلها فكـرة وقفية واسـتخرج صكاً بوقفيتها وفتـح لها حسـاباً بنكياً لدعمها حتى تصبح أصلاً ثابتاً، ورسم لها في المقابل خطة محكمة حتى تخرج في أجمل وأدهش صورها



ومعانيها، وهي اليوم في مســـاراتها الثلاثة: (المسار الكتابي، والمسار التقني، والمسار التدريبي) رفعت على الشبكة ويستطيع أي إنسان اليوم أن يتعرَّف على مشـــروعه الشـــخصي من خلالها، ثم يبدأ رحلته من خلال ذلك المعنى الكبير.

• المرتكز الثاني: **يقوم على فكرة أن الإنسان إذا أصبح صالحاً للتغيير وقابلاً لأفكار المجد والنهضة من خلال الخطة المقترحة في المرتكز الأول، فعليه أن ييمِّم وجهه للوحي، ويستقي من خلاله أفكار النهضة والتغيير**، وكل منهج ـ أياً كان واضعه ـ إذا لم يكـــن على علاقة بهذا الوحي فلا قيمة له في شيء، فرسم له خارطة من خلال أربعة من الكتب تعينـــه على فقه الوحـــي وتمكنه من الطريق الصحيـــح: (القرآن وصناعة الدهشـــة، وعلَّمني القرآن، والخارطة القرآنية، ورحلة تدبر).

• المرتكز الثالث: **يقوم على أن ذلك البناء الشخصي وأفكار الوحي الناهضة تحتاج لقدوة صالحة للحياة**، والإنســـان مهما بلغ وعيه وبناؤه يحتـــاج إلى قدوة عمليـــة جرَّبـــت الطريق وخاضـــت معركـــة الأفكار

والمفاهيــم، وواجهت شــتات المعارضين وصنعت واقعاً لتلك المعاني والأفكار، وكانت أعظم شخصية تمثل هذا المعنى الكبير شخصية رسول الله ﷺ ، وقام هذا المشـــروع على كتابين: (حين أضاء الكون، ومَنْ غيَّر مجرى التاريخ؟).

حاول أن يمد شــأن تلك القدوة من خلال سير أصحابه ﷺ والأجيال التي عاشــت معه ﷺ وحملت ذات الفكــرة وقامت بــذات المنهــج وكانت حقيقة بالخلافة الكبرى من خلال كتاب: (صُنَّاع الحياة) في سيرة الخلفاء الراشدين الأربعة.

وختم الطريق بمنح تلك العناصر المسؤولة عن التغيير بسنن الله تعالى في التمكين من خلال كتاب: (علَّمني التاريــخ) ليكون زاداً للتجربــة ومعيناً على مواصلة الطريق.

- **المرتكز الرابع:** **هو أن التغيير في الأصل لا يقوم إلا على فئات تحمــل مؤهلات البنــاء والتغيير وصناعة الأحداث**، وإذا كانت المرتكزات الثلاثة الأولى هيأت



بيئات صالحــة للعمــل، وبنت قناعــات لدى تلك الأجيال بضرورة التغيير فلا بد من تأهيل فئات خاصة مســؤولة عن حمل الراية والفكرة، فجاءت فكرة بناء منهــج علمــي يعتني ببنــاء القاعــدة الصلبــة لكل التخصصات على اختلافها، ويبني من خلالها طلاب العلم الشــرعي علــى وجــه الخصوص، وقــد قام المشــروع على أربع قضايا: لغة تحافظ على نســق العلم، وتخاطب الأجيال المعاصرة في ذات الوقت، وكتب مختصرة تجمع لك شتات الفن، وطريقة شرح مشتركة بين الطالب والمعلم وليست كالمتون السابقة التي يبرز فيها دور المعلم بمعزل عن الطالب، وزمن لا يتجاوز عشرة أشهر كأقصى حد.

يراعي المشــروع كل طاقات الأمة في مجالاتها المختلفة: الفكرية، والإعلامية، والاجتماعية، والتقنية وغيرها من التخصصــات والمجــالات، ويضع لها القاعــدة الصلبة لمشــاريعها المختلفة في مســتقبل الأيام، **مع تركيزه فــي ذات الوقت على طلاب العلم الشرعي على وجه الخصوص.**



جاء المشــروع العلمي كالتالي: ثلاثة كتب في السـنة، كتابان للحفظ: الأول: (الجامع في أحاديث الأحكام)، والثاني: (الجامع في أحاديث السـلوك)، **والكتاب الثالــث للقراءة: يعطي تصوراً عاماً للســنة النبوية** جَمَعَ كل الأحاديث الصحيحة في السنة النبوية وهو كتاب: (الجامــع في أحاديث الســنة)، وكتاب (بُلغة الفقيه) في الفقه، و(نوافذ تربوية على أحاديث الأربعين النووية) في الحديــث، وخمس خلاصات علمية مركَّزة: (الخلاصة فــي العقيدة، والخلاصة في الأصول، والخلاصة في القواعد الفقهية، والخلاصة في علــوم القرآن وأصــول التفســير، والخلاصة في النحو). **وكل ما مرَّ يمثِّل الطريق الكلي في الخارطة بأجزائه ومراحله.**

الجزء الثانــي: ما يمثــل الطريــق الجزئي من الخارطة وهو موجه لكل الفئات التي تحتاج إلى مسار واضح وقريب ومختصر يمكِّنها من الاســتمرار، يبدأ هذا الجزء بـ: (ابدأ حياتك من جديد، وصناعة التغيير الشخصي، وكيف تبني عاداتك الإيجابية؟)، ثم ينتقل



صاحبه إلى الفكرة الناهضة من خلال كتاب: (مشروع العمر)، ثـــم يتوجه إلى أهم عادة لبناء مشـــروعه من خلال كتاب: (التركيز)، ثم يتحول بعد ذلك إلى بناء خطته الشـــخصية مـــن خلال كتـــاب: (قصـــة حلم: التخطيط الشـــخصي وإدارة الأولويات)، وينتقل بعد ذلك إلى معالم المنهـــج في الوحي من خلال كتاب: (علمني القرآن)، ويتم ذلك كله من خلال قراءة معالم القدوة الكبرى فـــي الطريق بقراءة كتاب: (حين أضاء الكون).

وهذا تسلســـل فكرة المشـــروع منطقياً، ومن لم يتهيأ له ذلك أو أراد أن يقرأ ما ينفعه من هذه الكتب دون بعضها الآخر فهي متاحة كذلـــك، وتؤدي دوراً ملهماً، وتعينه بإذن الله تعالى على بلوغ أمانيه.





التجربة المجتمعية

(المصلحون وأصحاب المشاريع الجادة والأفكار الرائدة يجب أن يعلموا من أين يُبدَأ الطريق)

بدأ في مجتمعه وما زال، ويرى بأن ذلك واجب من الواجبات، وأقلُّ ما يكون لأهله ومجتمعه وعشيرته، فلله ما أعذب ذلك المجتمع الذي يعيش فيه! وما أجمل مباهجه! ومن الفقه في هذا الباب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، و«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»[1]، ولا ينبغي لمصلح ينشد هداية العالم ألَّا يترك أثراً في أقرب الناس حوله إلا في ظروف تقدر بقدرها، وتجري في فلك واقعها فحسب.

حاول جاهداً أن يترك أثراً في ذلك الواجب الشرعي، ومن توفيق الله تعالى له أنه وجد رجالاً

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥).



يثقون به، ويكلون إليه أمورهم، ويهبونه كل شيء، ولا يملك إلا أن يدعو لهم بالتوفيق.

حين بدأ حياته وجد مجتمعاً صالحاً للحياة ولديه مشاريع قائمة، فأراد أن يتم مشوار تلك المشاريع ويعزز صورها ويوسِّع مشاهدها، وكان (تيسير الزواج) على رأس تلك المشاريع وأولاها بالعناية، فأتم بناءها وجهد بكل ما يملك في استمرارها، فيسَّر الله تعالى من أثر ذلك زواج طلاب الثانويات والجامعات ومن لا يجد وظيفة، وتكوَّنت بيوت كثيرة وأبناء وأسر وجرت آثار هذا المشروع بشيء يفوق التصورات، ولا يعلم أن مشروعاً يستطيع اليوم أن يواجه هذه الفوضى على مستوى العالم كله بعد الإيمان بالله تعالى بشكلٍ أمثل ولا أقوى من هذا المشروع، ولن تعرف قدر هذا المشروع حتى تعرف كم هي التكاليف التي تصحبه فيمن حولك من العالمين.

شارك مع غيره في بناء صرح لتحفيظ كتاب الله تعالى في ذلك المجتمع، وتهيأ نتيجة لتلك الجهود أربع حلقات، وقد قارب العدد فيها المئة، وأصبح

في كل مسجد حلقة خاصة ولها معلمها الخاص بها، وهيأ الله تعالى لكل معلم مقراً خاصاً به هو وزوجه، وتم دعم هذه الحلقات كلها من خلالهم، وكان وما يزال كل موظف مسؤول عن دفع (١٠٠) ريال شهرياً لذلك الشأن، وأصبحت هذه الحلقات متميزة على مستوى الجمعية الأم، بل هي التي تمثلها بحمد الله تعالى في مسابقاتها الكبرى، وزادها جمالاً وأثراً بأن طلابها هم أئمة المساجد الأربعة فيها في تراويح وتهجُّد رمضان في كل عام، وثمة طلاب آخرون يشاركون في الإمامة على مستوى القرى الأخرى.

تكوَّن لهذا المجتمع ومن خلال هذه التجربة صندوق خيري للحوادث، وهو صندوق خاص بالدماء والدِّيَات، وأصبح عوناً لمواجهة الحوادث والأزمات الكبار، وشارك في تفريج كثير من الكرب، وتكوَّن لها كذلك صندوق آخر يُعنى بحوادث السيارات، ويعان من خلاله المصاب، وكم له من آثار في تفريج كرب أصحابه مع الأيام!

حاولت القبيلة في وجود بيئات لاجتماعها وتآلفها وتكوّن لها بفضل الله تعالى، ثم باجتماع الكلمة مجلساً صار مَعْلَماً بعد ذلك على مستوى حلي كلها وكوَّن قدوة عامة على مستوى الوادي، وجرت أمثلته فيما بعد في كل مكان، وهذا المكان اليوم يمثل رمزاً في اجتماعات الزواج والأعياد والمناسبات، وكل ما من شأنه التأثير في تصالح القلوب واجتماع الكلمة.

يسَّر الله تعالى لذلك المجتمع داراً نسائية تعتني بتحفيظ كتاب الله تعالى وجرى فيها من الخير وتحققت فيها أمانٍ كبار، وما زالت نواة خير عظيم تمد في آثار كثير من الاجتماعات النسائية التي حققت وصنعت فألاً طيباً وأثراً حسناً وذكريات مليئة بالجمال.

القدوة تصنع واقعاً بهيجاً في كل مساحة تكون فيها، وما أكثر ما يجتمع الناس حول القدوات! ولا يمكن لقضية أن تتوسَّع وتأخذ حظها من التطبيق حتى تشرب من آثار صاحبها! وقد حاول وسعى أن يكون أقرب الناس إلى أهله ومجتمعه وأكثرهم تحملاً

لآثاره، ودفع في سبيل ذلك بكل ممكن وما زال، وحرص ألا يدعو إلى شيء إلا وهو صاحب البداية فيه، ولم يماكسهم يوماً على أرض أو جدار أو مال، أو شيء للدنيا البتة، ويعترف بأنهم أوفياء، وقد صنعوا له ما أراد، وأعانوه على ما يريد، ولولاهم بعد فضل الله تعالى ما جرى له شيء، وهو فضل الله تعالى أولاً وآخراً، ثم شيم الكبار تصنع مثل هذه المباهج في واقع الحياة، ويعترف أنه أخطأ في حق بعضهم ولكنهم كبار ويحسنون قاعدة: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث!

كان مؤمناً بقضية استيعاب الطاقات وتوظيفها، وهذا المعنى من أكثر الأشياء أثراً في صناعة واقع التغيير في أي مكان، وثمة أفراد تولوا زمام العمل، وصنعوا من خلاله تكاملاً مثيراً وأحداثاً تروق في عين كل حريص، وما أكثر الطاقات التي تبنت صناعة الفأل والأمل في مجتمعه، منهم صاحب الراية والراحلة، ومنهم الذي لا يعرف سوى لبَّيك في كثيرٍ من مشاهد الإصلاح، وإذا وجدت مثل هذه المعاني في واقعٍ ما تكوَّن لك كل شيء.



وما أكثر المشاريع التي قامت في ذلك المجتمع بدءاً من مشـــاريع التحفيظ في مســـاجده الأربعـــة، وداره النسائية، ومنتداه الكبير، وقضايا الإصلاح، وصناديق الحوادث، وأشياء كثيرة جداً تتقاصر المساحة عن بث شجونها وأحداثها.

تجتمع تلك القبيلة لإدارة شـــؤونها وما يصلح شـــجونها في كل مرة فتعالج قضاياها، وحسبك أنك لا تكاد تختلف معهم في شـــيء، يحبـــون الاجتماع والائتـــلاف، ويكرهون الفرقة والخلاف، ويســـمعون لكل رأي، وينـــادون بكل فضيلة، ويعدُّون أنفســـهم جزءاً واحداً، ومن قـــال منهم نريد شـــيئاً في صالح القبيلة أمَّن الجميع على ذلك وبات مشروعاً واقعاً مع الأيام، ولا يعرف أن نزاعاً دار في ذلك اللقاء إلا من باب اختلاف وجهات النظر فحسب، ثمَّ لا يخرجون إلا وهم متفقون على ما جرى في ذلك الاجتماع.







(جزء من الوعي بذواتنا تفشي دوائر التطوع في حياتنا)

نشـأت علاقتـه بالعمـل التطوعي مـن خلال التدريس في حلقات التحفيظ بالقرية، وقضى أكثر من خمس سـنوات وهو يعلِّم ويربِّي على تلك المعالم الكبـرى في ربـوع مجتمعـه، ثم تحـوَّل بعد ذلك للإشراف من خلال العمل في مندوبية تحفيظ القرآن الكريم الواقعة في بلدة الفريق بحلي، وكانت تتبع في بدايـة أمرها لمدينـة جيـزان، وكانت أيامـاً جميلة ومبهجة في ظل رئاسة الشـيخ فايز مصلح المصلح رحمه الله تعالـى وغفر لـه، ولله ما أكثر حرصه على العمـل! وما ألذ أخلاقه وتعاملـه! عاش رحمه الله تعالى للعمل الخيري حتى لقي الله تعالـى وكان واحداً ممن كوَّن هذا العمل البهيج لحلقات تحفيظ القرآن الكريم في الوادي، ونحسب أنه في ميزان الحسنات.



توسَّعت دائرة عمله التطوعي من خلال العمل في المستودع الخيري بالقنفذة والذي كان يشرف عليه في تلك الحقبة الدكتور حامد الفقيه الابن البار بمحافظته وأهله، وهو الربيع الذي يملأ قلبك بالعمل والفأل والأمل، وقد صحبته زمناً طويلاً فما رأيت أكثر منه حدباً على شباب المحافظة، وأحسب أنه استقطع جزءاً كبيراً من وقته وفكره وماله لتأهيل هؤلاء الشباب في مختلف القطاعات، وكان لديه إيمان كبير بأن هؤلاء لديهم من الطاقات والقدرات والإمكانات ما يفوق كثيرين إلَّا أنهم يحتاجون فقط إلى من يأخذ بأيديهم، وكم هي المرات التي يماكسك في واحد من هؤلاء ويصر إلا أن يشارك في برنامج أو مشروع، ويرى أنه أهل لذلك ولا يحتاج إلَّا إلى من يأخذ بيده، أما حين يرى أو يسمع أن أخاً له وقع في مشكلة أو تعثَّر في طريق ويحتاج إلى عون فتلك حكاية تفوق مشاهد القلم في مساحة كهذه! فلله ما أعذب قلبه وهمَّته وهمومه! وهو بعض من يسليه، بعد رحيل أبي عبد الرحمن الدكتور علي رحمه الله تعالى كبير النفس عظيم الأثر ابن المحافظة البار والذي صنع أحلاماً تتقاصر دونهما



الهمم، وبقـــي على علاقة بالدكتور حامـــد الفقيه في (العمل الاجتماعـــي على وجه التحديـــد) من خلال رعاية الأسر الفقيرة والأيتام والمحتاجين تلك الحقبة من العمل في المستودع، ثم عمله بعد ذلك في جمعية البـــر بالقنفـــذة، والتي هـــي بمثابـــة الأم لجمعيات المحافظة الأخرى على مســـتوى المراكز والقطاعات، وجرت وما زالت بحمـــد الله تعالى مباهج كثيرة لهذه الرفقة، نحســـب أنها كلها في صالـــح أهله ومجتمعه ومحافظته، وفي الحديث: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ**»[1].

بدأ مرحلتـــه الحقيقية في العمـــل التطوعي من خلال افتتاح جمعية البر بحلي عام (١٤٢٢هـ) وكانت هذه التجربـــة هي الجانـــب التطبيقـــي للعمل، وقد افتتحت جمعية البر بحلي فـــي أول أمرها من خلال مبنى مستأجر من غرفتين في حلي (الصفة تحديداً)، بدأ وهو لم يدرك معنى إدارة العمل والقيام بشـــؤونه وشجونه لكنها السنن، تبدأ صغيراً في كل شيء، ثم ما تلبث أن تكبر مع الأيام.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٥٠).



من لطيف تلك البدايات أنه أعـد خطاباً للوزارة بطلب افتتاح جمعية برٍّ، وسـجَّل فيه أعضـاء الفريق رئيساً ونائباً وأميناً للصندوق وبقية الفريق في المشروع، وسافر برفقة المدرب المتألق أبي أسامة الدكتور أحمد الخالدي إلى الرياض، ويذكـر أنهما حجزا في إحدى الرحـلات ولا عهـد لهما بالطيـران وبقيا فـي صالة الانتظار حتى أقلعـت الطائرة وهما ينتظران مسـؤولاً يأخذ بأيديهما أو ينادي باسـميهما، ثم عادا من جديد يبحثان عن رحلة أخرى حتى هيـأ الله تعالى الوصول إلى الرياض ودخلا المؤسسـة في وقت انتشـار حمى الوادي المتصدع، وكان ثمة تخوف خاصة إذا كنت من أهل الجنوب؛ لأن المـرض تلك الحقبة أخذ حظه من الإعـلام في منطقـة جيـزان! ودخلا إلى مقـر وزارة الشـؤون الاجتماعية فسلَّما المسـؤول ذلك الخطاب فقرأه ثم ضحك وقال: ما شاء الله عليكم حتى المناصب تقاسـمتموها! والجهل آفة كل شـيء! ولولا أن هذه الأعمال من فروض الكفايات التـي لا تبرأ الذمم إلا بقيامها لكان ألف عذر دون ذلك الجهد والعناء، ولكن



الله يرى كل شيء! وإذا رأيت فكرةً ملهمةً وعملاً مدهشاً وآثاراً ضخمةً؛ فاعلم أنها مرت بذات البدايات وعاشت تلك الظروف. وهذه بعض سنن الحياة! ولم يكن من ذلك المسؤول إلا أنه فتح لنا نافذة ودلنا على الطريق الذي تُخاطب به الوزارة في مثل هذه الأعمال، فعادا من سفرهما ورتبا الموضوع من جديد، وجاءت بحمد الله تعالى الموافقة على تكوين مجلس للجمعية، وهيأ الله تعالى ذلك الصرح الذي يمثل اليوم شامة في العمل الخيري، والله المسؤول أن يجري فيه وفي كل جهد الصدق والبركة والتوفيق.

كان لرئيس مركز حلي تلك الحقبة (خالد الرويس) دور بارز في إتمام افتتاح ذلك الصرح؛ فقد كان فاعلاً في وظيفته، رائداً في تفكيره، وكان رأساً في القرار فقيهاً بواقعه وحاجة زمانه! كان يتابع رحلة الافتتاح بنفسه مع الإمارة ووزارة الشؤون الاجتماعية حتى صدرت الموافقة فجزاه الله تعالى خيراً. وكم من مسؤول اليوم لا يدرك من هذه المسؤوليات غير اسمها ورسمها! وأدركه شجاعاً لا يخاف، وإذا ضاقت



الأمور فتح فيها نافذة مـن أمل، وإذا تحجَّر قرار فتح له باباً مـن المسـؤولية. كان يزور الناس ويغشـى مجالسـهم، ويتحـدث عن التنميـة، ويغـري أبناء المجتمع بالمشاركة والبناء ورفع احتياجات واقعهم، والوصـول إلى صنَّـاع القـرار، وهكذا هـم الكبار يصنعـون الأماكـن التي يأتـون إليها وتشـرف بهم الوظائف والمسؤوليات، وتزدهر بهم الحياة.

وافقت الوزارة مشـكورة على فتح الجمعية ثم تركتك تواجه الواقع بمفردك، ودخل عملاً لا يعرف منه شـيئاً، ولا يدري من أين يأتي إليه، وكيف يبدأ، فإذا ما انضاف إلى ذلك أنـه بحاجة إلى مقر ومكان يؤدي فيه دوره ولا يجد ريالاً واحـداً في يديه، وإذا ضاقت بك الأمـور وقلَّت الفـرص فيمِّم وجهك لله تعالى، وسَـلْه أن يفتح لك أبـواب التوفيق ويعينك على أمانيـك، وإذا صدقـت الله تعالى فـي طلبك، وتحرَّيت أوقات الإجابة، وألححت في دعائك جرت لك الحياة كما تشاء، وكان من فواتح ذلك التوفيق أن دلَّه الله تعالى على أبي عبد الرحمن الدكتور علي بن



عبد الله الفقيه استشاري طب الأسرة في جامعة الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى، وهو أصلاً من أبناء المحافظة، والتقى به في يوم جمعة فصليا الجمعة سوياً وفي الطريق مرَّ به على الصراف الآلي وصرف له من خلال عدد من البطاقات ثلاثة وعشرين ألفاً، وقال له: رتِّب أثاث الجمعية ونتواصل بعد ذلك، فيا لله ما أروع الكبار! وما أكثر أثرهم على العمل! وإذا لقيت مثل هؤلاء فقد فتح الله تعالى لك باب توفيق! وهذا الرجل رحل مبكراً وأياديه البيضاء كثيرة على العمل الإسلامي على وجه العموم، وما جمعية زمزم للخدمات الصحية إلا واحدة من آثاره، وقد كان طبيباً بارعاً في تخصصه، ومدهشاً في مكانه، وكم أغاث الناس في زمزم! وكم أغاثهم في تخصصه وعمله الرسمي! ولله كم له على محافظة القنفذة من آثار! وإذا رأيت عملاً مدهشاً، ورجلاً ملهماً فهي من آثاره! وكان يستوعب كل الطاقات، ويتحمل كل الأعمال، ويقبل كل الأفكار ويدفع لها ومن أجلها كل شيء، فيا رب تولاه برحمتك، وأسبغ عليه مغفرتك، وارفع



درجته، وأجرِ له هذه المعاني أوقافاً بين يديك في أيام الحاجات، ومن ساعات رحيله إلى هذه اللحظة التي أدوِّن فيها هذه الأسطر وأنا أدعو له في كل ليلة، وما نسيته من هذا المعنى في طريق سفر وساعة جمعة وعمرة، وسأظل، ومن يكافئ تلك المعاني الكبار التي كان يصنعها في تلك الأيام!

كان ذلك اللقاء والدعم أول الطريق وشرقت الشمس واستأجرت الجمعية مقراً، وتم تأثيثه، وبدأ العمل عليه وحيداً ليس معه أحد، وكان يبقى من الصباح إلى الثانية والنصف في عمله (الإشراف التربوي) ثم يعود بعد صلاة العصر مباشرة إلى ربوع ذلك المبنى الضيق، وهو الذي يكتب وينظم ويرتب ويتلفَّت ولا يجد مسلياً في الطريق، فلله ما أقسى البدايات في كل مشروع! وما أحوج النفوس إلى معين!

كان هو الذي يحرِّر الخطابات للجهات المسؤولة، وهو الذي يكابد الحسابات في ذات الوقت، والتي كانت في بداية الأمر في دفتر كطول صاحبه تماماً، وكم مرة عَسُر عليه فتحه فضلاً عن



التدوين فيه، وكثيراً ما جلب أصحاب التجارب لعونه في تلك البدايات حتى فَقِهَ الطريق، ثم هيَّأ الله تعالى بعد ذلك موظفاً يقوم بشؤون هذا الجانب، وآخر، وثالث، وتوسَّع العمل، وبدأ يأخذ حظه في واقع الناس، وبدأ أنصار الفضيلة يتوافدون، وهكذا هي السنن، تُمتحن في الطريق ولا تكاد تجد أنصاراً في بدايته، ثم تبدأ في الانفراج حتى تحين مواعيد الأفراح! وفي غضون خمس سنوات من ذلك التاريخ باتت الجمعية عَلَماً على مستوى الشؤون الاجتماعية، وما زالت كذلك بحمد الله تعالى حتى لحظة كتابة هذه الأسطر على أيدي المخلصين.

قليلة هي الشخصيات التي رافقت نجاح هذا العمل في بدايته، يأتي على رأس هذه الشخصيات الأستاذ حسن حمد الفاهمي ـ وفقه الله ـ إثر لقاء جمعه به في شهر ربيع الأول في عام (١٤٢٢هـ) وكتب في سبيل ذلك العمل نماذج من القدوة تتمثَّل في الانضباط والولاء والتفرغ والانتماء ما لا يمكن أن تراه إلا في صور خاصة تمثل هذه النماذج على مستويات



كثيرة من العمل، وفرق كبير لا تحده المسـافات بين إنسـان يكون معك منذ بداية الطريق، وآخر يأتي في نهاياته فجزاه الله تعالى خيراً على كل ما قدم، وهنيئاً له تلك المشاركة الفاعلة في صناعة هذا الصرح البهيج، وغداً بإذن الله تعالى يرى كل شيء.

عمل في الجمعية من عـام (١٤٢٢هـ) حتى عام (١٤٣٣هـ) كان في بداية العمـل أميناً عاماً للجمعية، ثم عضواً فـي مجلـس إدارتها حاضراً مشـاركاً في صناعة قراراتها، باذلاً ما استطاع من الوقت والجهد، مع رفقة كانت هي الحياة في تلك الحقبة من الزمن، وما زالت بحمد الله تعالى على ذات الطريق كالشيخ عامر حمود العمري الذي رزقـه الله هماً على واقعه، ويبذل جاهداً في سبيل ذلك، وما زال كلما رأى ثغراً يحتاج إلى عون شارك بجهده وفكره، فجزاه الله تعالى وأجزل له العطاء.

لم تكن مشاركاته الفاعلة وبذله مقتصرَيْنِ على العمل التطوعي في البر فحسـب، وإنما شـارك في تأسيس جمعية تحفيظ القرآن الكريم بحلي في مطلع

عام (١٤٢٨هـ)، وعمل مديـراً تنفيذياً لهـا في بداية افتتاحها، حتى إذا ما تأسـس العمـل وتهيأ المكان وترتَّب العمل عاد عضواً في مجلـس إدارتها، حتى تسـلم العمل فيها صاحب الراية وحامل لواء الإبداع ياسـين الدرهمي والـذي يُعَـدُّ الإبداع جـزءاً منه ولا يرضى بغيره، ويخلق من لا شيء أشياء، وما يزال يدفع بكل همومه فيها حتى أوردها الحياة، وآخرون: كأبي خالد أحمد العلوي والذي يمثل عتادها المالي جزاه الله تعالى خيـراً وأجرى له بذلـك أوقافاً مدى الحياة، وأبي علي عمـر مناجي الذي لم يتخلف عن العمل منذ عرفه وما يزال، وأبي علي عبيد البيه الذي منذ عرفه وهو في ذات الطريق، لا ترى منه إلا الخير والعون، وهو جزء من الحياة، وأبي خالد أحمد خلف الفاهمي الروح الناهضة في ربوع ذلك الصرح المتين وآخريـن، وكان تلك الفتـرة عضواً لمجلـس إدارة مكتب الدعوة، ومن ثم رئيساً لمجلس إدارته في عام (١٤٣٣هـ) ولعلـك تلحظ أنه في كل مشـاركاته في العمل الخيري لم يكن رئيساً لشيء من تلك الجهات



إلا فـــي الفترة الأخيرة التي حُمِّل مســـؤولية رئاســـة مكتب الدعوة وتوعية الجاليات بحلي، ولا تظن أنه حين أراده إخوانه في هذا المكان أنه لبس مشلحاً، أو جلس في مقدمة الصفوف، أو شـــارك رئيســـاً لتلك الجهة، أو كان حريصاً على شـــيء من ذلك البتة، بل كان عاملاً ضمن مجموعة مدهشـــة، وقد كان يشارك في وضع خارطة الطريق فحســـب، وكل مسؤوليات المكتب خلال ثماني سنوات فقد كانت بيد صاحب الراية وصانع حكايـــات الجمال فيه أبي محمد أحمد بكـــري الصحبـــي، فللـــه ما أعـــذب ولاءه للدعوة! وما أجمل مشـــاعره مع من حوله! وما ألذ صداقته! ولا أروع ولا أدهش من حبِّه لإخوانه وسمعه وطاعته لهم، ولا تـــكاد تجد هـــذا المعنى بكليتـــه إلا عنده فحســـب، وتلك معادن الرجـــال وكان معه في ذات الطريق أبو الزبير خليل بحني الشيخي، وعلي حمد الصحبي، وعلي عبد الله الشيخي زمناً من الدهر.

من بدايـــة العمل الخيـــري في حلـــي إلى بضع سنوات من العمر ظل الشـــيخ إبراهيم الزولي قاضي

محكمة حلي رئيساً لمؤسساته كلها، واستثمر - جزاه الله تعالى خيراً - مسؤوليته الرسمية في دعم هذه المساحات، وكان عذب الخلق طيب القلب قريباً سهلاً ليِّناً، ولم يكن يكلفك شيئاً، يثق بك، ويصدق معك، ولا تتكلف في التعامل معه في شيء، وكم صنع من معروف! وكم شارك في خير! وكم دعم من عمل! ونحسب أن جزءاً كبيراً من هذا العمل الماثل اليوم هو جزء منه فجزاه الله تعالى خيراً، وأكرمه من واسع فضله، وبسط عليه توفيقه، وأسعده بآثاره في الدارين.

يعدُّ أبو صالح الشيخ حسن صالح الخالدي حجر الزاوية في تأسيس كثير من الكيانات في هذا الوادي، وجزءاً مؤثراً في مشاريعها المركَّزة، وهو يحسن العمل ويكره التنظير ويصنع واقع التطبيق مهما كانت الظروف فيه، وقُلْ مثل ذلك في د. ياسين الغانمي الذي يغمرك بصمته الطويل ويلهمك في ذات الوقت بالأفكار، ويعينك على التخطيط والتنظيم والترتيب لكثير من أمانيك، ويملك البوصلة التي توجه العمل إلى شماله الحقيقي، وقد كان قائداً ملهماً



في جمعية التحفيظ لسنوات، ثم قائداً في جمعية البر لسنوات أخرى، وهو يشارك اليوم في إعانة هذه الجهات مجتمعة في حلي على بناء أهدافها وترتيب خططها، ويجهد في تحقيق أمانيها بكل ما يملك، وعلي حسن الفلاحي - جزاه الله تعالى خيراً - الذي يمثل روح الشباب وبريقه ووهج جمعية الشباب الفتية، ويصنع منها واقعاً ملهماً مع الأيام.

مرَّ العمل التطوعي بمراحل شتى في مسيرته، وظل ينمو كل يوم كما تنمو بقية الأشياء، والتجارب تصنع الرجال! والذين جربوا العمل ولظوا ببداياته أمتن وألصق من أولئك الذين يكتبون ويقترحون، وهم لم يعرفوا مدارج تلك الساحات وما فيها من أحداث ومشاق!

عانى العمل التطوعي - وما يزال - من قلة الطاقات وأصحاب المشاريع وصنَّاع التحديات، وكم من قادم يأتي إليك في تلك الساحات بعد طول انتظار حتى إذا ما بدأ في العمل كان جزءاً من مشكلته، وسهماً في تأخره، وعاد جزءاً من جدول أعمال طويل الذيول في مكتب الأهداف والأولويات.

- لا تستغرب أن تبقى وحيداً في دائرة مشروع تصنع منه أحلاماً للمنتظرين في ربوع مجتمعك وأمتك ولا تجد مشاركاً يعينك على كمال أدواره واستواء أهدافه، وعليك أن تستقبل من كثير من القاعدين الفارغين توجيهات النقد، والاعتراض، وتصحيح المسار على حدِّ زعمهم لمنظومة العمل ودوائر التأثير.

- ثمة فئات لن تنجح في إقناعهم بالمشاركة في مشروع مجتمعاتهم وأمتهم، ولن تنجح كذلك في كسب ولائهم على الأقل لتلك الدوائر التي تحتاجهم فيها، وسيظلون عقبة في طريق أحلامك، ومثلك أوعى ألَّا تلتفت إلى شيء من ذلك مطلقاً، وتمضي في الطريق كما تشاء.

- يتفاوت العمل التطوعي في نجاحه وتأثيره بناءً على قدرات القائمين على إدارته، وإذا كان هذا العمل مشروعاً لصاحبه وفكرة ناهضة لديه وقضية حياة، ورزقه الله تعالى حسن صلة به وإقبال على أوراد تعبدية، وجعل القراءة وسيلته الأولى في نهضته فانتظر مباهج الفجر، وترقَّب مساحات الربيع بشوق،



وكلما ضعفت هذه العوامل الثلاثة في دائرة من دوائر العمل ضعفت النهاية بقدرها.

كان العمـل التطوعـي في (حلـي) يمثِّل أروع الصور وأجملها في تلك الحقبـة من الزمن، فكانت جهات العمل الخيري مجتمعة تمثل جهة واحدة في التخطيـط والترتيـب والتنظيـم، وكانـوا في مرات يقتطعون بعضـاً من أيامهم، ويسـافرون لأجل ذلك الشـأن الكبير، ويظلون أيامـاً يرتبون فيهـا العمل، ويسـتعرضون خطط تلك الجهات العاملة، ويركزون على الأولويات، ويبنون تلك الحكايات الجميلة التي تجتمع فيها الكلمة، وتتآلف القلوب، ويتحد الهدف وتظهر صور التعـاون والإخاء على مسـتوى العمل الخيري في أجمل وأسمى صورها ومعانيها.

ومن ذلك أنك ترى صوراً من النقاش في مجالس ذلك العمل تصل لدرجـة كبيرة من الغليان، وقد ترتفع الأصـوات وتختلف وجهـات النظر، ثم مـا تلبث أن تجتمع تلك الآراء بعد ذلك علـى الأصلح والأصوب حسـب رأي المجموعة وتخرج النفوس بعد ذلك طيبة

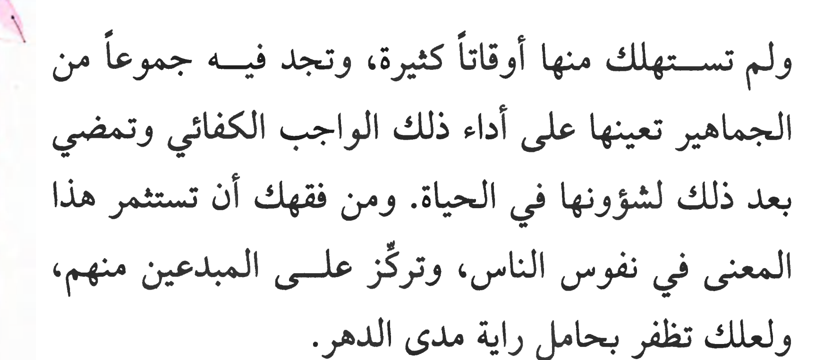


مباركة مؤتلفة، ويتكـــرر هذا في كل أســـبوع، فتزيدك الأيام قناعة أن ثمة فرق كبير جداً بين إنسان يريد ما عند الله تعالى، وآخر يبحث عن حظوظه الشخصية فحسب.

لا تحزن على قلة العاملين في المشاريع الكبيرة! وإذا امتد نَفَسُ المشروع وطالت مدته تقلّصت أعداد المتطوعين، وشـــح روّاد الخير فيـــه، وأدبرت عنك الجموع مصداقاً لحديث نبيك ﷺ: «**النَّاسُ كَإِبِلٍ مِئَةٍ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»(١)! روّض نفســـك ووسّـــع قلبك واستقبل هذه المظاهر في الواقع بالصبر فليست حادثة الزمـــان الأولى، وإنما هي أثـــر وحي وتجربة عملية في مساحات كثيرة من الأعمال والمشاريع.

إذا أقمـــت مشـــروعاً جماهيرياً فلا تنشـــغل به كل وقتك، فما أكثر المنتسبين إليه! وسيخرج لك من بين من تعيش معهم من هو مســـتعد للعمل وقته كله دون عناء، لأن الناس تحب الأعمال ذات النفس القصير، وتجد فيها بغيتها، وتلـــك طبيعة النفوس تحب تلـــك الأعمال التي تشـــعر فيها بوجودها، وترى أنها قدمت شـــيئاً لله تعالى،

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧) (٢٣٢).



ولم تستهلك منها أوقاتاً كثيرة، وتجد فيه جموعاً من الجماهير تعينها على أداء ذلك الواجب الكفائي وتمضي بعد ذلك لشؤونها في الحياة. ومن فقهك أن تستثمر هذا المعنى في نفوس الناس، وتركّز على المبدعين منهم، ولعلك تظفر بحامل راية مدى الدهر.

كانت الأمة أحوج ما تكون إلى من يسد ثغراً في أي مكان لقلة الطاقات وندرة المشاركين في البناء، وتغيَّر الواقع، وكثر المهتمون بالعمل والمشاركون في البناء بحمد الله تعالى، وتحولت حاجة الأمة بعد ذلك إلى أصحاب التخصص والمشاريع، فكن عاقلاً ولا تشارك في مساحات ومجالات ليس بينك وبينها حب، ولا تجد لها شغفاً في قلبك ومشاعرك، ولا تمثل تخصصك ومجالك، وإياك أن تدع للآخرين أن يختاروا عملك ومشروعك وثغرك الذي تسده مهما كانت الحاجة والظروف المحيطة، كن بطل الموقف وبادر أنت باختيار مشروعك، ومجالك وتخصصك وفنك الذي يمثل روحك وحبك وشغفك في النهايات.

لا شـــيء يصنع الإبداع في العمل التطوعي مثل التشـــجيع، فالنفوس تهوى الأيدي التـــي تصفِّق لها، وتعشق القلوب التي تحبها، وتقبل طائعة لأولئك الذين يحسنون الاهتمام بها. وحين تدير مؤسسة أو مشروعاً أو دائرة في عمل فأغمض عينيك عن كل الأخطاء التي تراها من فريق مشروعك، واقفز عن مساحات الأخطاء العارضة، وركِّز على مساحات الإبداع والنجاح والتفوُّق عندها ستتلاشى كل تلك الأخطاء، وتموت في مهدها دون أن تقول لأصحابك عنها أي شيء.

الرســـالة والرؤية شـــيء خلَّاب فـــي واقع أي مؤسسة بشرط أن تتحوَّل من كونها شعاراً على جدار وفي رقع كتاب إلى واقع حقيقي! مشـــكلة كثير من المؤسســـات في العمل التطوعي - وفي غيره - أنها تبدع في صناعة الرؤية ولكنَّها في مرات تبقى شعاراً مفصولاً عن واقعها التطبيقي، وتظل المؤسسة تعيش خصاماً نكداً بين رســـالتها ورؤيتهـــا وواقعها الذي تسير فيه. الرســـالة تصنع التخصص والرؤية تصنع فضـــاءات الأحـــلام الكبـــرى! وغالـــب المتفوقين



والمبدعين - أياً كانوا أفراداً أو مؤسسات - كانت الرؤية سبباً ملهماً في تحقيق تلك الإبداعات التي تحوَّلت إلى واقع مع الأيام.

أخذ العمل التطوعي من أصحابه والمنتمين إليه بعضاً من أوقاتهم وأفكارهم وأموالهم وأعطاهم في المقابل أشياء كثيرة، مكَّنهم من النزول إلى واقع الناس، ورؤية الواقع على حقيقته، والتعايش مع كافة الفئات، وبنى في المقابل لديهم رؤى كبيرة وضخمة في التخطيط والتنظيم ومهارات التعامل، وإدارة المنظمات؛ فإذا ما انضاف إلى ذلك الاحتساب، ومعايشة هموم الأمة، والمشاركة في البناء فإن الآثار أكبر من أن يتحدث عنها رسم قلم في دفتر ذكريات!

كل من يدير مؤسسة أو دائرة أو مشروع سيتفاجأ في كل مرة أن بعض أصحابه الذين يجهدون معه في البناء في مجال ليس لهم ذلك الانتماء لذلك المشروع، ولو كانوا في غيره لكانوا أكثر إبداعاً وإلهاماً، فليكن قائداً وليعِنْ من حوله في العثور على

مشاريعهم وأفكارهم الملهمة وقضاياهم الكبرى مهما كانت تكاليف ذلك على مستوى المؤسسة، وكم من صيد ثمين في هذا المعنى! وأحسب أن أوقافاً بشرية إذا أُحسن توظيفها فستجري بأحداثها لصالح صاحبها في مستقبل الأيام.

- تغفل كثير من المؤسسات التطوعية عن قضية الحافز للمتطوع، وتفترض أنه يقوم بواجب، وأن من يترَقَّب ذلك الحافز فذلك ضعف في إخلاصه لله تعالى، ويفوتها بذلك منهج النبي ﷺ في تعاهد المؤلفة قلوبهم في بداية الطريق، وإذا أرادت المؤسسات نمواً في واقعها فلترْعَ هؤلاء رعاية مستمرة، خاصة حديثي العهد بالعمل وأصحاب الخطوات الأولى فيه، فإن ذلك أعود ما يكون على العمل في مستقبل الأيام.

- العناية بأسرة المتطوع قضيةٌ لم تلقَ اهتماماً حتى في الآن، وما زال المتطوع يجهد في كثير من الأحيان على حساب أسرته، وبعض واجباته. وبدأت بعض المؤسسات التطوعية تجهد في بناء تصورات لذلك،



وتشــق خطوات عملية في هذا الشأن، وأحسب أن ذلك من أعظم الفقه في هذا المجال بالذات.

التحفيز يخلق الإبداع، وحاجة المتطوع إليه كل يوم، وعلــى من يدير مؤسســة أن يُعنى بــه ويضعه أولوية، وألا يســتغرق في أهدافه فينســى من حوله، ومن تجارب النجاح في بعض الشــركات الغربية أنه يســتثمر العشــرين دقيقة الأولى مــن كل يوم داخل المؤسســة برســالة تحفيز. ولقيت مرة فــي برنامج تدريبي أمينَ أمانةِ المدينة النبوية فذكر من تجربته في ذلك: أنه ليس لديه ورقة لإثبات دوام المهندسين في الأمانة، بل يجتمع معهم ساعة كل يوم من الثامنة إلى التاســعة يلتقي بهم، ويستمع إلى مشــاريعهم، وتتم معالجة بعض الأخطــاء وتُصنع بعض الرؤى الكفيلة بنجاح العمــل، وأذكر أني لحقته بعــد تقديم مادته، فســألته عن صحة هذه المعلومة التــي أدلى بها في اللقاء، فأفاد بأنها ليســت وليدة عام أو عامين، وإنما بلغت عمــراً فــي أمانــة المدينــة. فلو اســتثمرت المؤسســات التطوعية هذه التجــارب في اجتماعات

كهذه أو بث رسالة يومية في مكان عام من المؤسسة، أو ابتكار وسـائل تحافظ علـى روح العمل وتدعم رسـالته بكل طريق لكان في ذلك المعنى ما ترجوه تلك المؤسسات من أحلام.

العناية بتنميـة العاملين في كل مؤسسـة مطلب حضـاري، وينبغـي أن يكـون ضمـن الأهـداف الاسـتراتيجية لها التـي تُحاكم في النهايـة إلى: كم وكيف: كم هي إحصائية الكتب المقروءة، والمرئيات المشـاهدة، والصوتيـات المسـموعة، والـدورات التدريبية، والورش التربوية لأعضاء المشروع؟ وكيف أثرت هذه الأدوات في تحقيق الأهداف المرجوة منها؟ وإلا فما تصنع تلك المؤسسـات بأفـراد كالآلات؟! ويعتقد جازماً أن هذا فرض في حق كل مؤسسة، وأن التخلي عنـه تخلٍّ عن واجب يفوتهـا بفواته كثير من الإبداع والتحديات في مستقبل تلك المؤسسات.

يحمد الله تعالى أنه فـي كل حياته العملية على مستوى عمله الرسـمي أو التطوعي لم يتربع على كرسي مسؤولية إلا ما جرى في جمعية الدعوة



بحلي لأغراض سبق ذكرها، وقد عُرضت عليه جملة من المسؤوليات فرفضها لقناعته الشخصية بكلفتها الكبيرة على مشــاريعه الشــخصية، وكان مشروعه الشــخصي حاضراً عند كل عرض، وراجحاً في كل مشهد، وأصلاً في كل نقاش، وكان على ذات الفكرة التــي تحدث عنها المســيري رحمه الله تعالى حين قــال: وقد نجحت إلى حد كبيــر في توظيف المــال بدل أن يوظفني، فلم أضطر قط إلى أن أقوم بعمل يتناقض مع مشــروعي الفكري أو يعوقه، ولم أعمل إلا في وظائف أقوم بتوظيفها لخدمته... ولم أشغل قط أي منصب إداري مــن أي نوع طيلة حياتــي.. وحينما عُرض عليَّ أن أعمل في هيئة الأمم المتحدة براتب ضخم آثرت البقاء فــي وظيفتي والتضحية بالراتب الضخم، لأن الوظيفة الجديدة ستستغرق كل وقتي كما أنها تتعارض كلياً مع مشــروعي الفكري. اهـ، وصدق حين قال: ويل للمرء الذي يربح كل شــيء ويخسر في ذات الوقت نفســه. اهـ، ويزعُم أن هذا هو ســر ما تراه اليوم من آثار، ولولاه بعد فضل الله

تعالى لذهبت به الرياح في كل اتجاه ولما خرج بشيء، فدونك هذه الوصية فهي رأس مالك في النهايات. وفرق بين من له مشروعه الخاص، وآخر لديه من الطاقات والقدرات والإمكانات وتحتاجه - في الوقت نفسه - هذه الجهات في منصب أو مسؤولية، ولا تقوم فروض الكفايات إلا به، وقد قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]، ولا أخطر من الزهد البارد على صاحبه في مثل هذا المعنى، وكم من جهات كانت تتوق إلى أصحاب رايات يملكون كل شيء، وهي ثغورهم على وجه الخصوص، ثم تأخروا عنها فتعطلت تلك الفروض الكفائية وأثم الجميع. والله المستعان!







المجلس البلدي

(استثمار الفرص جزء من منهج صُنَّاع الحياة)

بدأت فكـرة المجالس البلدية فـي عام ١٤٢٦هـ وكانت جديدة في كل شيء، وتوقع الناس منها أشياء كثيرة، وتقدم كثيرون للترشـيح في أول مجالسـها، وصُنعت الولائم لطلب الترشـيح، وكان كل مرشح يعِدُ مرشحيه بكل شيء، وتقدم حينها في تلك الدورة رغبة في المساهمة في سدِّ ثغر من الثغور والمساهمة فـي البنـاء، والقيام علـى واجب كفائـي، ولم يقم اجتماعاً لذلك ولم يعدَّ وليمة، وما وعد الناس بشيء.

طُلب منه أن يحضر في أول يوم للترشـيح وكان ذلك الطلب من أسوأ ما وجه له في حياته، وتمنى أنه لم يقف في هذه المواقف فقد جُبل على كره الضجيج، ولو أنك رأيته في ذلك المكان لأدركت ما قال لك.

كانت ليلة النتائج ليلة مثيرة ولم يحضر فرز أوراق تلك الانتخابات وبقي في بيته، ولما أعلنت النتائج كان المرشح الأول فسُرَّ كما يُسرُّ كل إنسان، وأدرك حينها وفاء الناس وثقتهم وحبهم، وتمنى أنه يملك شيئاً ليرد به جميل تلك الجموع التي أهدته أصواتها ثقةً فيه، ولا ينسى موقفين اثنين في تلك المناسبة، الأول من صديقه خليل الكيادي والذي جاءه بعد الفجر مباشرة مهنئاً بالفوز في تلك المناسبة، والثاني من أخيه فائز الذي لقيه وهو نازل من بيته فكان ذلك العناق الحار!

بدأت المجالس البلدية عادية في تجربتها الأولى فلم تكن فيها تلك النجاحات المتوقعة، وهي نتيجة طبيعية لأصحاب القرار وغير طبيعية للناخبين؛ لأن صانع القرار هو الذي سنَّها ويعرف واقعها خاصة في البدايات، والمنتخَب بنى على ظنون، وما كل ما يقال ويسمع يكون واقعاً! والمنتخِبون من جهة بنوا آمالاً عراضاً على نظام لا يعرفون ما فيه، وأرادوا من ذلك المرشح كل شيء، واعتقد كثير من الناخبين الذين



منحوا المرشَّحين أصواتهم أن ثمة ضعف في المرشح أو عدم قـدرة على تأدية واجبه الـذي كلِّف به، ولم يدركـوا أن نظام المجلـس البلدي وقتها لا يسـمح بالحركة التي يريدها الناخب بصورتها المتوقعة، لأن دور المجلس في لائحته الرسمية رقابي فحسب!

- الدور الرقابي مهما كان يحمل من رؤى إصلاحية، ويقوم بأدوار مؤثرة يظل محصوراً في دائرة البلدية، في حين أن المواطن قد لا يراه في صورته الطبيعية.

- يأتي ضعف دور المجلس بالإضافة إلى أنه دور رقابي فقـط مـن أن كل المنتخبيـن والمعينين من المعلمين على الأقل في بداياته، ولا يمكن لمثل هذا التخصص وحـده بمعزل عن بقيـة التخصصات أن يشارك في بناء منظومة خدمية تتعامل مع كل شرائح المجتمعات وفي خدمات متنوعة.

- لم يكن أحد من أعضاء المجالـس البلدية متفرغاً لأداء هـذا الدور الكبير، وكيف يـراد لمجلس أن يؤدي دوره وهو ممنوع من ممارسته في وقت الدوام الرسمي؟!

تعاني البلديات من ضعف فــي الكادر القائم على العمل والذي يصعب معه في أحيان كثيرة نقل الأفكار الحيوية البناءة في ظل هــذا الواقع، ويظل التغيير ـ مهما كان جاداً ـ بطيئــاً في التنفيذ متأخراً في الفاعلية.

ليس للمجلس سلطة على البلدية، وغاية ما يراه من اقتراح يُكتــب لرئيس البلدية فإن تم شــيء وإلا للمجلس أن يرفــع للأمانــة أو الوزيــر، وكل ذلك لا يمكِّن المجلس البلدي من الدور المنشود.

بقي أربــع ســنوات كانــت مليئــة بالأحداث والمتغيرات والمواقف، وكانت حينها حلي مع القوز في نطاق واحــد، وكان القائم على مســؤولية البلدية تلك الحقبة المهندس إبراهيم محمد الفقيه، وقد كساه الله تعالى أدباً وخلقاً فقلَّ أن يختلف معك في شيء، وإذا أدار نقاشاً حيال مصلحة من المصالح أداره بأدب ولم يكن يســلط عليك رأياً أو يلزمــك بموقف من المواقف.



كان المجلس حينها مكوّناً من إبراهيم بن علي الفقيه رئيساً، وحسن الزحيمي رحمه الله تعالى، وعلي يوسف الفقيه، وإبراهيم بلغيث القوزي، وكان مجلساً مؤتلفاً متحاباً متفاهماً على كثير من القضايا التي تُطرح في مساحاته في ذلك الحين.

انتهت دورته الأولى، ورشح في دورته الثانية دون طلبه فما لبث أن كتب خطاب اعتذار لمقام الوزارة عن هذه المهمة، وترك أربعة آلاف ريال كل شهر لإدراكه أنه مهما كانت آثار العمل في هذا المجال إلا أن مشروعه الشخصي يستحق هذه التضحية، وثمة طاقات قادرة على أن تشارك في ذات المكان.

لقي في الطريق في آخر تلك الحقبة المهندس علي محمد القرني رئيساً لبلدية حلي، والذي كان استثناءً في كل شيء! كانت مدة بقائه في بلدية حلي أربع سنوات خلق فيها ما يحتاج إلى عشرات السنين، وصنع فيها إبداعاً في مختلف المجالات، وكان واضحاً صادقاً شجاعاً، يملك رؤية واضحة المعالم،

وتعامل حينها مع العمل الخيـري تعاملاً يدلُّك على صدق معـدن الرجل، ومدَّ فـي سـاحاته، وكوَّن له مشـاهد رائعة مدهشـة، وشـارك في نهضته وكتب تقدمه، فلله مـا أروع بعض الشـخصيات! وما أكثر آثارها في صناعة المساحات المدهشة في واقعها! ثم انتقل بعد ذلك إلى أمانة مدينة جدة، وأصبح مسؤولاً وقائداً في ربوعها، واللامعون المؤثرون يبلغون هذه النهايات ولو بعد حين.





مشاهداته في السفر

(إذا لم تكن لك غاية كبرى وراء السفر فخسارته أكثر من أرباحه)

- لا يحب السفر إلى الخارج في الأصل، ولا يعشقه، وإذا لم يكن السفر لحاجةٍ ملحَّةٍ أو ضرورةٍ فبقاؤه في مكتبته أثمن عنده من كل شيء.

- كل سفره كان لهدف، ولا يتصوَّر أن يحمل حقائبه لغير ذلك، وقد سافر إلى إسبانيا، وتركيا، وكوسوفا، والكويت، ومصر وألمانيا، وكلها كانت لحاجة كما سيأتي ذكرها فيما بعد.

- حتى لو كان سفره لهدف فإنه لا يتصوَّر أن يبقى في تلك الديار أكثر من خمسة أيام، وإذا تجاوز هذه المدة فيقف عاجزاً عن دفع أي مشروع أو فكرة أو قضية مهما كان الفراغ الذي يعيشه في ذلك الوقت.

في كل سفر يحمل معه كتب المشروع، ويرحل بها ناوياً أن يدفع عجلتها لتلك الأماني التي يرقبها، ولكنه يعود بهـا كما ذهـب ولا يصنع فيها شـيئاً، ويتكرر معه هذا المشـهد في كل سفر، ويعزُّ عليه أن يفارق مشـروعه وفكرته؛ إلَّا أنه يعود من السفر في النهاية بخفِّي حنين، وقد تَعوَّد ألا يصنع إبداعاً إلا في بيته، ولا يأتي على مشـاريعه إلا في رحاب مكتبته، وكان يعتقد أنه غريب عن الناس بمثل هذا السـلوك حتى قرأ كلاماً لأحمد أمين وهو يتحدث عن الشعراء وما كانوا يفيضون به في بيئاتهم، قال: فاسـتخلصت من هذا كله أن العربي لا يشعر إلا في بيئته، فإن هو خرج منها إلى غيرهـا اعتقل لسـانه وأصيب بالعِيِّ مهما كان البلد الراحل إليه من جمال الطبيعة وجمال الصناعة، ومهما توافرت بواعث الشعر فيه. اهـ.

في بلاد الأندلس

- سافر إلى إسبانيا وبقي فيها سبعة أيام، وأصل سفره من مكتب تأهيل المعرِّفين بالإسلام بمكة التابع لرابطة العالم الإسلامي.

- سافر مع أبي البراء الشيخ إبراهيم الهلالي معدن الطيب والتواضع وإلف القلوب وعون المحتاج حين الأزمات جزاه الله تعالى خيراً، وأبي عبد الله ياسين الدرهمي، وأبي خالد أحمد العلوي رفيقا الروح وعونا الحياة وظلَّ ما يقارب الأسبوع في الفترة من الأحد إلى الجمعة (٨/١٧ ـ ١٤٣٢/٨/٢١هـ) زار في تلك الرحلة المراكز الإسلامية في مدريد، وبلنسية والمدن المجاورة والتقى مع رفاقه ببعض المسلمين من العرب، وألقى جملة من الدروس العلمية والكلمات الوعظية والمحاضرات في مصليات المسلمين، وكانت

رحلة مشبعة بالحركة واللقاءات العلمية والتجارب الدعوية جمَّلتها ذكريات المسلمين ولقاء بعض الدعاة والحريصين على مدِّ رسالة الإسلام هناك.

رأى جوانب مشرقة تتمثَّل في حضارة البناء، ومباهج النظافة، ولحظات هدوء يفرضها الفرد من خلال حركته الواعية في تلك المساحات، والفرق كبير جداً بين ما رآه هناك وما يراه هنا، والمفاهيم تفرض واقعها في كل مساحة من الأرض.

ما أسوأ معاناتنا مع النظافة، ولن نصل إلى الأحلام التي رأيناها في تلك الديار حتى تصبح النظافة ديناً يتعبد به كل إنسان لربه، وثقافة في حسِّ كل إنسان، وهذه المعاني تحتاج وعياً ونظاماً، وإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن! وأجبرته تلك المشاهد التي رآها هناك على أن يتساءل عن هذا الضجيج الذي يرى صوره في بلاده! هل هو جزء من تكوينهم الاجتماعي، أو ثقافة تكوَّنت بمرور الأيام؟! إنك تسمع بعضنا يتحدث في جواله وكأنه يحدث العالم يرفع صوته ولا يرعى مشاعر المجاورين له،



ما يدلُّك علـــى أننا في أمس الحاجة إلـــى قراءة هذه المعالـــم الرائعة في ديننا والاســـتفادة مـــن التجربة التطبيقية الماثلة في بلاد الغرب.

- رأى هناك محطات للدراجات العادية وبين كل محطة وأخرى قريباً من خمس مئة متر فقط لمن أراد أن يركـــب دراجة ويتنقـــل فيها بيـــن المدينة، وذلك تشجيعاً على الحركة والرياضة وتخفيفاً للزحام، وكل ذلك بتكلفـــة لا تتجاوز ســـبعة يورو فـــي العام كله وبطريقة منظمة مرتبة، حيث يأخذ الواحد تذكرة ثم له أن يوقف دراجته التي يركبها في أي محطة شاء، وهي رســـالة على أن بناء ما تحلم به في واقعك لا يكون بمجرد الرؤى والأفكار، وإنما بإيجاد البديل المناسب في الزمان والمكان.

- وجد في ذلك السفر غلاءً فاحشـــاً في المعيشة فقد كلَّف غداؤه أو عشـــاؤه ما يزيد على مئتي ريال، لأن نكبة اقتصادية أصابت البلد في تلك الفترة فترك بعض النـــاس وظائفهم وبيعـــت البيـــوت والمنازل بنصف التكلفة تماماً.

رأى هنـــاك مـــزارع الأرز والبرتقـــال والعنـــب والزيتون في مساحات واسعة جداً تبلغ الكيلو مترات وثمة عناية بالزراعة، وعلى الرغم من اتســـاع المدينة وتباعـــد ما بين القـــرى والمقاطعات هنـــاك إلا أنك لا تظفر بأرض خالية مـــن الزراعة بل تزيِّنها الخضرة في كل شبرٍ منها، وذُكر له أن غالب هذه المزارع على كثرتها إنما هي لأفراد، لترى تقبُّل الفرد هناك للعمل والتضحية والمشاركة في البناء.

رأى أثر النظـــام على الناس فلا يكاد يرى ســـائقاً ولا راكبـــاً إلا وله عناية بالحزام فلا يركب ســـيارته إلا وحزامه مـــن أولوياته، ولم يرَ أحداً من أولئك يمســـك جواله، وفي كل سيارة مكبر يتحدث السائق من خلاله.

حدَّثه صاحبه ممن يســـكن هناك بأن ثمة نقاطاً لرخصة القيادة، فإذا تحدث الســـائق في الجوال فثمة عقوبة مالية تصل إلى خصم من نقاط الرخصة ومثل ذلك الحزام والســـرعة، فـــإذا ما نفدت هـــذه النقاط سُـــحبت منه الرخصة، وعليه أن يعيد دراســـة النظام ودفع رسوم الرخصة من جديد.

قَلَّ ما رأى من يتحدث في جواله في الشارع، حتى لو كان راجلاً وذلك لكثرة لقاءاتهم فلا يدري: هل حقاً بات الجوال ضرورة في مجتمعاتنا للدرجة التي تسوء المساجد والاجتماعات بأجراسها المزعجة وأصوات أصحابها المرتفعة، وقطع اللقاءات الحاضرة من أجل اتصالات بعيدة؟! حتى إنك لتعجب أن بعضهم يترك اجتماعه الحاضر بين يديه والمرتب له، ويدع كل قضاياه من أجل الرد على متصل من غير موعد ولا ترتيب، ويقدمه على كل شيء، مما يدمي خاطرك ويضع مسافات طويلة الأمد بينك وبين أمانيك.

رأى جموعاً من الرجال والنساء يمشون ويتنقلون ولمسافات طويلة لتقضي حوائجها بصورة طبيعية، وقد ولَّد القعود في حياة مجتمعاتنا كثيراً من الترهل والكسل، ونشأت جملة من الأمراض في أوساط الناس، وإن كانت ثمة رؤى جديدة في واقعه تشابه بعضاً من تلك الصور إلا أنه ما زال يحلم بالكثير.



رأى هناك حباً ورغبةً لدى غالبية السكان في التعرض للشمس بشكل غريب؛ فالناس يمشون في الشمس على شدة حرارة الجو في بعض الأحيان، ويمشون وهم شبه عراة، وتمرُّ بالمدينة وترى تجمعات للناس على بوابات المطاعم، وعلى أبواب البيوت، وتحت ظلال الخيام الصغيرة وفي الهواء الطلق.

رأى صوراً من الحضارة المادية، حضارة البناء والعمران والصحة، ورأى المرأة في المقابل عارية أو تكاد! رآها وهي تمشي في الطرقات العامة وتتعرض لحرارة الشمس بشكل غريب وتبيع في الأسواق، وتقف على الطرقات لا فرق بينها وبين الرجل في شيء، وذُكر له أن هذا التعرض للشمس رغبة في تغيير ألوانهم لتدرك عدم رضا الإنسان بواقعه مهما كان، وإذا كان يصرف على تغيير البشرة في البلاد العربية من السواد إلى البياض أثمان باهظة وجهود كبيرة وأوقات ضائعة تصل لعمليات جراحية، فكذلك ذات الجهود والأوقات والأثمان في بلاد الغرب لتغييرها من البياض إلى السواد، وصدق من قال:

صَغِيْرٌ يَشْتَهِي الكِبَرَ
وَشَيْخٌ ودَّ لَوْ صَغرَا
وخالٍ يَشْتَهِي عَمَلاً
وذو عملٍ بِهِ ضَجِرا
وربُّ المَالِ فِي تَعَبٍ
وفِي تَعَبٍ مَنِ افْتَقَرَا
ومَنْ فَقَدَ الجَمالَ شَكَا
وَقَدْ يَشْكُو الَّذِي بَهَرَا
ويَشْقَى المرءُ مُنْهَزِماً
وَلَا يَرْتَاحُ مُنْتَصِرَا
وَيَبْغِي المَجْدَ فِي لَهَفٍ
فَإِنْ يَظْفَرْ بِهِ فَتَرَا
شَكَاةٌ مَا لَهَا حَكَمٌ
سِوَى الخَصْمَيْنِ إِنْ حَضَرَا
فَهَلْ حَارُوْا مَعَ الأَقْدَارِ
أَمْ هُمْ حَيَّرُوْا القَدَرَا؟!

رأى فـــي الحدائق العامة وفـــي محطات القطار على وجه الخصوص صوراً من العُري، ورأى النساء والرجال في تلك المواطـــن على صور من الفواحش أمام العالمين، وأدرك حينها عظمة الإســـلام، وتمنى أول ما رأى تلك المناظر أنه خسر ما خسر ولم يقدم تلك البلاد لولا ما سرَّى عن خاطره بعد ذلك من لقاء الدعـــاة فـــي المراكـــز الإســـلامية، ورأى بعضاً من المشاهد التي تدعو للسلوى عمَّا رأى.

رأى صـــور المدنيـــة وحضارة البنـــاء ورأى في المقابل صوراً من الضياع والفوضى، فلا تكاد تخلو عينك من مشاهد رجل أو امرأة مع كلب أو كلبين أو ثلاثة في ذات الوقت في صـــور مقززة مؤذية، ويُنفق على هـــذه الـــكلاب أمـــوال لتنظيفهـــا والعناية بها، ويخرجون بها مع الصباح الباكر، وكل صاحب كلب مكلَّف أن يأخذ بول كلبه بعـــد قضاء حاجته ويواريه في أماكن معينة، وإلا فهو مهدَّد بغرامة مالية للتفريط في ذلـــك، وقد بلغك ما في الوحي من نجاســـة هذا الحيوان بالذات، حتى أن الإناء يغسل من ولوغه سبع



مرات إحداها بالتراب! وإذا بقي في بيتك أنقص من أجرك في اليوم الواحد قيراطاً أو قيراطين من الأجر، وهؤلاء يشترونها ويصحبونها وينامون معها ويصنعون لها كل شـيء، ويكفيـك مقارنة هـذه الصور بتلك الحضارة في العمارة والبنيان.

رأى أقواماً لا يولون النظافة الشخصية شأناً كبيراً، فغالب دورات المياه في تلك البلاد لا يوجد فيها ماء ويكتفون بالاسـتجمار، وبعضهم يعيش في الشمس أكثر وقته عارياً، وآخرون مع الكلاب في الليل.

ما أكثر ما رأى امرأة تمشـي مـع رجل وعرف فيما بعد أنه لا حرج أن تعاشـر الفتاة من أرادت من الرجال دون ضابط، وتذهب بـه كل مكان، وتدخله بيتها، وللقاصرة دون سن الثامنة عشرة أن تعاشر من شـاءت وأن تجهض حملها بالطريقة التي تريد، بل بات هذا الأخيـر نظاماً رسـمياً، وإذا ما قابل رجل وزوجه رجلاً آخر وزوجه فعلى الرجال أن يتصافحا، وعلـى زوج كل امرأة أن يقبل زوجـة الآخر، وهذه بالذات بعض مظاهر الرقي الأخلاقي والاجتماعي،



فإن صافحها بيده فقط فسوء أدب من ذلك الصديق، فـإذا ما قيل لك بأنـه لا حرج في تلـك البلاد عند البعض على تبـادل الزوجات بيـن بعض الأصدقاء لمدة أسبوع أو شهر، أو يتفقان أن لها أن تعاشر من شاءت من الرجال، وله أن يعاشر من شاء من النساء لتدرك بيقين قول الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فما أعظم هـذا الدين! وما أجل قيم الإسلام ومبادئه! وما تغني الحضارة المادية في وسط هذا الظلام؟! وكل خطوة في هذا الطريق فهي الطريق إلى الفساد والضياع.

رأى مساجد المسلمين هناك وقد بُدِّلت بكنائس للنصارى وهـي بذات الصوامـع والبنـاء غير أنهم وضعوا الصليب في أعلاها وهُجـرت فلم تعد ترى أحداً فيها. لقد فقد الأذان في تلك البلاد فلم يسـمع أذاناً البتة إلا في المراكز الإسلامية التي زارها، وهو أذان داخلي فقط، وغابت عنه أصوات المؤذنين التي تنطلق فـي فجـاج الأرض خمس مرات فـي اليوم



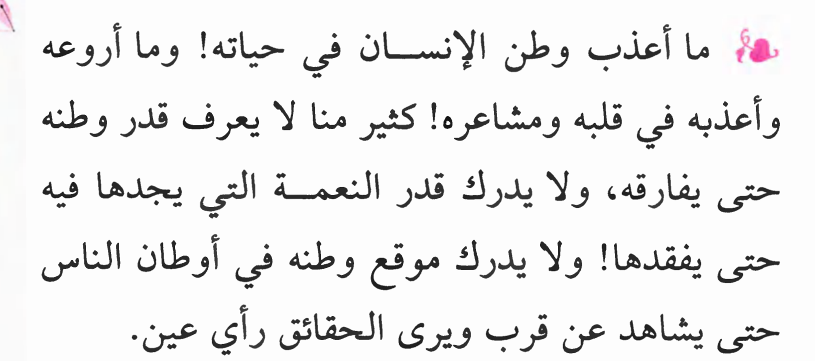
والليلة. فيا لله ما أروع أصوات الأذان! هذه نداءات الروح إذا ما غابت من أرض غاب منها كل شيء.

فقد في تلك البلاد السكينة والطمأنينة التي كان يلقاها في بلاده، فقد صوت الأذان، والبكور إلى المسجد، ومشاهد المصلين في تلك المساحات، وكان يصلي مع رفاقه في الفندق، وما يصنع بمساحات ليس فيها شيء من الحياة؟! عادت به الذاكرة إلى صوت مؤذنه في مسجد حيِّه ووجد مصادفة تسجيلاً في جواله لذلك الصوت فأخذته الأشواق إلى هناك، ألا يكفي روحه ومشاعره شجى أنه لا يعرف الصلاة إلا من خلال مراقبة ساعته؟!

فقد رؤية المسلمين فعاد غريباً في الأرض، غريباً في الروح، غريباً في المشاعر، وغريباً في كل شيء، يتلفت يميناً ويساراً فلا يجد من يبادله تحية السلام، أو يشاركه الحديث أو يهب له من وقته فضلاً عن قلبه ومشاعره!

كيف لو قال لك أنه مع فقْدِ روحه ومشاعره فقَدَ ما يشـــتهي من الأكل فقد نكهة الطعـــام الحار الذي يأكله، وماء زمـــزم البارد الذي يشـــربه، فقد المبخرة التي ألفها في يومه مرات، فقد الجمال الذي كان يراه في مراتع القرى، وما له ولصخب المدن؟!

قرر آخر أيام الرحلة ألا يخرج من المكان الذي اســـتأجره رغبة في ألا يزيد القلب ألماً والعين قذى، وبقي ينتظر ساعات الرحلة لوطنه كما ينتظر المحبُّ قدوم محبوبه الغائب الذي طال بـــه الغياب، وكتب يقول: ها أنا يا وطني أكتب إليك مؤملاً أن يقرِّب هذا الحرف ديارك، وجاهداً أن يســـلي هـــذ الحرف قلب محب أضناه الشوق لرحابك.. ها هو ابنك أيها الوطن يكتب حرفه إليك وهو في ديار غربة، ويهتف بحبك وهو في غاية الشـــوق إليك، ما كان يدري قبل اليوم كيف هي قصة المحبين حتى اكتملت معاني الأشواق في قلبه إليك! وها هو يجمـــع حقيبته ويحزم أمتعته راجعاً إليك، والله المسؤول أن يجمعه بك كما تركك أمناً وإيماناً وسلاماً!



ما أعذب وطن الإنسان في حياته! وما أروعه وأعذبه في قلبه ومشاعره! كثير منا لا يعرف قدر وطنه حتى يفارقه، ولا يدرك قدر النعمة التي يجدها فيه حتى يفقدها! ولا يدرك موقع وطنه في أوطان الناس حتى يشاهد عن قرب ويرى الحقائق رأي عين.

بقي في بلنسية أكثر وقته، بقي في المدينة التي تلقى فيها الشاطبي العلم وعاش في رحابها زمناً من الدهر، كان في تلك الديار ينشد آثار الكبار، ويبحث عن أحداث المؤثرين، ولم يتمكن من زيارة بلدته الشاطبية التي تبعد عن بلنسية قريباً من خمسين كيلاً، كان يود أن يتحسس ريح كاتب التاريخ وصانع رايات العلم في حياة أمته، كان في بلنسية في الأرض التي درج فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وهو يقول: «كتاب الله وسنة نبيه لم يتركا في سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالاً يعتد فيه، وإن الدين قد كمل، والسعادة الكبرى فيما وضع، والطلبة فيما شرع، وما سوى ذلك فضلال وبهتان، وإفك وخسران، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون،

والحمد لله والشكر كثيراً كما هو أهله». اهـ، فلله ما زال هذا الحرف ماثلاً لليوم، وقد كتب في ديارهم ولم يهتدوا لبعض معانيه. والله المستعان!

كان في صحبته رفقة مباركة من الدعاة إلى القرى التابعة لمقاطعة بلنسية، وتنقل بين مدريد، وبالدكسو، وكاستيون، ونولس. تبعد كل مدينة عن الأخرى قريباً من خمسين كيلاً، وما زالت بعضها بأسمائها العربية لم يتغيَّر منها شيء، وما زالت ذكريات المسلمين هناك عامرة شاهدة على نسب كل مؤمن يدرج في تلك الديار، فيا لله ما أعذب التاريخ وهو يعيد الإنسان إلى ماضيه التليد وتاريخه الكبير حيناً من الدهر!

رأى صوراً كثيرة للمراكز الإسلامية وهي تؤدي رسالتها في الدعوة إلى الله تعالى والتعريف بالإسلام، وقد لفت نظره هناك أن المركز في بلنسية يستقبل في أحد مناشطه كل من يريد وظيفة ويتولى إعداد سيرته الذاتية ويسعى في إعانته بشتى الوسائل الممكنة، وقد رأى أفراداً من غير المسلمين ينتظرون



أدوارهم للدخول إلى ذلك المركز في سبيل البحث عن وظائف تؤمــن لهم مســتقبلهم، ورأى في ذات المركز امرأتين من غير المسلمين تؤديان دورهما في المركز وتقومــان بترتيــب الأولويــات للمتقدمين تطوعاً، وبات هذا المركز واحداً من صنَّاع الحياة في تلك البقاع.

من أعجب ما نقل له هناك أثر التطوع على غير المسلمين فكثيراً ما يدعوهم للسؤال والإعجاب! إن الفرد من الغرب يتطــوع للمقابل الــذي يلقاه؛ لأن التطوع عندهم عمل ينتظرون منه شــهادة، أو تذكرة قطــار، أو مفاضلــة في وظيفــة، أو تزكيــة، أما في الإســلام فهو لله تعالى دون انتظــار أي مقابل، وكم دعاهم هذا العمل كثيراً للقراءة عن الإسلام والبحث عن هويتهــم المفقودة مــن جديــد. وما زالت هذه القضية بالذات تدعوهم للســؤال وهــم غارقون في الحيرة مما يرون ويشاهدون!

رأى تلك المراكز وهي تدفع من عرق أبنائها في البناء قدر وسعها، وقد اســتمع في المركز الإسلامي

في بلنسية إلى جهود العاملين من أجل نشر الإسلام وتوسيع أثره مع قلة دعم، فالمركز مضى له ما يزيد على خمسة أشهر لم يُدفع إيجاره والبلاد تمر بأزمة اقتصادية كبرى، وحاجة تلك المراكز للدعم فوق كل حاجة، وبلغ الحال بهذه المراكز التي هي منارة الدعوة هناك أنها لم تستقبل كتاباً أو منشوراً جديداً للتعريف بالإسلام من أحد عشر عاماً، ومدير المركز محال عن العمل لظروف المركز المالية، وكثير من تلك المساجد أو المصليات لا تجد من يؤم المصلين، أو يُعلِّم الناس دينهم إما لقلة الكوادر البشرية المؤهلة أو لقلة المال الذي يعين هؤلاء على التفرغ وأداء رسالتهم في تلك البلدان.

رأى الحاجة هناك ملحة إلى كتب ومطويات ومنشورات تدعو للإسلام وتعرِّف به، وتعين على فهمه، وحاجة تلك الكتب إلى كُتَّاب يتقنون فهم وفقه شرع الله تعالى، ويجيدون فن الحوار العقلي وينطلقون في كتاباتهم من ثقافات تلك البلاد وتساؤلاتهم وإشكالاتهم، ورأى جملة من الدعاة

هنـــاك مســـرورين بكتـــاب أديـــب وفقيـــه الشـــام الطنطـــاوي رحمه الله تعالى: «تعريف عام بدين الإســـلام»، أَمَا يجد هذا الواقع طالب علم يقرأ واقع القوم، ويكتب لهم عن مباهج الإســـلام ويغريهم بمعانيه؟! دونكم أيها الكبار حديـــث نبيكم صلى الله عليه وسلم: «**لَئن يَهْـدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[1]، دونكم هذا المورد العذب الزلال! ما أكثر الأسئلة المشكلة لدى أولئك! الســـؤال عن العلة في تحريـــم المحرمات، والتعدُّد، وحجاب المرأة، وضوابط الحرية.

رأى جملة من أخلاق غير المسلمين، كمن يؤجِّر مقراً للمركز الإســـلامي ولا يأخذ مقابلاً لمدة خمسة أشـــهر إدراكاً منه للظـــروف التـــي يمرُّ بهـــا الواقع المعيشـــي للبلاد، وهو عازم على أن يمنحهم الوقت الذي يريدون حتى يجدوا ما يسدون به ما عليهم من تكاليـــف، وآخر يؤجر جزءاً من بيتـــه ويهيئه ويفتحه لهم مع صـــلاة الفجـــر ويعينهم علـــى أداء عباداتهم ويتحمـــل ما يأتي عليـــه بعد ذلك من ضـــرر، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦) (٣٤).



المشاهد تدعو كل مسلم إلى أن يعيد قراءة قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

- رأى كثيراً من أولئك يكرهون الفضول في النظر والسؤال، فلا تكاد تجد أحداً منهم ينظر إليك إلا لماماً ولحاجة عارضة، ثم يذهب في عمله وينشغل بما بين يديه، أخذوا قيمة من قيم الإسلام وتمثَّلوها واقعاً، وما زال فئام من المسلمين يخفقون في كثير من صور هذا المعنى الكبير: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(١).

- رأى في المقابل أقواماً مختلفين في الأفكار والمفاهيم والقيم لا كما يُصوَّر له ولغيره، فالفندق الذي سكنه حاول أصحابه أن يقفزوا على هذه القيم، فقد اتفق معهم هو ورفاقه على أجرة معينة، واختلفوا معه ومع رفاقه في اليوم الثاني، ولم ينجح

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٣).



في إقناعهم ودفع هــو وأصحابه مرغمين! وقل مثل ذلك في فضول بعضهم، وخروج بعضهم الآخر عن سـياق الأدب العام في الأماكن العامــة، وأدرك أن مشكلة كثيرين أنهم يأخذون طرفاً من القصة ويتمُّون فصولها الأخــرى، ويأخذون انطباعــاً عن جزء من البلد، ويتكلفون في تعميم فصول بقية المشاهد.

أدرك في سفره ذاك حاجته إلى التقنية واستثمار وقته من خلالها. إن المســافة التي قطعها في ســفره بدأت من جدة إلى الأردن ساعتان، ومن الأردن إلى إسبانيا خمس ساعات، وكان يقضي بين بعض المدن في تلك البلاد ســاعتين أو أكثر في القطار الســريع (المترو)، وكان معه حاسبه المحمول وجهازه الآيباد وكان يراوح بينهما، وتيسَّــر له من القــراءة والكتابة ما لم يكن في الحسبان.





في كوسوفا

- سافر إلى كوسوفا يوم السبت (١٤٣٥/٧/١٨هـ) وبقي فيها إلى الخميس (١٤٣٥/٧/٢٣هـ).

- كانت الأجواء في تلك الفترة ممتعة ومباهج الربيع تغطي مساحات الأرض، وأخبروه أنها على ذلك الحال ستة أشهر من العام.

- كوسوفا جزء من بلاد ألبانيا، وهي متاخمة للصرب، وقد جرت بينهم حروب وأحداث، وإحصائية المسلمين هناك تصل إلى (٩٠٪) ولكنهم مسلمون بلا هوية وإسلام بلا واقع، ولا تستغرب أن تجد من في هويته الإسلام لكنه لا يصلي ولا يعرف طريقاً للمساجد إلا يوم الجمعة إن شاء.

- تنتشر المساجد بصورة ملفتة للنظر، وأبنية فخمة ومنارات تعانق السماء على العمارة التركية،

ويتردد فيها الأذان مسموعاً خمس مرات في كل يوم والسلام فاشٍ بصورة كبيرة، وتلك المساجد من آثار الوقف الإسلامي جزاهم الله تعالى توفيقاً، وكتب لهم ما يحلمون به من آمال، والمساجد من عهد الدولة العثمانية في تلك البلاد، وتركيا باسطة يدها هناك، ولا يمكن أن يجدد أي مسجد إلا ببقاء جزء منه يذكِّر بالدولة العثمانية ويعيد ذكرياتها من جديد.

- أكثر المصلين في تلك الديار من سن الشباب وغالبهم من طلاب الجامعات، وثمة مشاهد في بيوت الله تعالى آسرة إلى أقصى مدى، وهو إقبال يدلُّك على أن هذا الدين كما قال الله تعالى فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] مهما كانت جهود الأعداء والمناوئين.

- تُقدم المراكز الإسلامية دوراً بهيجاً في الواقع، وتنطلق في كل أعمالها من المسجد، وهو هناك قاعدة البناء وبداية الطريق، ومن خلاله تنطلق مشاريع النهضة الكبرى لتلك المجتمعات.

- في المساجد هناك تُقام الدروس، والمحاضرات، والمؤتمرات، ولقاءات الأعياد، واجتماعات العزاء، وكل ما يمكــن أن يكون ســبباً في اللحمــة وأثراً في البناء.

- لبلاد الحرمين دور كبير فــي تلك المعاني التي أشــار إليها، فغالب الذين يديرون الدعوة ويحركون العمل ويصنعــون واقعاً لديــن الله تعالى هم طلاب الجامعات السعودية، والوقف الإسلامي حاضر بأثره وجهده ومشروعه.

- صنع بعــض الدعاة (اســتديو) لتصوير حلقات العلم والتربية والدعوة والإصــلاح وكلمة الحق من ســطح المســجد ويبث منه لألبانيا كلهــا، ويؤلف ويترجم ويطبــع ويجهد فــي بناء مشــروعه، وربما لا يجد ما يسد يومه من العيش، لتدرك أن كل إنسان على قدر أحلامه، ومن عرف مشــروعه الشــخصي ووجد تخصصه وعثر على فكرتــه الملهمة صنع كل شيء مهما كانت الظروف التي يعيشها في زمانه.

- حكى لنا أحدهم عن قصة نضال الإنسان وهمته وأثر مشروعه من خلال شخصية (حفظي)، وهو في الأصل سائق شاحنة قرر أن يكون له مشروع يوسِّع به دائرة الإسلام، ففتح إذاعة أصلها في النمسا وفروعها في كوســـوفا وغيرها يبـــث منها لألبانيـــا كلها معالم الإسلام وهدي الوحي وآثار هذا الدين في العالمين.

- رأى وقفـــاً عبارة عن مدرســـة لتحفيـــظ القرآن الكريم من زمن الدولة العثمانية أُوقف خمسين سنة، ثم أعيد بناؤه من جديد، تســـكنه جموع من الطلاب يبقـــون فيه أســـبوعاً كامـــلاً بعضهم يعود فـــي نهاية الأســـبوع إلى أهلـــه، وبعضهم بعد شـــهر، حســـب الظـــروف، وهي مدرســـة متكاملة من حيـــث الأبنية والمرفقات والتغذية والملاعب وكل شيء.

- يوجد ســـكن للطـــلاب الجامعيين فيه خمســـة وثلاثـــون طالباً ينتظمـــون من خلاله في دراســـتهم، ويربون علـــى الفضائل من خلال مناهـــج مرتبة لبناء هؤلاء الشباب، ويعينهم على النجاح على مستوياتهم الشخصية كلٌّ في فكرته ومشروعه ومجاله وتخصصه.

- وقف على أحد الأوقاف التي تعرض لهجوم الصِّرب أثناء الحرب وما زال ماثلاً، له ثلاث مئة سنة وثمة محاولات لتجديده وإعادة الحياة فيه من جديد.

- (قناة السلام) قناة تلفزيونية تكلفتها في العام الواحد (١٥٠) ألف يورو، تم التنسيق فيها مع الداعية المُسَدد (ذاكر نايك)، تؤدي دوراً بارزاً ومؤثراً على مستوى ألبانيا بأجمعها.

- ألقى هناك دورة مشروع العمر وامتلأ المسجد من طلاب الجامعات دون إعلان مسبق، وخرج من المحاضرة وإذا بجموع غفيرة في الطرقات رجالاً ونساءً، ورأى مشاهد آسرة للحجاب إلى أقصى مدى.

- من لطيف فقه الدعاة هناك أنه سأل القائمين على المسجد: هل سجلوا الدورة التي أقيمت له؟ فأجابوا: بالطبع! ثم قالوا له: كل ما يقام في هذا المسجد مسجل من سنوات طويلة جداً ولم يفت منه شيء.

- سافر في تلك المرة مع أبي عبد الرحمن الشيخ وليد النوح جزاه الله تعالى خيراً ورفع مقامه في



الدارين، وذلك أول سفر معه، وقد وقف على مشاهد في تلك الرفقة تستحق الإشارة والتدوين.

سافر معه وكان مثالاً في الأخلاق يتمثَّل خلق ابن المبارك رحمه الله تعالى عملاً وجوداً وكرماً وسماحة، وكم مرة سبقه إلى خدمته! وكان لا يفصل في أمر حتى يشاوره، ولا ينام في غرفته الخاصة به حتى يمر عليه ويسأله عن حاجته، ووقف في النهاية عاجزاً عن أن يأتي على بعض تلك الخصال، فكيف بها مجتمعة مؤتلفة؟!

لا يعرف أن ذلك الرجل جلس على طعام وخلَّف بقاياه وراء ظهره، كان يجمع تلك البقايا فإن كانت صالحة رتبها وحملها إلى أقرب محتاج، وإن كانت غير صالحة حملها ليطعمها الطيور، وكان يشتري بعض الفاكهة ويحملها معه في الطريق إلى المسجد، ويجتمع الناس حوله ويأكلون ويستمتعون، فلله ما أعذب ذلك الشعور! وما أروع تلك النفس! وما ألذ تلك الصحبة!

كان ذلك الصديق يشتري الحلويات للصغار وكلما لقي مجموعة منهم وزَّع عليهم تلك الحلويات

وتركهم تغشاهم لحظات الفرح والذكريات، وودَّعهم وهو يقول في نفسه: وما الإسلام سوى هذه المشاهد من الجمال والجلال؟!

أتى في النهايــة على مطار (آدم شــعبان) وهي الشخصية التي أثارت الشرارة الأولى في الحرب مع الصــرب، وقد رحــل آدم مقتولاً في تلــك الحرب، وجعلوا المطار باســمه تخليــداً لتلــك الذكريات، ويخبرك أنه لما رأى المطار وسمع تلك القصة تخيَّل شــجاعة الرجال، وتذكر مواقف الوفاء فتقاطر الدمع على وجنتيه!



في ألمانيا (برلين)

سافر إلى ألمانيا (برلين) في يوم الثلاثاء (١٤٣٦/٦/٤هـ) وبقي فيها إلى يوم الثلاثاء (١٤٣٦/٦/١١هـ) بدأ رحلته مع أبي عمر عبد الله التويجري، ولأول مرة التقى به في مطار الرياض، وقد رتَّب الرحلة صديقٌ للاثنين، وبدأت حكاية الجمال ولم تنتهِ فصولها حتى الآن، ثم لحق بهما فضيلة الشيخ إبراهيم الهلالي بعد وصولهما هناك.

تعرف على أبي عمر فوجد سعة في باله ومشاعره وروحه ما كان له بها عهد ممن حوله، واسع البال فسيح الخاطر والمشاعر، سهل لا يكاد يختلف معه في شيء، وكان محباً عاشقاً للتراث!

عرف فيما بعد أنه يزور هذه البلاد بالذات في كل عام ويبقى أياماً وأسابيع هناك، وما وجد قديماً

من الراديو والتلفاز والساعات والتحف وكل ما يخطر على بالك إلا استوقفه ودفع فيه المال واقتناه، ويذهب في أيام محددة لزيارة بعض الأماكن؛ لأن جزءاً من كبار السن والأكاديميين ونحوهم يعرضونها للبيع في مثل تلك الأيام، وعرف منه بعد ذلك أن كل هذه التحف لديه في مزرعته الخاصة بالرياض. وإذا أردت من أحد أن يخبرك عن أخبار المطر والسيول وأخبار الطقس والربيع فسله، فإنه كل يوم في مساحة من الأرض.

عاشت ألمانيا رقاً في زمن (هتلر) وأرادت ألا يتكرر عليها شؤم التجربة من جديد فتحولت الدولة إلى اتحادات وولايات، وكل ولاية لها ما يخصها في اختيار القائمين على إدارة مشاريعها، ولكل الولايات دائرة مؤثرة في صناعة القرار.

رأى هناك وسائل النقل كلها: (المترو، والقطار، والسيارة)، فسهلت الحركة والتنقل بين أرجاء المدينة، حتى الدراجات لها طريقها الخاص بها بجانب طرقات المدينة الكبرى.



رأى هناك عناية بالإنسان والبيئة فالسيارات التي يركبها تطفأ في إشارات المرور بمجرد أن تنقل رجلك عن البنزين محافظة على مخزونه، ومحاولة جادة في حجب آثار الكربون. وثمة فحص دوري لكل سيارة لقياس كربونها، وأي سيارة وجد فيها نسبة كربون فعليها دفع ضريبة سنوية مقابل ذلك الكربون، وإذا ركَّبت الفلتر الخاص بذلك ساعدوك بنصف التكلفة. وكثير من السيارات هناك على الديزل ومع ذلك لا ترى شيئاً من أثر العوادم.

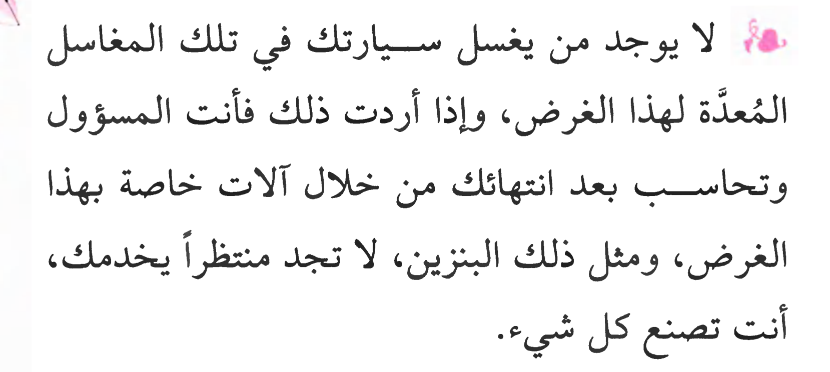
حين تبني بيتك لا بد أن تراعي العوازل لأثرها في تخفيف العبء على الطاقة، وإذا كان بيتك قديماً وأحببت أن تغيِّر نوافذ بيتك بما يمد في أثر الطاقة فستُساعد بنصف التكلفة أو قريب من ذلك.

المسار الأيمن في الطرقات العامة فارغ وممنوع من السير فيه نظاماً، وهو خاص بسيارات الأجرة والباصات، وإذا أردت أن تأتي من خلاله فعليك الدفع مقابل وصولك أسرع من غيرك مساهمة في إعانة هؤلاء، وهو طريق صالح لسيارات الإسعاف والشرطة كذلك.



- إذا كنت لا تعمل فتستلم (٧٠٠) يورو، (٣٥٠) للسكن، (٣٥٠) للمعيشة ويبحثون لك عن عمل، فإذا وجدوا لك عملاً فرفضت خُفِّف ما يدفع لك إلى النصف، ثم إذا جاءت فرصة عمل أخرى ورفضت أوقف عنك الدعم بالكلية، وليس شرطاً أن تكون ألماني الأصل، فكل من وصل البلد وثبتت إقامته في البلد فله حق في ذلك لا فرق.

- ثمة شركات لسيارات الأجرة تمنحك بطاقة بقدر من المال وتطبيقاً في الجوال، تقف تلك السيارات في أماكن مخصصة لها، وفي أماكن قريبة ومتباعدة، يمكنك من خلال هذا التطبيق البحث عنها وإذا وجدتها لك أن تتحرك فيها وتقضي حاجتك، ثم توقفها في المكان الذي انتهى فيه غرضك إذا كان في الخارطة الخاصة بها، ومن الغريب أن صاحبه ركبها وكان في الطريق لزيارة زميل، ولما وصل رفضت الوقوف في ذلك المكان لأنه خارج حدودها، ثم أخذ في إرجاعها حتى دخل حدود حركتها فتوقفت.



لا يوجد من يغسل سـيارتك في تلك المغاسل المُعدَّة لهذا الغرض، وإذا أردت ذلك فأنت المسؤول وتحاسـب بعد انتهائك من خلال آلات خاصة بهذا الغرض، ومثل ذلك البنزين، لا تجد منتظراً يخدمك، أنت تصنع كل شيء.

الأجواء ممتعة ومثيرة لوجدان الإنسان ومشاعره، والغيث لا يكاد ينقطع، والشـمس تظهر وتغيب في ذات اليوم عشـرات المرات. وثمة مسـاحات كافية للحدائق منظمة ومرتبة من خـلال أماكن للجلوس، والترفيه، وممرات خاصة بالمشي.

كثيرون أولئك الذين يمشون في الطرقات رجالاً ونسـاءً، وثقافة الصديق والزميل بين الجنسـين في أوسع صورها، والزواج هناك لا يكلف شيئاً والمرأة الألمانية لا تأخذ مقابلاً فـي زواجها لأنها ترى هذا بيعاً لنفسها فلا ترضاه، ولا يحبون الارتباط، وقلَّ أن ترى صغيراً في شارع، وإذا رغبت أن تشبع عاطفتها بالولد اتخـذت كلبـاً واثنين وثلاثـة تعيش معهم



ما بقي من العمر في صور تدلك على الفوضى إلى أقصى مدى.

- ثمة رعاية ظاهرة جداً لذوي الاحتياجات الخاصة ترى ذلك في مواقف السيارات العامة، والأعمى الذي يسير في الطريق يمكنه من خلال عصاه أن يعرف أين يقف من الطريق من خلال علامات مساعدة له على ذلك، وإذا وصل إلى إشارة مرور فثمة أصوات خافتة مصممة له خاصة تدله على أن الطريق له.

- مع كل ذلك فالبلاد بلا هوية، وكلٌّ يجري دون هدف، وغاية كل واحد من هؤلاء أن يأكل ويشرب ويستمتع ثم لا شيء.

- رأى هناك كنائس خاوية على عروشها، لا حركة فيها، ولا تعرف إلا ساعة في يوم الأحد من كل أسبوع، ثم تعود فارغة خاوية من كل شيء.

- في برلين أربعة مراكز إسلامية يديرها الدعاة والمصلحون من الجاليات العربية (تونس، مصر، فلسطين، والمغرب) وآخرون، يقدمون مباهج مثيرة في العمل والحركة والبناء.

- المركز الإسلامي مسجد للصلاة، ومقر للتحفيظ، ومدرسة للتعليم، ومكان للمؤتمرات واللقاءات والدورات. والحاجة تصنع من أضيق الأماكن فسحاً للأعمال الكبيرة.

- ثمة جماعية رائعة بين أولئك في تلك الأمكنة، وتحققت تحديات من خلال هذه الجماعية، فقد فاز الطالب (إبراهيم) في مسابقة الملك عبد العزيز الدولية لهذا العام في خمسة أجزاء، ووجد شاباً يضبط الألمانية والإسبانية والتركية وفي طريقه لضبط العربية، وقد بلغك أن كل إنسان إنما هو صورة لهمته وإرادته الصلبة في النهايات.

- لقي شيخاً فرَّغه الجادون هناك لطلب العلم في الأزهر لأربع سنوات ثم عاد وهو مفرَّغ للدعوة، تتعاون المراكز لدفع تكاليف دعوته وتفرغه، وهذا المشروع من أبهج المشاريع هناك، وقد زاره في أماكن تفرغه ودوائر عمله ومشروعه، ورآه كالنحلة في حركته وأثره، وهذا المشروع مع مشروع تعلم العربية

الذي زاره في أحد المراكز من أكثر المشاريع أثراً في تلك البلاد.

وجـد ابن القيـم في برليـن، لم يجد جسـده ولا صورته، وإنما وجد فكرته ومشروعه، وتردد اسمه في أذنه كثيراً حتى دمعت عيناه، وكان الشـيخ يشرح كتابه مدارج السـالكين، ويُعلِّم أجيال الإسـلام من خلال آثـار ذلك العلـم الكبيـر! فللـه ما أكثر أثر المشاريع!

فرح كثيراً وهو يرى أولويات العمل هناك ظاهرة من خلال مشـاريع (التعليم، وتفريغ الدعاة، والعناية بالعربية، والقرآن الكريـم)، وإذا أدرك فرد أو جماعة قضايا الأولويات أتوا على آمالهـم من أقرب الطرق وأيسر المسالك.

ألقى هناك خطبة الجمعـة في حضور بهيج من المسلمين، وألقى كلمات في المراكز الأربعة، وألقى دورة (مشروع العمر) لثمانين شاباً وفتاةً، والأماني أن تجد تلك المعاني أرضاً خصبة للنبات. وتعرف على



العمل الدعوي ورأى كيف تستثمر المساحات الضيقة في واقع أرض! وشاهد كيف يصنع الإخاء والتكاتف والتعاون عملاً بهيجاً ونجاحاً كبيراً في كل شيء. وتواصل معه صاحبُ همٍّ في تلك الفترة ودفع بمكتبة الشيخ ابن عثيمين كلها كمشروع لطلاب العلم هناك.

عاش هناك سبعة أيام فتوسعت تجربته، ورأى ما يدفع بآمال الإنسان لواقع العمل، وفقد في المقابل الأذان، وصلاة الجماعة في بيوت الله تعالى، ورأى مشاهد الشهوات تَفْطِر القلب، ولا تكاد تُبقي شيئاً من آثار الروح فيه، والله المستعان!

لقي هناك بطلاً وصاحب راية وحسن خلق وصاحب مبادرات، لقي الشيخ محمد طه من تونس الحبيبة، وجده أول ما قدم تلك الديار فوجد الحياة! وثمة أناس تلقاهم فلا يجري في نفسك شيء منهم، وأناس يبقون زمناً ثم يرحلون، وأناس تكفي اللحظات لصحبة ما بقي من العمر! كان هذا الرجل مدرسة في الأخلاق والوفاء والجمال، وعاش معه

ومع صاحبيه في كل لحظة يرتب وينسِّق، يأتيك في الصباح الباكر ويأخذك معه في المساء، والأدهش أنه كان يعرف أين متع ضيفه ولحظات التجلي لديه، فكان يذهب به إلى أماكن الشاي، وهي أماكن تقدم الشاي في صور رائعة من الجمال، حتى أنهم يأتون به إليك ويضعونه على طاولة صغيرة مصحوباً بالنار الخافتة التي تحافظ على حرارته وإلى جواره الليمون واللوز وأشياء لا تلقى ذوقها إلا في مباهج تلك اللحظات، فإذا ما انضاف إلى ذلك ثقافة ذلك الرجل وأناقة خُلقه وشاعريته وأبيات الغزل والحب وحديث الورد والربيع والجمال فلا تسل حينها عن مراتع العشاق في مساحات الربيع.

حين عزم على الرحيل ما كان من ذلك الصاحب الأنيس إلا أنه وضع يده على حذاء ضيفه فقال وقد تأملها: ما شاء الله، كم رقم هذه الحذاء؟ وكيف هي معك؟ وظن أنها أعجبته وفاته أنه كرم ذلك الشيخ يريد أن يتأكد من مناسبتها له ليهديه أجمل وأغلى منها، فودعه وما عاد إلا بحذاء جديدة وحلويات



كثيرة وهدايا، وليته عرف أنه ـ وقبل هداياه ـ لم يبقَ في القلب مساحة إلا أحبته ورويت منه، فما أعذب تلك الأخلاق! وما أوفى بعض الرجال! وما ألذهم على القلب! وما أجملهم في مشاعر إنسان!

- استثمر جزءاً من رحلته في تسجيل بعض المفاهيم والأفكار، وطرحها من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

- ذهب هناك بذات اللباس، ولا يعرف أنه لبس غيره في زيارة أرض العرب والغرب، وقد ألفه ولا يعرف غيره، وهو من نوع إذا ألف لباساً أو مأكولاً أو مشروباً أو سكناً فلا يكاد ينتقل عنه إلا بمشقة وجهاد، حتى أن صاحبه أبا عبد الله ياسين الدرهمي كان يذهب معه للعمرة مراراً ويعرف كثيراً من هذا الإلف فيعلِّق مازحاً لأهله وبعض الرفاق: إذا فقدتمونا فلا تبحثوا إلا في موطنين أو ثلاثة من مكة كلها وحتماً ستعثرون على ما تريدون.

- عاد أخيراً من سفره، عاد وهو يزعم أنه رفَّه روحه وجسده ومشاعره، ولكن الحقيقة أنه رفَّه جسده وفقد

في ذات الوقت روحه ومشاعره في كثير من الأحيان، ولم لا يكـــون كذلك وقـــد اختل ورده مـــن العبادة، وتشـــتَّت علاقته بكتـــاب الله تعالى، وضـــاع جدوله القرائي الذي يمارســـه كل يوم؟! وقد حاول مراراً أن تتســـق له هذه المعاني في السفر فما كان له إلى ذلك من ســـبيل، فلا تلوموه إذا كره السفر، ولا تعتبوا عليه إذا ألف تلك القرى، ولا تماكســـوه على ترك مكتبته ومسجده وحيه؛ فإنما هي عنده كل شيء.





والخلاصة

- أن السفر عنده إذا لم يكن لهدف فلا مفروح به، وقد حاول مراراً أن يقنع نفسه للخروج للسياحة وترفيه النفس والخروج من ضغط المشاريع، ولكنه أخفق في إقناع نفسه بذلك مراراً، ووصل إلى قناعة أنه لا سبيل إلى ذلك إلا أن يشاء الله تعالى فيهبه من لطفه ما يغيِّر تلك العادات.

- السفر ـ مع كل ما فيه ـ يمنحك تجربة خصبة، ويعينك على تصحيح تصوراتك ويهبك معرفة ثرية بالواقع من حولك.

- لا يمكن أن يأتي شيء صافياً! وستظل الحياة مشوبة بكثير من المنغصات، ومن قواعد الدين الكبرى: أن الدين جاء بتحصيل المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها، والسفر كذلك، تريح نفسك وتخرج من أطر عملك وظروفك، وتلقى في المقابل مما تراه هنا أو هناك ما يُجْري الأسى في خاطرك ومشاعرك.

أشياء أخرى

(من الشتات يمكنك أن تخلق صورة ملهمة للحياة)

تأسره الفكرة الحية لدرجة الشغف، ويبيت مولعاً بها غالب الوقت، وكم من فكرة عابرة صنعت في حياته مشروعاً بهيجاً! ولو قال لك: إن جزءاً من مشاريعه جاء من آثار هذا المعنى فهي الحقيقة.

لو كان شاعراً لتنفَّس في حروفه ما شاء، ولأتى على مشاعره حين تثور في لحظة ربيع أو قصة حب أو ذكريات إنسان! وكم مرة فاضت المشاعر في وجدانه! وكان أحوج ما يكون إلى شاعر يصنع من تلك اللحظة أفراحها ومشاعرها، ويصوغ لها حكايات الزمان، ولم يجد إلى ذلك طريقاً، وقد بقي هكذا زمناً طويلاً حتى جاءت وسائل التواصل الاجتماعي، (توتير) على سبيل الخصوص، فجال مشاعره كما يشاء، وإذا أردت أن تقف على رواء هذا المعنى واضحاً فاقرأ كتابه:



(بوح المشاعر)، فهو ليله الذي بات فيه ساهراً وضحاه الذي ظل فيه مناضلاً، ولحظات الحب التي أخذت مساحات من القلب والوجدان.

كان صادق الحب، وإذا أحب إنساناً أفضى إليه بكل شيء، ولا يعرف حتى هذه اللحظة محباً يهب لك جزءاً من قلبه ويتصرَّف في الآخر كيف يشاء! وقد قرأ كلمة علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ حين قال: أحبب حبيبك هوناً ما فقد يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك يوماً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما، ومع متانة ما يقول رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ إلا أنه طبَّق الشطر الثاني بامتياز، وأما الأول فغالبه طبعه وأثَّر عليه في ذلك، ولم يطبق منه شيئاً البتة، وما يصنع بطبعه وجبلته؟!

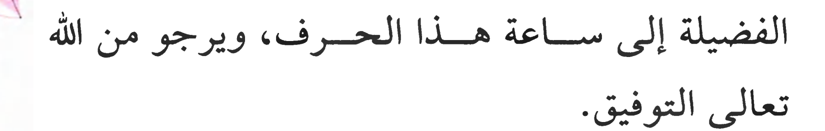
الحب عنده فوق ما يسطره لك من حرف في هذه المساحة، كان محباً لدرجة الوله، وعاشقاً فوق العادة، وقد كان يقيمه حرف الحب من مقعده ويبقيه ساهراً في مرات حتى الفجر. كان وما زال يدهشه حرف الحب، وكلمة الحب، ولقاء الحب، وأماسي الحب، وما أحب قمر ليالي البيض، ولا لقاء الأحباب

والسمار إلا لذلك المعنى، وفي قلبه ومشاعره من ذلك المعنى ألف قصة ومعنى!

يعجبه الوضوح جداً، وقد يبلغ ذلك درجة الغلو، ويخسر بذلك جملة من المقربين دون وعي! وفرق بين المداراة والمداهنة، وقد يحاول المداراة في بعض الأحيان وتغلبه الصراحة فيبوح بكل شيء. وكلاهما فن، والمواءمة بينهما كمال عقل، وما زال يسعى ولم يصل بعد! يمكنك من خلال لقاء واحد أن تكشف كل ما عنده، فهو لا يحسن فوضى النفاق، ولا يعرف من ذلك شيئاً.

الأصل فيه السماحة، والعفو، وقد يغضب ويخرج عن طوره، وكم من لقاء خرج منه خاسراً! وقد يرتِّب مع نفسه أن يربح ذلك اللقاء دون غضب، لكنه يخفق في النهاية ويعود خاسراً، ويكبر ويكبر معه ذلك الإخفاق، وما زال يبحث عن توفيق.

رفع الصوت عنده أثناء النقاش جبلة وفطرة، ويراه لا يصلح للكبار! وما زال يبحث عن هذه



الفضيلة إلى ساعة هذا الحرف، ويرجو من الله تعالى التوفيق.

- مؤمن بأنه يمكنك أن تصل لفكرتك وأنت في أهدأ حالاتك، والصوت العالي لا يملكك الحق بقدر ما يبين عن صقالة رأيك وضعف حجتك! ومع كل هذا الإيمان وتلك القناعات إلا أن طبعه يغالبه في كل لقاء، والله المسؤول أن يكرمه بتحقيق أمانيه في هذا الشأن.

- مؤمن بأن الهدوء لا يضيع حقه، ومع ذلك يرسب في تحقيق هذا المعنى، ويركض إلى الرأي المقابل بفكره وآرائه ويتمه بصوته، ولا يقف حتى يكفِّن ذلك الرأي ويرتاح منه.

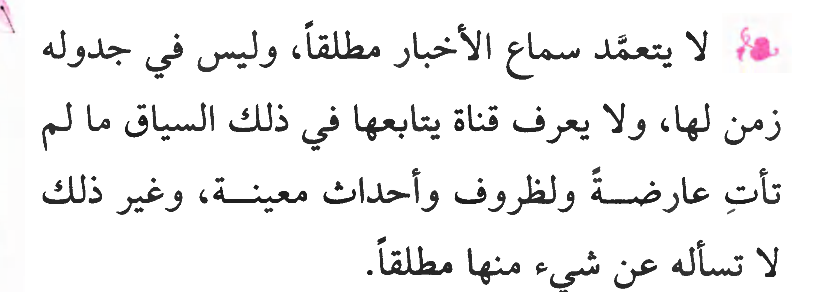
- قرأ في فضيلة التؤدة من نصوص شريعته أشياء كثيرة، ويعتقد أنها تاج فضيلة، لكنه لم ينجح في كثير من مواقف حياته في هذا الشأن، وغالبته العجلة في مواطن، وخسر في مواقف منها، وتمنَّى لو تأخر قليلاً! وما يضره أن يمنح الموقف وقتاً ليأتي على مباهجه، ولكنه عجز في مواقف عن تحمل ركام تلك

الشـكوك والمواقف التي تتزاحم على خاطره فيرمي بها ويعـود ليتحمَّل تبعاتها كل حيـن. وما يزال إلى ساعة هذا الحرف يسـأل الله تعالى أن يمـنَّ عليه بالصبر، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إذا تحمَّس لقضية طار بها في الآفاق، وصنع لها مجداً وبنى لها كياناً وغرد بهـا، وألقى عليها حرف الإجلال حتى يناطح بها السحاب، وإذا عارض فكرة ألقى بها في جبِّ الهلاك دون حسرة.

لا يحب السياسـة، ويكره الخوض في رحابها، ويراها شؤم زمانه، وكم أضاعت على طلاب العلم من أوقات لو جمعت لكونت مشروعاً مهولاً مع الأيام!

لم يحـدث أن قـرأ خبـراً سياسـياً إلا لماماً ولظروف عارضة، ويكفيه أدنـى الأخبار من ذلك! ولولا أنه رجل يطرب لسماع النجاحات لما استقطع شـيئاً من وقته في ذلك، ولما شـارك فيها قلمه من الأصل، لكنها الطباع تلقـي بظلالها على أصحابها كل حين.



لا يتعمَّد سماع الأخبار مطلقاً، وليس في جدوله زمن لها، ولا يعرف قناة يتابعها في ذلك السياق ما لم تأتِ عارضـــةً ولظروف وأحداث معينـــة، وغير ذلك لا تسأله عن شيء منها مطلقاً.

تعجبه الحرية، ويكاد يطير بمعانيها، وإذا أردت أن تستثير قلمه فافتح له نافذة على هذا المعنى، ثم انتظر حرفاً بهيجاً في تلك اللحظات، وأســوأ مفهوم يحاربه في حياته كلها مفهوم الاســتبداد، وأكره ما لديه العبيد الذين يقتاتون بحرياتهم مالاً أو مكانةً أو مسؤوليةً!

حين عمــل في جمعيــة البر مزَّق ورقــة الدوام، وأطلق ســراح الموظفين، وجعل العلاقــة بهم علاقة أهداف لا علاقة ورقة دوام، وصنع مثل ذلك في جمعية التحفيــظ إبان العمل فيها، لأنه إنســان ينشــد الحرية ويكره الأغــلال، ويؤلمه أن يرى مســجوناً يبحث عن نافذة في باب السجون أو نور يتسلل من ثقوب الظلام.

يعجبــه فــي الرجــل ثلاثــة أشــياء: (الجود، والشجاعة، والعمل) وإذا وجدها في رجل فذاك أخص

الأصحاب! ولو كنت تملك كل شيء وتصنع ما تريد وحلفت يميناً مغلظة أن تجمعه بجبان أو بخيل أو فارغ من العمل لخرج ثائراً على تلك الخصال، وما يصنع بأعداد لا تسمن ولا تغني من جوع؟!

أسوأ الصور عنده صورة عبد لفكرة مشؤومة أو لواقع بئيس أو خالٍ من المشاريع والأهداف، وقد سأل الله تعالى في كتابه بوح المشاعر ألا يجمعه الله تعالى بضعيفٍ أو عبدٍ لروتين!

من أسوأ ما رأى في العبودية عبودية العادات والتقاليد والأعراف، وقد رأى في زمانه من يأخذ ويعطي ويصنع فألاً في كثير من المواطن، وحين يصادف العادات تأسره وتلقي به مكبلاً في قيود الحريات، ولو لم تشاهد من ذلك إلا عادات الزواج لكفاك دليلاً على أسر تلك العادات، وقد لا تظفر في زمانك بصاحب راية في مثل هذه المعاني الكبار.

يأسره الجمال وقد يصنع له حكايات، وتؤلمه في ذات الوقت مواقف الألم إلى أقصى مدى، وكم



مرة سمع حديثاً عن قصة وفاء أو مشاعر فَقْد، فذهبت عينه تجود بدمعها دون مقدمات.

كان مولعاً ومـا زال بالبخـور، ولا يعرف أنه خرج من بيته إلا متبخراً، ومـن وجد خلاف ذلك فلعـارض وهو خـلاف الأصل! وقد عـاش يحب الطيب ويدفع فيه كل شيء، ولو لم يكن له من ذلك إلا قوله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُم الطِّيْبُ وَالنِّسَاءُ**» لكان كل شيء.

يتدفق حبر قلمه حين يرى قطعة ربيع في مساحة أرض، أو قمراً في ليل من ليالي البيض، ويندا ح شوقاً حين يسـمع قصيد الحـب! وينيخ مطايا المشـاعر للصوت العذب، وإذا سمع حادياً ترك كل شيء وأقبل مصيخاً لرواية الجمال!

يعجبه القارئ محمد أيوب لدرجة الوله، ويطرب لسعد الغامدي، وينيخ مطاياه في رحاب صوت محمد المنشاوي، ويسمع كثيراً ويطرب لصوت عبد المحسن القاسم، وما عدا هؤلاء فيسمع لهم لماماً فحسب.

يطرب للنشـــيد، وتؤثِّر فيه القصيدة الرائعة، وإذا صاحبها حداء جميل أتت على كل شيء من مشاعره، وقد تمرُّ به الأشـــهر لا يسمع نشـــيداً فإذا وجد شيئاً عارضاً أرخى له سمعه ومشاعره تلك اللحظات.

ليس مع هؤلاء الذين يشنون حرباً ضروساً على النشيد ويرونه غير لائق بالإنسان، وليس في المقابل مع أولئك الذيـــن يرونه كل شـــيء، وخيـــر الأمور أوسطها، ويعجبه من ينصب وقته للقرآن، ومن يأخذ من تلك الأشياء حادياً للحياة فحسب.

يذكِّره النشـــيد ببدايات العمل والمراكز الصيفية ولقاءات الشـــباب، فلله لو حدَّثك عن مشاعره حين يســـمع حادياً تلك الأيام لأفـــاض الدمع على خديه، ولأجرى لك ألف قصة وحكاية عن تلك الأزمان.

إذا أمطـــرت الأرض فلا تـــكاد تفـــرِّق بينه وبين الصغار، هم يخرجون يلعبون بثرى الأرض، وهو يخرج يتنفَّس حرف المشـــاعر في لحظات الربيع. ولست أنا ممن عناهم الشاعر في قوله:

إِذَا كَانَ يُلْهِيْكَ حَرُّ المَصِيْفِ
وَيُبْسُ الخَرِيْفِ وَبَـرْدُ الشِّتَاءِ
وَيُلْهِيْكَ حُسْنُ جَمَالِ الرَّبِيْعِ
فَأَخْذُكَ لِلْعِلْمِ قُلْ لِي مَتَى؟!

ولكنه بشر يأخذ الربيع من قلبه حظه، وتثور في مشاعره مساحات الفرح، ويبقى زمناً من عمره مأسوراً للجمال! وما تصنع بإنسان عاش عمره للجمال والربيع والحياة؟!

يقرأ لكل كاتب، ويستفيد من كل قلم، ويحاكم ما يكتب للوحـي، ويحمل ما يراه مـن أخطاء على الطبيعة البشرية، ويرى الإغضاء في كثير من المواطن من شيم الكبار.

قد لا تجد له خلافاً مع أحد، ويحـاول جاهداً في بسط هذا الخلق قدر الوسـع، ويعترف أن ثمة أخطاء في الطريق، وفي بعض المواقف تحتاج إلى شيء من الجهاد.

اكتشف على كبر أن التغيير شاق ومكلف ويحتاج إلى زمـن، وكان في جزء من حياتـه يحاكم الآخرين على نفسه ويريدهم كما يريد من نفسه لا فرق، ولكنَّه



أدرك فــي النهايــة أن الصبر الطويل مــع كثرة الطرق والمحاولة وطول النَّفَسِ يأتي بالأماني الكبار.

وصل إلى قناعة أن (الأفــكار والمفاهيم) أخطر ما يواجه الإنســان في حياته، وقد أدرك الإعلام ذلك مبكراً فصنع من مثيرين أبواقاً له في غير طريق، فكيف بالعوام؟! وامتلأ بهذه الحقيقة حيــن منح القرآن كل وقته أو جله، وعرف من خلاله هذه الحقيقة الضخمة، وتمنَّى أن لو عرفها مبكراً حتى يأتي منها على أمانيه.

لم يجد أبهج من الرفق، ولا أوســع من الصبر، وأدرك في النهاية أنك إذا أردت أن تبسط واقعاً بهيجاً في أسرتك، وبيتك، وأبنائك، وكل من حولك فعليك بالرفــق والصبر، وســتجري لك مشــاهد الحياة في النهاية كما تشاء.

لا تظن أنه موهوب أو من عالم المتميزين الكبار بل هو إنســان عــادي جــداً، ولــك أن تقــول من المتوسطين، ولكنه تعب على نفسه، وكان يؤمن بأن التعب والجد والتركيز وبذل الجهد يعوِّض كثيراً من



النقص، ويلحق به في ركاب الجادين المبدعين، وما زال مؤمناً بذلك، وإذا أراد شيئاً صنع قراراً، وجيَّر له كل وقته، وعاش مناضلاً في الطريق إليه، وبذل فيه كل ممكن، وما هي إلا أيام وقد بلغ فيه أمانيه، هذه قصة نجاحه وتميزه، ولا شيء تبنيه الأوهام!

كان عادياً في أصل دراسته وإن كان في ذات الوقت متميزاً في القراءة والكتابة في الصف السادس بالذات، وكان معلمه الفذ خلف الفاهمي رحمه الله تعالى يكلفه بمتابعة زملائه في حصة القراءة فيسمع لهم ويعد أخطاءهم، ولا يذكر في المرحلة المتوسطة إلا أن أستاذ الاجتماعيات يأتي به من الصف الثاني المتوسط إلى الثالث المتوسط لحل إشكال.

قرر في مساحات من حياته أن يتبنى الحوار على مستواه الشخصي فظل يبعث للزملاء ورفقاء العمل والأصدقاء يسألهم عن الجوانب الإيجابية والسلبية، ويصنع لذلك دروباً في الحياة، وصنع هذا في بيته، فنال من ذلك حظاً كبيراً مع الأيام.

عاش في مجتمعه واحداً منهم في الأفراح والأتراح ولا يذكر أنه تخلَّف عنهم إلا لظرف عارض فحسب، وما عدا ذلك فيعد نفسه خادماً لهم في كل شيء.

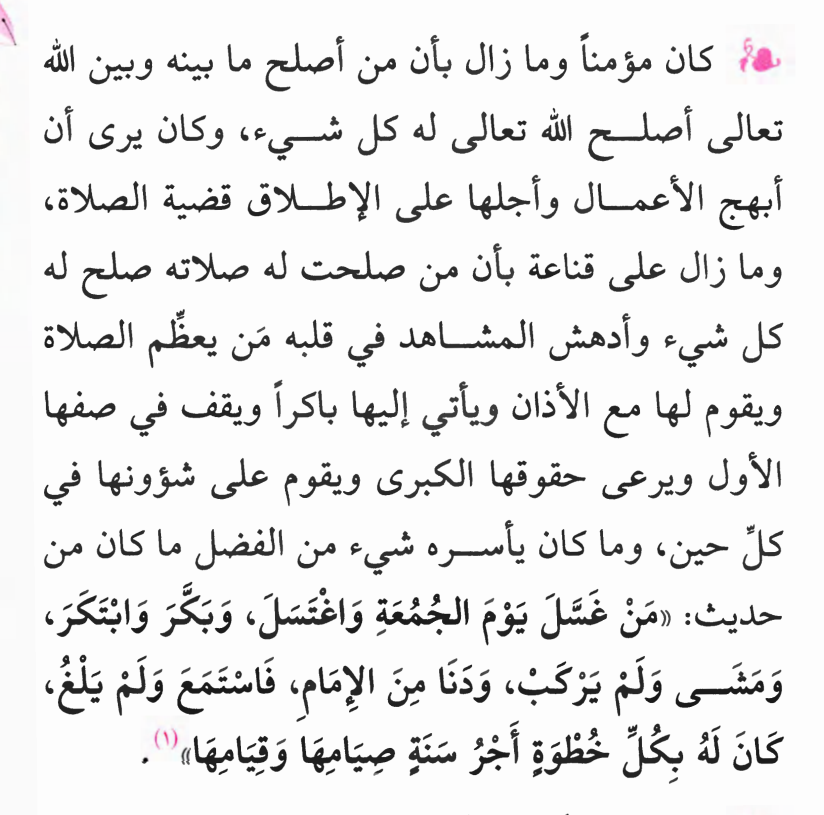
عاش متفائلاً في كل أحواله، وتعلم من الحياة أن وراء كل ضيق فرجاً وخلف كل محنة نعمة، وكل قادم محفوف بالأماني، وفي دينه أصل هذا المعنى الكبير.

يكره التشاؤم واليأس، عاش يطارد الإحباط في كل مساحة، وقضى عمراً غارقاً في التفاؤل حتى قيل له أن ذلك مبالغة، وكان يؤمن إيماناً عميقاً أن ظلام الليل مخلوف بإسفار الصباح وإن طال.

تعلم على كبر (فقه الأولويات) فكان أكثر الناس صلة لرحمه، وقد سنَّ لهم يوم الجمعة من كل أسبوع ما بين المغرب والعشاء، وكان يزور في الليلة بيتين أو ثلاثة أو أقل أو أكثر، وكان يستشعر حديث نبيِّه ﷺ في هذا المعنى الكبير: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١)، ويرجو الله تعالى تلك الأماني الكبار.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٣٦٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٣٨).



كان مؤمناً وما زال بأن من أصلح ما بينه وبين الله تعالى أصلح الله تعالى له كل شيء، وكان يرى أن أبهج الأعمال وأجلها على الإطلاق قضية الصلاة، وما زال على قناعة بأن من صلحت له صلاته صلح له كل شيء وأدهش المشاهد في قلبه مَن يعظِّم الصلاة ويقوم لها مع الأذان ويأتي إليها باكراً ويقف في صفها الأول ويرعى حقوقها الكبرى ويقوم على شؤونها في كلِّ حين، وما كان يأسره شيء من الفضل ما كان من حديث: «**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ، فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**»[1].

ويبقى زمناً متأملاً في هذه النعم التي هي بعض صور الاستثمار في الحياة. ويتأمل طويلاً في فضل الله تعالى ورحمته، وكان يتوق إلى ذلك الذي يقدِّس ساعة الجمعة ويجِلُّها ويقوم بحقِّها، فأما إذا بلغه بأن فلاناً من الخلق يصلي العصر ولا يخرج من مسجده إلا بعد صلاة المغرب إجلالاً لهذا المعنى فيرى

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٥)، وابن ماجه (١٠٨٧).

ذلك الحياة، فضلاً عمَّن يزور المقابر ويتعاهد رحمه في مثل ذلك اليوم، وقد قرأ حالاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى نقله فيما يذكر عنه تلميذه البزار أنه كان يجلُّ الجمعة ويعرف الناس منه ذلك الحال، فيقف الفقراء من باب بيته إلى باب الجامع فيخرج يتصدق عليهم حتى يدخل المسجد تفقهاً من قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، وكان يقول: إذا كان هذا في مقام النبي ﷺ، وأنه فرض على الناس في زمان ألا يكلموا النبي ﷺ إلا بشيء من الصدقة، فما الشأن بالمقام بين يدي الله تعالى يوم الجمعة؟! وقريباً من ذلك ما كان يقوله ابن القيم رحمه الله تعالى: يوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان، ومَنْ صَحَّ له يوم جمعته وسلم سلمت له سائر جمعته. اهـ. ويرى من أعظم مقومات التوفيق التبكير للصلاة وإجلال الصف الأول وتكبيرة الإحرام، ويرى أن الفرص لا تعوَّض، وإذا هيأ الله تعالى لإنسان زيارة بيته لعمرة فلا يتخلف ولو لم يكن في



تلك المدارج إلا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦] لكان كافياً، وكانت تدهشه مشاهد الصائمين للأيام البيض وكان يظنُّ أن الصيام يضعف طاقته ويقف دون مشاريعه، ثم اكتشف فيما بعد أن ذلك من الأوهام، وما زال يؤمن بأهمية الأوراد وأثرها على صاحبها ويغريه في هذا المعنى رسوله ﷺ حين كان يقضي ما فاته من قيام الليل ويصرُّ على قضاء راتبة الظهر لفواتها بعد صلاة العصر ويلزم ذلك، وقول ابن القيم في زاد المعاد أنه كان للنبي ﷺ أربعون ركعة لا يتخلف عنها ثم قال: ومَنْ أدمن القرع أوشك أن يُفتح له. اهـ. وما كان يرى عملاً مثل العطاء والجود والإحسان إلى الناس، وكلما مرَّ بطريق ورأى ماشياً وقف وأركبه وهو يذكر حديث البغي التي سقت كلباً فغفر الله تعالى لها وأدخلها الجنان، وكم هي المرات التي سمع فيها دعاءً ما يودُّ أن له به حمر النعم، وكم من دعوة جلبت له الخيرات فيما بقي من العمر، والموفق من وفقه الله تعالى، ولا نهاية للخذلان، والله المستعان!

تعلم من خلال هذا الفقه أن مشروعه كل شيء، ولا شــيء يأتي قبله البتــة، وصرف في ســبيل هذا المعنى وقته وجهده وفكره وماله وكل شيء. وقرر ألا يبدأ صباحه الباكر إلا بأهم أولويات ذلك المشــروع مهما كانــت الدواعي إلــى غيره، ولــو حدثك عن مشــاعره في هذا الشــأن لما كفاه ما يقول لك عنه، وما أكثر ما تزدلف روحه وقلبه لهذا المعنى ويجد فيه رواء الحياة.

لا يحــب التعــرُّف على أحــد ـ فــي البدايات خاصة ـ ولا ينساق إلى ذلك، ويراه نوعاً من الفضول الزائد، وهو جزء من طبع، وفي مــرات كثيرة إذا لم تغالبْ طبعك لم تأتِ على ما تريد مع الأيام.

نشأ لا يحب المجالس الأمامية، ويعرق إذا كان فيها، وتعجبه المجالس الخلفية لأنها تريحه من عناء الشهرة والمســؤوليات، وتمنحه فُجاجاً واسعاً من الحريــة، وهو كمــا عرفت يتــوق إلــى المعالي، ويتشــوَّف إلى مزاحمة الصفــوف الأمامية في كل مناســبة مجــد، ولا يرضــى أن يكون فــي عداد

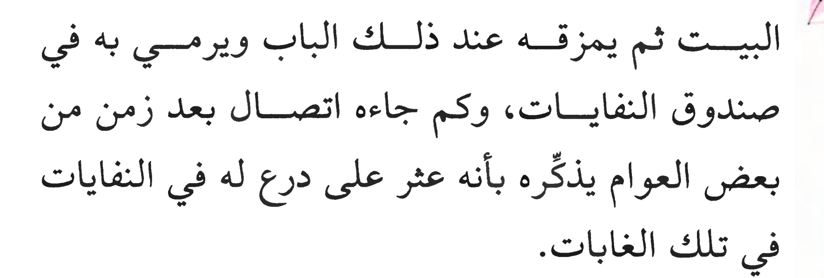


المتخلفين إلا في مثل هذه الصور التي ذكرها لك، فإنه لا يجد نفســه فيها، وقد عاش ورأى من يعشق هــذه المجالس ويتــوق إليها ويوالــي ويعادي في سبيلها، والحمد لله الذي لم يجعله في زمر هؤلاء، وللنفوس حظوظ، والأحرار يرون عظمة النفوس في الإباء لا في التكدُّس على الشهوات.

في قلبه عاطفة جياشــة، كلمة تأســره، وأخرى تفكُّه من القيد، يؤلمه أن يرى محتاجاً ولا يشارك في إعانته، ومَنْ رقَّت عبارته ودمعت عينه أخذ ما في يده في تلك الحال، واكتشــف فيما بعد أنــه كان صيداً لكثيرين فــي مثل هذه المواقف، ويحتســب عند الله تعالى كل ما جرى من تلك الأحداث.

آمن أن الحياة عبارة عن (فكرة ناهضة ومشروع حياة وقضية كبرى) تخالط قلب الإنسان وفكره ومشاعره، ثم تطوف به الأرض، وتحمله في الشــعاب، وتعانق به قمم الجبال، وتأتي به في النهاية على كل أمانيه.

ليس في بيته درع، ولا شــهادة تكريم، كان إذا استلم شــيئاً من ذلك في أي محفل صحبه إلى باب

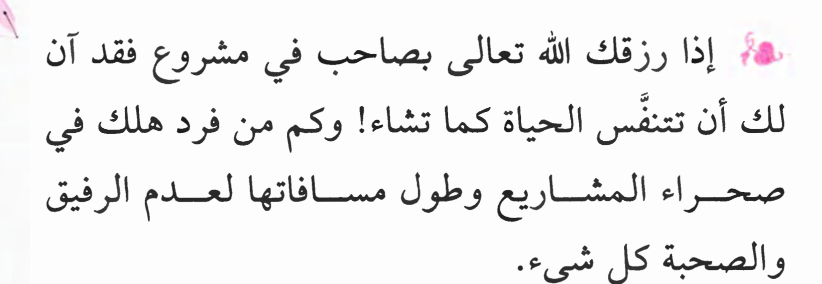


البيـــت ثم يمزقـــه عند ذلـــك الباب ويرمـــي به في صندوق النفايـــات، وكم جاءه اتصـــال بعد زمن من بعض العوام يذكِّره بأنه عثر على درع له في النفايات في تلك الغابات.

- حاول أن يغيِّـــر هـــذه الثقافة في مـــرات كثيرة ومناسبات متنوعة، وكتب عن ذلك في حسابه بتويتر كثيـــراً، وذكَّر بغير هـــذه العادات الباليـــة وتكلم في مجالس كثيرة، واستفاد أناس مما طرح وقيَّد الروتين آخرين وما زال!

- سافر إلى كثير من أفياء وطنه الكبير حاملاً فكرته التي عاش من أجلها (مشـــروع العمر)، مســـوقاً لها، وكلما زادت مســـاحة الســـفر زادت قناعته بأن حاجة الأمة للعناية بأفرادها أعظم من كل حاجة.

- هدفك إذا لم يقمك نصـــف الليل، وفي ليالي الشـــتاء الباردة، ويبعثـــك في حرِّ أجـــواء الصيف، ويرحل بك علـــى قلة ما في يـــدك، فلن يصنع لك جديداً ولن يورثك مشـــروعاً، ولن يكتب لك قصةً تستحق التدوين.



إذا رزقك الله تعالى بصاحب في مشروع فقد آن لك أن تتنفَّس الحياة كما تشاء! وكم من فرد هلك في صحـــراء المشـــاريع وطول مســـافاتها لعـــدم الرفيق والصحبة كل شيء.

تارة تحتاج أن تعمل بالقرب من عقارب الساعة لـتأتي على أهدافــك، وتارة تحتاج أن تكســـر تلك الساعة من أصلها لتعيش سالماً من الأرق والضيق!

إياك أن تتســـوَّر محاريب القلـــوب، وتأتي على النيـــات، وتصنع تفســـيراً لـــكل عمل فذلك شـــأن المفلســـين، كن صادقاً وأحســـن الظـــن، ودعك من الحديث عن الأخطاء والعيوب، وارفع بصرك للسماء وانظر للعلياء، وتفوَّق علـــى كل ما بين عينيك، فكم من ربيع من أصحابك يحتاج إلى صبر وطول زمان، وسيورق في النهايات بما تشاء.

لو ســـألته: من هو؟ لقال لك: إنســـان كبقية مَنْ حولك له مشاعر لا يسعها إلا الفضاء الرحب، والهواء الطلق، يكره القيد ولو كان وهمـــاً عارضاً، ويحارب صوره وأشـــكاله في كلمة أو رأي أو فكـــرة أو قرار

أو عمل، وإذا سمع به ولو كان عارضاً فهو أول عدو له في ذلك المكان.

- تؤلمه كثيراً المواقف التي يشعر فيها بالضيم، وعدوان الصديق، وتجهُّم القريب، وقد تبقى هذه المواقف زمناً في نفسه، وتغالبه في لحظات من عمره، ولكنها تمر بمرور الأيام.

- يكره التملُّق لأي سبب، ويعاف صاحبه، ويراه صورة مخبوءة في طياتها المكر والخداع والنفاق، ما رأى أحداً في ظلاله إلا قلَّ في نظره، وسقط من عينه، وتجاسر قلبه على كراهته أو لقائه أو السماع منه.

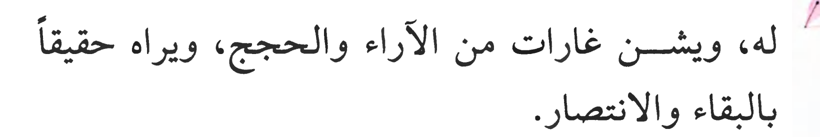
- يكره الضعيف ولا يحب صحبته، ويرى أن هذا لا ينفع في ضيق، ولا يفيد في موقف، يأسره الشجاع لدرجة الوله ويشرف بالانتماء إليه، ويراه نجدة الزمان ومنحة الحياة.

- يحب العمل ويعشق التحدي، ولا تطيب نفسه في دائرة فيها من هو أكثر نجاحاً منه حتى يلحق بركبه ويصبح في عداد المميزين، وأسوأ يوم في حياته ذلك

اليوم الذي يأتي فيه متأخراً عن دوامه ومتخلفاً في باكر يومه، ولو ملأت عينك من وجهه لرأيت ما يدلك على حسرات تلك المواقف في حياته.

يهوى الصمت ويشتاق إليه ويرسب في تطبيقه في كل موقف، وتموت الفضيلة حين يرى موقفاً يحتاج إلى مشاركة، أو رأياً هزالاً يحتاج إلى رد، أو موقفاً بارداً تجاه قضية تحتاج إلى رأي، وظل هكذا زمناً طويلاً من عمره يأتي مؤمناً بهذه الفضيلة، ثم ما يلبث أن يغيّرَ على ما حوله من الأفكار والمفاهيم والتصورات وينقض ذلك العهد.

يحب النجاح لغيره، ويُسر به، وتنفرج أساريره في موقف نجاح وبهجة لمن يحب، ويرى أن ذلك من أفراحه العاجلة، وإذا تقدم من يحب في موقف أياً كان ذلك الموقف فتراه يتصبب عرقاً خوفاً على صاحبه ألا يجري الحياة كما يشاء، وإذا صنع موقفاً ملهماً في تلك المساحة فقد لا يسعه إلا التكبير على صنائع الرجال، يعجبه أن يكون الحق على لسان غيره كما يحب لنفسه، وقد يتوق إلى فرض رأيه، ويتعصَّب



له، ويشن غارات من الآراء والحجج، ويراه حقيقاً بالبقاء والانتصار.

يحب الجميل في كل شيء! ويتذوَّقه لدرجة العشق، وقد يستدين لشرائه، وبقي هذا الشأن يطارده كثيراً ويداهم لحظاته، وكبر فأدرك أن من الحكمة تأجيل الرغبات، وهي وصية نافعة سمعها من صاحب تجربة، وما يزال يتربَّى على هذه الفضيلة، فجميل الأمس يعود ماضياً مع الأيام، والقادم يأتي في وسط ظروف مليئة بالجمال.

لا يحب التكلُّف في لقاء، ولا صحبة ولا موقف ولا في ضيافة، تعجبه البساطة لدرجة الفرح بها، وصديقه الذي يحن إلى زيارته هو الذي إذا زاره شاركه في غداء أو عشاء بيته، وإذا رأى صديقاً يتكلَّف هجره فما له وللكلفة شيء، وما زال يعتقد أن إكرام الضيف الوارد في شريعة الله تعالى ليس هو بالضرورة هذه المظاهر التي تذهب في النهاية في الطرقات وحاويات النظافة.

كان إذا سافر تعهَّد على مضيفيه أن يجروا عليه عادته التي يحبها وتارة ينجح وتارات يخفق وما يزال،

وأبهـــج اللحظات عنـــده تلك التي يجد فيها أبســـط الأشياء وأقلها كلفة.

لا يحب حفلات التكريم لنفســـه، وما اشرأبت نفسه لشـــيء من هذا، وإن كان يرى أن من واجبات المجتمعات المتحضرة رعاية المتميزين والعناية بهم ومحاولة دعمهم في مســـيرتهم، وكبـــر وعاف تلك الحفلات واللقاءات، ولولا أنه يُدعى إليها ويخشـــى من سوء الفهم عند التخلف عنها لما حضر شيئاً منها.

هو مديـــن لأربعة أشـــخاص: أولهـــم رماه في مسؤولية مشروع ثقةً منه في قدراته، فحمله مسؤولياته ورآه أهلاً لقيادته، والثاني وقف في موقف تخاذل فيه الرجـــال، والثالـــث حدَّثه بحديث خـــاص عن عيب أو نقـــص في مشـــروعه أو فكرته أو نفســـه، والرابع شاركه في رسالته ومشـــروعه وأعانه على حمل فكره ومد يد العون لتحقيق مباهج النجاح.

جبله الله تعالى على كراهة التفصيل في الحديث والتشقيق في الكلام والإســـهاب في العبارات، وقد جُبل على الســـرعة فتراه أعجل ما يكـــون في تناول

الطعام ونحوه، ولا تكاد تحسب له دقائق معدودة إلا وقد قضى نهمته منــه، وقل مثل ذلك فــي كثير من الأشياء، هو مولع بالطعام الحار ولا يستسيغ البارد، وإذا لم يجد له لهباً ولا دخانــاً أغار عليه بكل بديل يعيد إليه تلك الحرارة ويســقيه من آثارها، وهو جزء من شــخصيته وقد جُبل على حــب الحركة والإثارة والنهضة، وأكره من يرى ذلك الثقيل الذي يميته في بعض المواقف ألف مرة قبــل أن يوصل له ما يريد. وقد نقل إليه ذات مرة أبناؤه تحذيــرات الأطباء من الأكل الحار، ومع إيمانه بأصحاب الاختصاص إلا أن للشهوات دورها في عتم الطريق!

فــي بداية حياتــه كان مولعــاً في تنظيــم وقته بالساعات، وكل ساعة أو ساعتين فيها عمل وهدف، ثم انتقل إلى أوقات الصلوات فبعد الفجر كذا، وبعد الظهر كذا، وبعد العصر، وبعد المغرب، وبعد العشاء، ثم تخلى عن ذلك كله وأصبح مشروعه كل شيء في آناء الليل والنهار قــراءةً وكتابةً، وآمن في النهاية بأن كتب ودورات وبرامج إدارة الوقت إذا لم تنطلق من

هذه الفكــرة المركزية فهي كالعجلــة التي تدور في مكانها ولا جديد، وقرر هذا المعنى في كتابه: (قصة حلم: التخطيط الشخصي وإدارة الأولويات)، وما زال يردده في كل مناسبة تقتضي ذلك الحديث، وما نصنع بالأهداف والرؤى والأحلام دون رؤية تدفع بنا لبناء تلك الطموحات التي نرومها مع الأيام؟!

حين تعاشــره ومن أول وهلة تراه وديعاً ســهلاً بسيطاً وقريباً من قلبك ومشــاعرك وهو كذلك، وقد لا تغلبه في مثل هــذه الجوانب، وهــي في الأصل جبلة، فــإذا رآك معتداً برأيك، مصــراً على فكرتك، لا تقبل نقاشاً كرَّ عليك كالسيل الهادر لا يبالي بك، وقد تخسره ويخســرك في ذات الوقت، وله في هذه مواقف خسر من خلالها أشــياء وربح أخرى، وكلما حاول أن يكون أكثر هدوءاً كرَّ عليه واقعه وعادت إليه جبلته، ومارس ما كان يخاف ويحذر مع الأيام.

كثيراً ما قرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبــوت: ٦٩]، وعرف منها في النهاية كل شيء، أدرك أن الإنســان إذا صدق مع الله تعالى

وأقبل إليه وأدمن طرق الأبواب فتح الله تعالى له، ويسَّر له، وأمدَّه بتوفيقه، وأجرى تلك المعاني في قلبه ومشاعره كما يشاء، جرِّب هذا في اكتشاف فكرة المشروع، وفي جملة من أبواب العلم، وحفظ القرآن، وتَعلُّم بعض المهارات، وفي بعض العادات، وفي معانٍ متعددة من العبادة كالتبكير للجمعة، والبقاء في المسجد لانتظار ساعة إجابتها، والمسارعة للصلوات، والصيام، وجلسة الضحى حتى ألفها مع الزمن، وصار التخلف عنها لعارض مفضياً إلى عدم الراحة في كثير من الأحيان، ولله ما أمتع هذا المعنى! وما أعذبه! ومن جرَّب عرف، ومن ذاق استلذ، والله المسؤول أن يزيدنا من فضله ويهب لنا واسع رحمته، ويجري لنا ما لم نحلم به مع الأيام، ولله تعالى هبات ومنح، وإذا أعطى أدهش، وهو المستعان، وعليه التكلان ومنه الحول والطول، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يكره الهزائم ويحب الانتصار حتى في أبسط الأشياء، ويكره في المقابل الاستغلال، وقد يماكس صاحب الأجرة ولا يعطيه ما يطلبه من أول وهلة



خروجـاً من الاسـتغلال، فإذا ما ركـب معه وقضى حاجته وأوصله إلى ما يريد أعطاه في مرات أكثر مما اتفق معـه، وقل مثـل ذلك في شـراء ما يحتاج من الشـاي والقهوة ونحوها مما يباع فـي الطرقات، إذ يحبذ أن يأخذها من البوفيات بريال وريالين، ويكره أن يقف عند تلك المحلات التي تنتشر في الطرقات وتأخذ أموالاً مضاعفة، على الرغم من أنه يملك كل شيء، ولكنه يرفض الاستغلال بكل صوره ومعانيه.

وفي الختام هذه بعض الفصول وشيء من السيرة، وأجزاء من الزمن، وبعض من الروح والفكر بعثتها بين يديك لعلها ترسـم طريقاً وتدفع عقبـة وتبعث روحاً وتستنهض همماً وتجري فصولاً للحياة، والله المسؤول أن يرزقنا وإياك الإخلاص والتوفيق فـي الدارين، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه. والحمد لله ربِّ العالمين.





فهرس المحتويات



